
شريف الراس
طاحون الشياطين
رواية
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل



شريف الراس

طاحون الشياطين

رواية

على مفترق الطرق

توقفت سيارة الباص العتيقة، من غير أن يتوقف هدير محرّكها المزعج، والتفت السائق السمين الى رجل أنيق كان يجلس الى جانبه على المقعد الأمامي المنفرد، وقال له:

ـــ تفضل انزل.. هذا مفترق الطريق الى مزرعة الطاحون.

الرجل الأنيق لم يسمع شيئا من كلام السائق، بسبب صوت هدير المحرّك الذي يمكن تصنيفه في خانة «الجعير».. وكان ذيل الغبار الكثيف الذي أثاره الباص خلفه قد لحق بالباص المتوقف فدخل من النوافذ المفتوحة واندسّ في الأنوف والحلوق والتصق بالوجوه المبللة بالعَرَق، وتغلغل الى الصدور والى كل شيء، بحيث أن الرجل الأنيق لو نظر الى المرآة آنذاك لرأى وجهاً آخر غير وجه الدكتور أحمد الفشاش أحد أشهر الأطباء في المانيا، الأمر الذي زاد من مضاعفات ما حلّ به من قلق واضطراب.

لقد فوجيء تماما. لأنه لم يكن يتصور أن يكون المكان هكذا.. وشعر بأنه قد وقع في فخ عجيب.

قال السائق السمين الذي يلهث، وقد رفع صوته عاليا:

ـــ ما لك يا أستاذ؟.. انزل ودعنا نكمل طريقنا. هذا طريق طاحون الشياطين الذي طلبت النزول عنده.

وعندما كان الدكتور أحمد يحاول أن يفتح باب الباص، الأشد قساوة من باب دبابة، سمع المعلومة الهامة التالية:

ـــ المعاون سوف يرمي لك الحقيبة من فوق السطح.. عدم المؤاخذة يا

محترم.. باصنا لا يليق بالمقام ولكنه الباص الوحيد الذي يأتي الى هذه المنطقة وبمواعيد منتظمة تماما.

نزل الدكتور أحمد الفشاش من الباص. وفي اللحظة ذاتها تلقّف حقيبته التي قذف بها اليه شاب من فوق. وكان هذا «الفوق» مثل «التحت» يغصّ بالركّاب والأكياس والصناديق والسلال. وكان هؤلاء الركّاب جميعا من البدو والفلاحين، أو هم بدو بدأوا محاولة تقليد حياة الفلاحين في هذه المنطقة النائية من البادية. ولاحظ الدكتور أحمد أن نوافذ الباص كانت مليئة بالعيون المحدقة التي تتساءل: «ما الذي جاء بهذا الأفندي الأنيق الى هذه المنطقة النائية؟».

انطلق الباص من جديد فأثار خلفه ذيلا طويلا من الغبار الكثيف الذي حجب النوافذ والعيون وكل شيء. ثم ما لبث الباص أن غاب هو وذيله الغباري الطويل وراء تلك التلال البعيدة.

وقف الدكتور أحمد وحيدا ينظر الى هذا الفضاء اللانهائي من الأراضي المنبسطة الممتدة حتى خط الأفق البعيد. وكان ثمة «قُبَّرة» تنظر اليه ـــ باستغراب.. ربماـ ولكنه لم يشعر بوجودها رغم أنها كانت تتقافز طائرة حوله وهي تغرّد بنشيد المساء. غير أنه لم يكن يسمع في أذنيه الا الوشيش المتبقي من صوت جعير محرّك السيارة.

نفض الغبار عن ثيابه، ثم مَسَّدَ شعره بيده وهو ينظر الى حقيبته الكبيرة، ووجد نفسه ـــوهو في هذه الحال من الحيرة والقلق والشعور بالوحدةـــ يبتسم ويقول:

ـــ سامحك الله يا حاج رضوان.. ما هذه الورطة؟

ونظر حوله من جديد، ثم حمل حقيبته الثقيلة ومشى على الدرب الفرعية.. **«وأين أنتِ يا مزرعة الطاحون؟.. ثم.. من بين كل الأسماء التي في الدنيا لم يجد أخي الحاج رضوان اسما لمزرعته غير هذا الاسم العجيب؟ كيف تجتمع المزرعة والطاحون معاً؟. وماذا تطحن هنا حيث لا شيء غير التراب والغبار!!»**.

كانت الحقيبة ثقيلة الى حدّ مؤلم. غير أنه من المستحيل تركها هنا. وقد لا تكون المزرعة بعيدة. إذ ربما كانت خلف تلك التلة، أول تلة. فالحاج رضوان ذكر في رسالته أن الطريق لن تستغرق، مشيا على الأقدام، أكثر من شرب سيكارة.

ـــ لكنك تعرف يا أخي بأنني، مثلك، عمري ما دخنت سيكارة أبداً.

توقّف وهو يلهث. وضع الحقيبة على الأرض ثم تحسس عضلة ذراعه التي تؤلمه..

ونظر الى أصابع يديه النحيلة. ليس من الضروري للجرّاح الماهر أن تكون له عضلات مصارع، لكن من المهم أن تكون له أنامل عازف بيانو. وهذه موجودة ولكنها هنا لا تنفع. ثم سأل نفسه وهو يهز رأسه مبتسما بحرارة:

ــ بل ماذا تنفع الموسيقى كلها في مثل ما نحن فيه الآن؟.. اننا لسنا في فيسبادن.

جمع الرجل النحيل كل قواه فرفع الحقيبة الثقيلة الى أن حملها على كتفه ومشى. صارت القُبّرة قُبَّرات كثيرة تطير وتحط وتقفز وهي تغرّد فتبهج الجو بمشاعر جميلة تحيي ذكريات الطفولة. وكان في الجو أيضا، مع نُسَيْمات المساء، أريج أزهار الختمية البرية التي ظلت صامدة بعد يباس أعشاب الربيع. **كانت نبتات الختمية الباسقة، ذات الأوراق الكبيرة والخشنة، شاخصة مبعثرة هنا وهناك، تقول للأطفال: «تعالوا اقطفوا أزهاري العطرة والمنعشة، واملأوا حروجكم بهذه الأوراق الحريرية اللامعة، وخذوها هدية لأمهاتكم حتى يصنعوا منها أفضل دواء للسعال».. لكن أين الأطفال؟.. وأين زمن الأطفال؟.. لقد ذهب كل شيء منذ ثلاثين سنة وأكثر.** والشاب النحيل الذي غصب نفسه على التهرب من كل ما يذكّر بالماضي الجميل كان يتألم من وطأة الحقيبة الثقيلة على كتفه، فرفعها وحملها فوق رأسه، وراح يصعد التلة وهو يجرّ ساقيه بصعوبة مع الطريق الترابية التي تصعد تلك التلة. وكان يلهث حانقاً ويقسم بأعظم الأيمان بأنه ما إن يبلغ أعلى التلة حتى يقذف بالحقيبة كيفما كان، ويرمي بنفسه متمددا على الأرض ويفرد ذراعيه ويظل ينظر الى اللاشيء في السماء.

كان واثقا من أنه إن فعل ذلك، وهو يتأمل تلوُّنات السماء وقت المغيب، فسوف يصفو ذهنه ويستريح، وقد يجد الجواب الذي طالما طرحه على نفسه: **لماذا أوصاني أخي الحاج رضوان، في رسالته، بأن آتي من المطار الى المزرعة مباشرة؟.. ولماذا ألحّ عليّ بأن لا أزور المدينة أبدا؟.. ثم لماذا لم يذكر في رسالته أية كلمة عن أختنا خديجة؟. ولماذا ألحّ عليَّ كل هذا الالحاح بأن آتي من المانيا بأسرع ما يمكن، مع أنه كان خلال العشر سنوات الماضية يوصيني بأن لا أقترب من «حيطان الوطن» حسب تعبيره؟**

كان الطبيب النحيل يحثّ الخُطى صاعدا، ولكنه عندما وصل الى أعلى التلة شعر بأنه يكتشف الدنيا فجأة. لقد رأى المزرعة.

كانت الطريق تنحدر ثانية الى أن تضيع في منبسط أخضر تحيط به أربع تلال. وفي وسط هذه البقعة الخضراء المتميزة عن كل ما حولها بيتٌ ومروحة كبيرة تدور في أعلى برج من مضلّعات الحديد، إنها مضخة الماء.

وقال أحمد لنفسه وهو يبتسم: هذه إحدى اختراعات الحاج رضوان.

ورمى الحقيبة عن رأسه، وفتح ذراعيه على اتساعهما، وصرخ بأعلى صوته: يا حاج رضوان يا حاج رضوان.

وشعر بأن صوته قد هزّ الدنيا ووصل الى المريخ.

كانت المزرعة بعيدة تحت مرمى بصره. لذلك فانه لم يسمع نباح الكلب، ولم يلاحظ أن ثمة أربعة أطفال كانوا يلعبون أمام باب البيت، ما إن سمعوا صوته حتى فرّوا مذعورين واختبأوا في الداخل.

الفصل الأول

عزيزتي هيلدا

انك لن تصدّقي ما سوف أخبرك به عن أخي الحاج رضوان، ذلك الانسان الرائع الذي كنت تقولين عنه إنه أعظم رجل عرفته في حياتك.. هل تذكرين وصف صديقاتك له عندما كان في زيارتنا بفيسبادن قبل خمس سنوات؟.. انت التي نقلت إليّ بأنهن شبّهنه بقدّيس محارب خرج لتوّه من اطار أيقونة تاريخية قديمة. طويل، عريض متين البنية، وضّاح، يتدفق النور من وجهه المتفائل البسّام.. ومن لحيته الجميلة تشعّ كل إيحاءات الرجولة الرصينة ومتانة الانسان المتجذّر في الأرض.

لم يبق شيء من ذلك يا هيلدا.

حتى أنني، عند أول لقاء، لم أعرفه.

لكن دعيني أخبرك أولًا كيف وصلت الى المزرعة.

جاءتني من المزرعة سيارة صغيرة، مكشوفة، عتيقة جدا بل شبه محطمة، كانت تثير خلفها زوبعة من الغبار الكثيف. وكان صوت هدير محرّكها يسبقها. ولقد أدهشني حقا أن أراها تستطيع الصعود الى أعلى التلة حيث كنتُ واقفا أنتظر.

نزل السائق، وحمل حقيبتي ووضعها في السيارة:

ــ تفضّل عمي.

انه بدويّ ملثّم. وقد عرفت فيما بعد أنه يظل متلثما باستمرار لأنه يخجل من أن يرى أحد شفته العليا المشرومة، وأسنانه السفلى السوداء، وسنّاً واحدة في واجهة

الفك العلوي كبيرة أكثر مما ينبغي. وكانت تحت عينه اليسرى بقعة سوداء وزرقاء، لم أستطع أن أعرف ما هي أو ما أصلها. وكان هذا الشاب القوي خجولا جدا.

قلت له: أنا الدكتور أحمد.. فمن أنت؟

قال: اسمي زاكي.

سألته: وما هذه السيارة العجيبة؟

أجاب: هذه هيئة الأمم.. عمي الحاج رضوان سمّاها هكذا.

قال ذلك وهو يبتسم، وقد عرفت ذلك من يده التي غطى بها فمه، كأنه يخشى أن أرى ابتسامته من تحت اللثام.

وراح يقود السيارة بمهارة وإتقان.

سألته: لماذا سمّاها هيئة أمم؟

قال: لأنه ليس فيها قطعتان من بلد واحد.. كل قطعة حديد في هذه السيارة وردت من بلد. وعمي اشتراها ميتةً من مقبرة السيارات، وهو الذي عمّرها حتى صارت هكذا تمشي وتركض، وصوت منبّهها يصل الى آخر الدنيا.

ـــ وعمك موجود في المزرعة؟

ـــ ها قد وصلنا.. وستعرف الآن كل شيء.

سحرني منظر المزرعة الخضراء في وسط هذه المنطقة القاحلة التي لا تقع العين فيها على غير المنبسطات الترابية الممتدة على مرمى البصر، تغطيها قشرة من بقايا الأعشاب القصيرة اليابسة التي تتناثر بينها أنواع من الحصى الصغيرة المسطحة. وكانت حُمرة مغيب الشمس، وألوان المساء الصفراء والبرتقالية، قد زادت من جمال هذا الكون الصافي الواسع. ورأيت في المزرعة ــعلى صغر مساحتهاــ صفوفا من الأشجار المثمرة، وحقولا خضراء من نبات البرسيم، تحيط بها سياجات من نباتات الذرة، وكان ثمة بركة ماء صغيرة ظننتها مسبحا، ثم عرفت فيما بعد بأنها حوض لتربية الأسماك. (**متى انقلب الحاج رضوان من مصلح مضخات كهربائية الى خبير زراعي؟**). وكانت المزرعة مسيّجة بسور من أشجار الزيزفون الشوكية، فيه فتحة واحدة لاتتسع لمرور أكثر من شخصين. وقد لاحظت على يمين فتحة المدخل رحى طاحون ضخمة جدا من الصخر المنحوت ربما كان عمرها مئات السنين.

هنا ينتهي الدرب وتتوقف السيارة وننزل نمشي الى البيت الذي يتوسط المزرعة..

حمل الزاكي الحقيبة ومشى أمامي. وعندما صرنا أمام الباب أسرع فأمسك بالكلب الذي كان ينبح بوجهي غاضبا متوعدا. ولكنني، في اللحظة ذاتها، فوجئت بزوجة أخي (**هل تذكرين أُمَّنا شفيقة التي لوجهها شفافية نور وجوه الملائكة؟**) تأتي نحوي مسرعة ملهوفة وهي تقول:

ــ تعال يا أحمد.. أسرع.. إنها تموت.

ــ من هي التي تموت؟

ــ سلوى بنت أختك خديجة.

ودخلت البيت مسرعاً.. كانت الأشياء في الداخل غير واضحة مع بداية عتمة المساء، غير أنني استطعت أن أرى رجلا ضخما جالسا على فراش ممدود على الأرض، وهو يحتضن طفلة صغيرة ويبكي بأنين خافت لكنه يمزّق القلب. كان يضم رأسها الى صدره وينود بها وهو يبكي صامتا. لم أعرف ذلك الرجل. كان حليق اللحية.

قلت: أشعلوا مصباحا. ألا يوجد عندكم كهرباء؟

قال ذلك الرجل: لقد جئت في الوقت المناسب يا أحمد.. أنقِذها.

بُهِتُّ.. عرفتُه من صوته.. مستحيل أن يكون هذا هو الحاج رضوان الفَشّاش. أين ذهبت لحيتك؟.. ثم.. لا يمكنني أبدا أن أتصور أن عملاقا مثلك يبكي وينود مثل أمٍ ثكلى.. يا حاج رضوان.. هل هذا أنت؟

جلبت «أمنا شفيقة» مصباح نفط. فرأيت على نوره وجه أخي المبلل بالدموع ورأيت ذقنه بلا لحية لأول مرة في حياتي. وأخذت الطفلة من حضنه لأفحصها. كانت محمومة غائبة عن الوعي وهي غارقة بعرقها.

قال لي بلهجة استفزازية:

ــ افحصها جيدا واجعلها تشفى.. اذا ماتت فانني أبصق على شهاداتك.

قلت له بأعصاب هادئة:

ــ لاتخف.. معها شيء من الحمى.. ربما بسبب التهاب في الأمعاء.. ومعي أدوية ممتازة في الحقيبة.

ووجدت نفسي أبتسم، يغمرني شعور بأنني أنا الأخ الأكبر القوي هذه المرة، وقلت له معاتبا:

ـــ أهكذا تستقبلني يا رجل؟.. أين الأشواق التي احتقنت في القلب خمس سنوات؟

فرمى بنفسه عليّ، وعانقني بشدة، وراح يقبّلني وهو يمسح دموعه ويقول:

ـــ الحمد لله على سلامتك يا أحمد. لا تؤاخذني يا أخي.. فهذه الطفلة هي كل ما بقي لي من رائحة أختنا خديجة.

سألته بلوعة:

ـــ خديجة؟.. مالها خديجة؟.. أين خديجة؟

كفكف دموعه وهو يقول:

ـــ ستعرف كل شيء في الوقت المناسب.. عليك الآن أن تعالج الطفلة.. ضع كل جهدك وفنك في شفائها.

فقلت محتجاً:

ـــ بل إن من حقي أن أعرف الآن وفي الحال.. فأنت، في كل رسائلك، لم تخبرني شيئا أكثر من أن زوج خديجة قد قُتل اغتيالا على باب بيته أثناء المذبحة.. إذن أين خديجة؟

نهض الحاج رضوان واقفا وهو يقول لي بلهجة آمرة:

ـــ لا ترفع صوتك بوجهي.. أمرتك بأن تنتظر إذن عليك أن تنتظر.. لا تنس أنني أخوك الأكبر وأنني..

ثم يبس الكلام في حلقه، فارتجفت شفتاه، وصمت، وتركنا وخرج.. وبعد لحظات سمعت صوته يدوّي من فوق سطح البيت: «الله أكبر الله أكبر».

كان يرفع أذان المغرب.. لكن.. اذا كان يدعو الناس «حيَّ على الصلاة» فأين هم الناس في هذه البادية القفراء الخالية؟

وكنت قد فتحت الحقيبة وأعطيت الطفلة المحمومة حبتين من دواء مناسب. وكان يقف حول الحقيبة المفتوحة أربعة أطفال. كانوا ينظرون الى محتويات الحقيبة بعيون فضولية متسائلة.

كانوا ولدين وبنتين.

ولو أنني علمت بأن في المزرعة مثل هذه المفاجأة لجلبت معي كل ما في فيسبادن من شوكولا وألعاب وهدايا مفرحة.

قال واحد من الأطفال للآخرين هامساً بحذر:

ـــ ليس معه بارودة (بندقية).

وظلت عيونهم شاخصة الى أغراض حقيبتي المفتوحة. كأنهم يريدون التأكد من أمرٍ معيّن يشغل بالهم... فقلت لهم متأسفاً:

ـــ ليس معي بارودة.. لماذا البارودة؟

فسألتني طفلة:

ـــ يعني.. أنت لن تذبحنا؟

فجعني هذا السؤال المروّع.. قلت لها:

ـــ لا يا حبيبتي.. أنا أحبكم.. أنا أدافع عنكم.

فقالت الطفلة:

ـــ يعني انت مثل بابا رضوان؟

بابا رضوان؟.. التفتُّ إلى أمنا شفيقة التي جبلها الله من أوراق الورد والشرف والورع والحنان والعطاء والشهامة والنبل.. التفتُّ إليها بنظرات متسائلة...

قالت: هؤلاء أولادنا.. الحاج رضوان استدعاك لتعرف هذا.

فسألتها باستغراب أشد:

ـــ أولادكم؟.. طول عمري لا أعرف إلا أنكم لم تنجبوا أي طفل.. ولذلك عاملتموني أنا وخديجة معاملة ولدين، وأنتِ أمنا والحاج رضوان أبونا الذي سخَّر كل حياته لتربيتنا.. ما هي القضية أرجوك؟. خبّريني.

ظلت شفيقة صامتة.. وحملت الطفلة ونقلتها الى فراش آخر كانت قد أعدّته في ركن منعزل بالقاعة، وغطت الطفلة النائمة بلحاف، ثم عادت وهي تقول:

ـــ سلمت يدك يا أحمد.. البنت يبدو عليها أنها استراحت وغفت في نوم هادىء عميق.. هل تأكل لقمة أم تشرب القهوة وتنتظر لتتعشى مع أخيك؟

ـــ ومتى يتعشى؟

ـــ لن ينزل عن السطح إلا بعد أن يرفع أذان العشاء.. هذه عادته.. إذا صعد لأذان المغرب فلن ينزل قبل أن يصلّي العشاء.. مع أنه، في بعض الأحيان، يمر أسبوع أو عشرة أيام لا يؤذّن فيها ولا يصلّي.

ثم التفتت نحو الزاكي وقالت:

ـــ قم ورتّب أمور العشاء يا زاكي.. الدكتور أحمد يحب الدجاج المشوي بالتنور..

وقالت للأولاد:

ـــ هيا يا أولادي.. اذهبوا وعاونوه في نتف الريش. حافظوا على الريش نظيفا حتى نحشو به المخدّات.

فسألتها: وأنا؟

مدّت يدها بحنان لتأخذ بيدي قائلة: أنت تعال معي الى الحنفية حتى تغسل وجهك.. فأنا لا أحب أن أقبّل وجناتٍ كلها غبار.. قم معي..

نهضت ومشيت معها. ولا أدري لماذا انتابتني في تلك اللحظة حالة من الارتياح العجيب. بل انني كنت كمن يكاد يطير من الفرح. وهو فرح غامض يشبه حالة من يشعر بأنه قد وصل فعلًا الى برّ الأمان..

لكن أي أمان هذا المليء بالتساؤلات المخيفة والغامضة؟

قلت لها:

ـــ كل هذا ولم تخبريني.. متى ولدتم كل هؤلاء الأطفال.

قالت:

ـــ إنهم أولادنا قطعاً. وقد وُلدوا من خاصرة المذبحة.

ـــ كلامك يزداد غموضا.

ـــ أخوك أقدر مني على ايضاح مثل هذه الامور.

ـــ متى؟

ـــ عندما ينزل من على السطح.

قلت: ولِمَ لا أصعد أنا اليه؟.

غسلت وجهي وخرجت.

صار منظر المزرعة أكثر جمالا. والأولاد أشعلوا النار في التنور تحت الدَرَج. كانوا سعداء بلعبة نتف ريش الدجاج، وإلقام نار التنور بالأحطاب.. أما الدرج ذاته فان الصعود عليه متعة بحالها.. انه ألواح صَخرية منحوتة بشكل بدائي، وبارزة من الجدار.. وحين وصلت الى السطح سألني الحاج رضوان، الذي كان جالسا مثل تمثال: **ـــ ما هي أخبار سلوى؟**

قلت: استراحت.. وسوف تشفى بسرعة إن شاء الله.
قال: أحسنت.. طول عمري وأنا أقول إنك طبيب ماهر.. تعال اجلس هنا بجانبي.

جلست.. وقعدنا ساكتين.
ما أكبر قبة السماء..
ما أعظم أن تشعر بأنك واسع سعة هذه الدنيا الصافية، الهادئة، المتلألئة بالنجوم.

جسنا الى جانب بعضنا صامتين. صرنا تمثالين.. هو يفكر صامتا وعيناه مسافرتان الى البعيد البعيد، وأنا أفكر صامتا وعيناي مسافرتان الى البعيد البعيد.. على أنه كان بين قلبينا خيط اتصالٍ قَلِق نشعر به ولا نشعر.
ولم أسمع صوته إلا عندما صعد الكلب ومدّ رأسه من فوق نهاية الدرج، فصاح به «هشت» فلوى الكلب ذيله وغاب.
ثم مدّ يده الى عبّه وأخرج علبة سكاير، وقدم لي سيكارة:
ــ خذ.
ــ شكرا.. تعرف أنني لا أدخن.
فأشعل سيكارة وظل صامتا.
قلت له: كنت أظنك لن تدخن طول حياتك.
قال: عندما كنت أعيش حياتي أنا، وفيت بالتزامي فلم أدخن أبدا.
ــ ما هذا الكلام؟.. إذن حياة من تعيش الان؟

ــ لا أعرف.. انني أعيش أي شيء إلا حياتي. أنا يا أحمد انتهيت في شهر المذبحة. صدّقني إنني أحسد أولئك الشهداء الضحايا على أن الواحد منهم قُتل مرةً واحدة واستراح.. أما أنا فإنني قُتلت أربعين الف مرة... كلما ذبح الأوغاد بريئا أعزل من أبناء مدينتنا كانوا يقتلونني أنا. ثم ينهض الشهيد منتصبا مثل أعصار من لهب مقدس فأنهض أنا معه.. انني أكاد أجنّ يا أحمد.. فهم مسكونون في محاجر عينيّ.. مغروسون في نخاع عظامي.. ان صورهم مرسومة على جدران جمجمتي من الداخل.. وهكذا فكيفما التفت دماغي فإنه يرى أسماءهم محفورة على جدران الجمجمة.

صمتَ لحظاتٍ، وهو يدخّن بشراهة ثم قال:

ـــ أليس عجيبا أنني لم أفقد عقلي حتى الآن؟.. انني ما عدت أحتمل يا أحمد..

فوجدت الفرصة مناسبة لأن أقول له:

ـــ وبين تلك الصور الكثيرة.. أين موقع أختنا خديجة؟

ـــ لا أعرف.

ـــ لكن معلوماتي انها نجت من المذبحة.

ـــ هذا صحيح.. في اليوم الأخير من ذلك الشهر الدامي الرهيب انتهت المذبحة الهمجية.. ثم دارت سيارات الخنازير المصفحة تتجول بين ركام المدينة القتيلة، والأوغاد ينادون بمكبّرات الصوت داعين الأهالي الى الخروج من بيوتهم والتوجه الى أعمالهم.. المسكينة خديجة أطاعت الأوامر فخرجت من بيتها لتتفقد صيدليتها.. **أتدري يا أحمد؟؟ أحياناً أقول لنفسي ان خديجة كانت أشجع منا جميعاً. فقد ظلت ثمانية أيام تحاول أن تخرج الى الشارع لتسحب جثة زوجها الذي اغتالوه أمام الباب. وظلت تحاول وتعرّض حياتها للخطر الى أن استطاعت في اليوم الثامن أن تصل اليه وتسحبه بأظافرها بأسنانها.. من أين جاءتها كل تلك القوة والشجاعة والجلَد؟.. ثم حفرت في فناء البيت ضريحا ودفنت زوجها فيه.**

ـــ وبعد ذلك؟.. ماذا حدث عندما خرجت لتتفقد صيدليتها؟

ـــ لا أعرف.. إن ما يقتلني فعلا أنني لم أكن عندهم في تلك الساعة. فربما كنت نصحتها بأن لا تخرج.. لكنها خرجت.

ـــ وبعد ذلك؟

ـــ خرجت ولم تعد.. أين صارت؟.. لا أحد يعرف.. فهناك مثلها أكثر من سبعة آلاف مفقود خطفوهم في يوم واحد ولا يعرف مصيرهم إلا الله.

وأطرق برهة ثم قال: رحمة الله عليك يا خديجة.

وعدنا الى الصمت.

كانت عتمة الليل في هذه الدنيا الواسعة، وهدوء كل شيء، ووميض النجوم البعيدة، حالة تجعل الأعصاب تنساب على شريط حريري ناعم، مريح، نظيف، نقي.. لذلك فقد كانت الأسئلة الصامتة أكثر إيلاماً. وقررت أن أتوقف عند هذا

الحد من الأسئلة.. وعند هذا القرار شعرت كأنني كنت سائرا في نومي وأفقت. وها هي مروحة مضخة الماء، في أعلى برج المضلّعات الحديدية، تبدو أمامي مثل شبح كبير، وها إنني أسمع صوت زقزقة دورانها بوضوح. كيف لم أنتبه لهذا الصوت قبل الآن؟.. زيق.. زيق.. زيق..

ثم فوجئت بأخي يقول:

ـــ بالمناسبة.. كيف حال بناتك؟

قلت:

ـــ ثلاثتهن بخير.. وقد بعثن اليك بمجموعة من صورهن مع القُبُلات الحارة. انك لا تفارق خيالهن أبدا.. ولا حديث لهيلدا معهن إلا عنك.. هيلدا مصممة على أن تجعلك مَثَلَهنّ الأعلى.

ـــ هيلدا بنت أصل.. أتدري متى حكمت قطعيا بأنها بنت أصل؟.. من يوم أن وجدتها توافق على تسمية ابنتك البكر باسم عائشة.

قلت: عائشة وسكينة وخولة.. وهيلدا تثني أيضا على ما يرد في رسائلك من ضرورة تعليمهن الصلاة.

ـــ آ.. صحيح.. أنا لم أسألك عن هذا.

ـــ اشتريت لهن أسطوانات فيها تلاوات من القرآن الكريم.

ـــ هذا جيّد.. ولكنه لا يكفي.

ثم نهض ونادى:

ـــ يا زاكي هات إبريق الماء لأتوضأ.

فقلت بحماسة: أنا سأفعل ذلك.

وأسرعت فنزلت، مدفوعا بفرح طفولي عجيب، وجلبت الابريق، وانحنيت أسكب الماء على يديه ليتوضأ.. ثم إنه جفّف وجهه ويديه بكوفيته، ثم وقف فرفع أذان العشاء، ثم أدّى الصلاة وبقيت أنا أتأمله ساكناً.

كنت أنظر اليه.. وأستمع الى تلاوته القرآن في الصلاة، وأرى كلمات القرآن تخرج من فمه فتصل الى النجوم.. فقد تحوّل الكون بكامله الى عالم من الخشوع الرائع الجليل.

هل من الضروري أن يكون الانسان مسحوقا، مظلوما، مذبوحا، حتى يسمو

الى مصافّ أهل المعجزات والخوارق؟

كنت أرى أخي وهو واقف يصلي ويتلو القرآن، يطول، يعلو، يسمو، يكبر، يكبر، يكبر، حتى صار رأسه عند النجوم، وصارت شفتاه عند غيوم الملائكة تماما، وصار صوته هناك دربا أثيريا متماوجا بنعومته، تمشي عليه بتمهّل أصوات أربعين الف ضحية قتلهم الطاغية أثناء المذبحة. كانوا يقولون له، وعظام أيديهم ممدودة نحوه: **لاتنسنا يا حاج رضوان. إبق معنا.. ظلّ معنا.. نحن أنت..**

ثم صحوت على صوته يقول لي مداعبا:

ــ وصلت رائحة الخبز الشهية من التنور. ألاننزل للعشاء؟.

○

ارتديت بيجامتي وجلست معهم على الأرض، يغمرني شعور بالارتياح والسعادة والبهجة كأنني عندما خلعت ثيابي وارتديت البجاما صرت انسانا جديدا. كأنني خلعت عن جسدي كل متاعب السفر. وكدت أقول لأخي بحماسة: سوف أسهر معك الليلة حتى الصباح.

وكان أخي قد جلس على طُرّاحته الأثيرة. وهي فراش من الاسفنج ممدود في مكان معين من القاعة، منه يستطيع أخي، وهو متكىء على الوسائد، أن يمد يده فيفتح النافذة «فيرى العالم كله» حسب تعبيره. على هذه الطرّاحة كان أخي يجلس ويأكل، وينام، ويشرب القهوة، ويقعد ساعات طويلة متكئا على وسائده الثلاثة. انها الطراحة المقدسة.

ووضعوا أمامه طبق القش الذي سرعان ما امتلأ بالخبز الطازج، والدجاج المشوي، وصحون اللبن، ورؤوس البصل والطماطة، وماعوناً كبيراً مليئاً بسلطة خضار رائعة.

وجلس حول هذه المائدة الشهية الأطفال الأربعة وشفيقة. أما الزاكي فقد أُعطي نصيبه ليتعشّى هناك لوحده، في ركنٍ منعزل، لأنه يرفض أن يراه أحد أثناء تناول الطعام.

ومن باب التكريم الخاص فقد دعاني أخي لأن أجلس معه على الطرّاحة المقدسة.

ــ هيا يا أولاد.. كلوا باسم الله.

ثم قال لي ناصحاً؟

ــ أنت لا تأكل الآن.. لأنك إذا أكلت يذهب الدم من الدماغ الى المعد فتنعس وتنام، وأنا أريد أن أسهر معك الليلة حتى الصباح.

فأطعته، رغم أنني كنت جائعا جدا. واكتفيت بأن أخذت من رغيف شبه محروق قطعةَ خبز محمّصة كانت ألذّ من أي كعك يمكن أن يتذوقه إنسان، وكنت أمضغ لُقيماتها الهشة على مهل وأنا أتأمل السعادة الغامرة على وجه أخي الذي يحثّ الأطفال على الطعام ويلقمهم لحم الدجاج بيده وهو يقول لهم مسروراً:

ــ كلوا يا أولادي.. ألف صحة وعافية على قلوبكم.

ثم يلتفت إليّ قائلًا:

ــ علّم بناتك أن يأكلن هكذا.. مثل العجول.

وكأن كلمة «العجول» ذكّرته بشيء ما، فالتفت نحو الزاكي وسأله:

ــ هل عشّيت حفيظة؟

فأجابه الزاكي من مكانه المنعزل:

ــ نعم عمي.. عشّيت حفيظة وملأت معلفها بالبرسيم.. وقَطّاش أيضا سوف يشبع [illegible] من هذه العظام.. ملعون الوالدين.. يقرقش العظام وكأنه يقرقش قضامه.

وهكذا أدركت أن «قطاش» هو اسم كلب المزرعة المخيف.. لكن من هي حفيظة؟

أخبرني الولد الأول وهو يأكل: عندنا بقرة كبيرة اسمها حفيظة.

وقالت احدى البنتين: وعندنا أرانب كثيرة.. كثيرة جدا ولكنها بلا أسماء.

وأخبرتني البنت الثانية: وعندنا أسماك كثيرة أيضا.

وقال الولد الثاني: وعندنا قط مدلل اسمه شحادة.

ــ اين شحادة يا زاكي؟.. كأنني لم أره اليوم.

فقال الزاكي:

ــ لاتخف عليه عمي.. تراه شرد للبحث عن قطة.. انه يريد أن يتزوج.

ضحك الأولاد لهذه الخبرية الطريفة. أما الحاج رضوان فقد قال للزاكي:

ـــ عقلك مأخوذ دائما بأمنية الزواج يا ملعون.

ـــ عمّي.. ألم تعدني بأن تدبّر لي عروسا؟

ـــ وأنا ما زلت عند وعدي.. سوف أزوجك حتى لو بعت ثيابي.. لكن، ألا تخبرني يا محروق الباط أية فتاة هذه التي تقبل بأن تتزوج شابا يخجل من وجهه؟

فانفجر الجميع ضاحكين.

ووجدت نفسي أقول للزاكي:

ـــ لا تحمل هماً يا زاكي.. إن كانت هذه هي العقبة التي تعرقل زواجك فأنا مستعد لأن أُجري لك عملية تجميل.

فسألني بابتهاج غامر: صحيح؟.

أجابه الحاج رضوان: طبعا صحيح.. ألا تعرف أن الدكتور أحمد من أشهر اطباء الجراحة في المانيا؟

فسألني الزاكي: هل تأخذني معك الى المانيا؟

ـــ بل نعالجك هنا.. سأتفق مع أحد المشافي في العاصمة وأُجري لك عملية لتجميل الشفة. كن واثقاً من أنها ستعود شفة سليمة وطبيعية تماما.

ـــ والأسنان؟

ـــ وأسنانك أيضا... يجب أن نجد لها حلا.

ـــ وهذه البقعة السوداء تحت عيني.

فضحك أخي وقال له:

ـــ ما أشد طمعك يا زاكي.... مع أنني كنت أتصور بأنك لن تجرؤ على دخول مستشفى بعد الذي جرى لك.

والتفت نحوي وروى لي القصة:

ـــ التهبت عنده الزائدة الدودية. فأجرينا له عملية استئصال في مستشفى حكومي. ولكنه بدلا من أن يشفى استفحل به المرض حتى أشرف على الهلاك. أتدري ماذا تبيّن بعد ذلك؟.. لقد نسوا المقصّ في بطنه.

فقال الزاكي مصحّحاً:

ـــ بل نسوا الخرطوم عمي.

فضحك الأولاد من جديد.. بينما تابع أخي سرد القصة:

ـــ المهمّ أننا اضطررنا لاجراء عملية جراحية ثانية كلّفتني قيمة بقرة جحا.. لكن الزاكي يستاهل.. إنه عزيز على قلبي.

ـــ وأنا خادمك عمي.

ـــ بل أنت ولدي يا زاكي.. أما حذّرتك ألف مرة من أن تلفظ كلمة «خادم» أمامي؟.. يا زاكي أنت مثل هؤلاء الأقمار الجالسين حولي، ابني وقرة عيني. وإنني مستعد لأن أحملكم على كتفي وأمضي بكم الى آخر الدنيا.. المهم ان تشعروا بالأمان.. المهم أن لا تشعروا بأي خوف أبداً.

O

نبح الكلب في الخارج، فنهض الزاكي وفتح الباب وغاب لحظة ثم عاد مبتسما وهو يحمل القط «شحادة» على صدره. وتقدم فوضعه في حضن الحاج رضوان الذي فرح بذلك «فرحا حقيقيا» حسب تعبيره.

نظرت اليه وهو يمسّد شعر القط النائم هانئا في حضنه، وقلت لنفسي: ما أجمل الدنيا..

سألته: هل تحبه يا أخي؟

قال: ليست مسألة حب. وإنما من الممتع للانسان ان يشعر بأنه ما زال في الدنيا مخلوق يعتمد عليه ويطمئن اليه. هذا القط أنا أعطف عليه عطفاً حقيقيا، وهو يثق بي ثقة حقيقية..

ثم التفت الى زوجته وسألها:

ـــ هل نام الأولاد؟

ـــ نعم.. ناموا.

ـــ وسلوى؟

ـــ تحسنت كثيرا.. وأظنها تتماثل للشفاء بسرعة.

قال: إذن ما دمنا بقينا وحدنا، أنا وأخي، **هاتِ العرق**.. أريد أن أحتفل بوصول اخي.

نزلت كلمة «**عرق**» نزول الصاعقة على رأسي.

كيف؟.

مستحيل.

سألته باستغراب شديد: عرق يا حاج رضوان؟

أجابني وهو يبتسم: أعرف أن كل أهل المانيا عجزوا عن اقناعك لشرب أي مسكر حتى ولا البيرة.. لكنك لو عشت هنا عندنا فسوف تجد الأجوبة على كل تساؤلاتك.

وأطرق صامتا لحظات ثم سأل نفسه: «**عرق؟.**» وأجاب نفسه: «**نعم وهو عرق حقيقي ومن صُنع يديّ أيضا**»..

ثم قام فصنع من بقايا المآكل القديمة مآكل جديدة تماما ولذيذة جدا.

جلب صحن اللبن فأضاف إليه ثوما مسحوقا، وملحا، ونعناعا، وكثيرا من الخيار المثروم.

جلب صحن السلاطة فأضاف اليه الخل والبصل والزيت.

جلب بقايا الدجاج المشوي وراح يجرّد اللحم عن العظم، وهو يشم كل قطعة بمتعة ونشوة ويقول: هذه أكل منها **خالد**.. وهذه رائحة **فردوس**.. وهذه القطعة مجّدتها باللمس أنامل **وداد**.. وهذه قضم منها **عبدالفتاح** الذي رائحته أزكى من رائحة التفاح.

وبذلك عرفتُ أسماء الأولاد.

وسألت نفسي: من أين جاءت هذه الشاعرية لأخي؟

غير أنني فرضت على ذهني، منذ بداية السهرة، ان لا أهدر الوقت بالتساؤلات السخيفة.

سألني الحاج رضوان: أين الأمانة؟

ـــ أيّـة أمانـة؟

ـــ ألم تخبرني بأن بناتك أرسلن اليَّ صورهن؟

قلت: «دَع ذلك الى الصباح، فالنور الآن ضعيف».. وأشرت بيدي الى المصباح.

كان مصباح نفط عاديا، موضوعا على الارض في وسط طبق القش كأحسن زينة

بين صحون المآكل والمقبلات. وكان مصباحا زجاجيا نظيفا شفافا ومتألقا، تشتعل نهاية فتيله بنور هادىء وناعم وأنيس جدا بحيث تظل الاضاءة الخافتة في هذه القاعة الواسعة لطيفة وشاعرية وموحية. بل ان نور هذا المصباح البسيط كان يفعل في تحريك الخيال فعلا عجيبا، خصوصا عندما كان أخي يقوم ويتحرك ليجلب صحن خيار أو ملعقة مثلا، وخلال ذلك تسنّى لي أن أكوّن تصوّراً دقيقاً عن هذه القاعة التي يبدو لي أنها كل البيت، أو هي مركز الثقل فيه. فالباب الخشبي الكبير يصلها بالعالم الخارجي مباشرة، وفي الجدار المقابل توجد النافذة التي ما أن يفتحها أخي، ويفتح الباب، حتى يرى كل العالم وهو جالس على طراحته الوطيدة.

ويوجد قرب الطرّاحة أيضا موقد كبير في قلب الجدار، يستغله الحاج رضوان في ليالي الشتاء، بأن يشوي اللحم على الجمر فيه دون أن يتزحزح عن طراحته، فهو ما ان يجلس ويتكىء على وسائده الثلاث حتى يعجز عن القيام أبدا. غير أنه خَرَقَ القاعدة هذه الليلة لأن أمّنا شفيقة تأنف من أن تخدم مائدة سكارى، أوهكذا فهمت.

وتنتهي المدفأة، في أعلاها، بلوح رخامي بارز من الجدار، توجد عليه شمعتان. وربما كان هذا اللوح هو قطعة الرخام الوحيدة في البيت كله. فالجدران مبنية بكتل صخرية غير متناسقة. وفي هذه الجدران نرى بابين متقابلتين يوصلان الى غرفتين لم أدخلهما بعد، ونافذة أخرى، وكوّة هنا فيها آنية أزهار، وكوة هناك فيها كتب صفراء قديمة، وكوة ثالثة فيها حنفية المغسلة... وفي ركن القاعة قنطرة جميلة مغطاة بستارة من القماش الملون، وربما كانت خلفها قناطر أخرى توصل الى المطبخ والى الأسرار المكانية الأخرى. فأنا أحببت أن أخبيء لحظات التعرف على معالم هذا البيت الى مواعيد متفاوتة حتى أستمتع بلذة «اكتشاف الاسرار». وسأبدأ غدا بأن أصعد هذا الدرج الداخلي، المبني مع الجدار، والموصل الى باب علّية، هي الغرفة الوحيدة فوق السطح، أما ما تحت الدرج فهو قنطرة كبيرة وضعوا فيها أكداس الفرش.

وعلى حوافّ أرض القاعة — هي مبلّطة بالحجر المنحوت الصقيل — بُنيت مصطبة منخفضة تمتد مع نهايات الجدران الأربعة. وهي مصطبة عريضة تصلح للجلوس نهارا، ويمكنك أن تتمدد عليها فتنام ليلا. وهذا ما فعله الزاكي الذي نام منذ زمن.

ولم يكن يزيّن الجدران أي عمل فني الا صورة لاحدى نواعير مدينتنا.

سألني أخي بلهجة فيها الكثير من الاعتزاز: انك لم تخبرني.. ما رأيك بهذا العرق؟

فقلت ممازحا: وهل هذا سؤال؟.. انه عرق حقيقي وتقدمي وحضاري أيضا.

فضحك اخي بسعادة حقيقية وقال لي:

ــ إذن قم وتفقّد أحوال سلوى قبل أن تسكر.

ففوجئنا بصوت أمنا شفيقة وهي تخاطبنا من خلف باب تلك الغرفة:

ــ طمّنوا بالكم.. البنت بخير.. حرارتها طبيعية وتنفّسها عادي.. وأظنها قادرة على أن تأكل.

فنهض أخي، وحمل صحناً كان قد جمع فيه قطعا معينة من لحم صدر الدجاج، وأوصله إلى تلك الغرفة ورجع.

قال وهو يجلس:

ــ الآن تأكل هذا اللحم الأبيض فتشبع.

ثم عاد الى صمته.

وهكذا بقينا أنا وهو وحيدين.

قلت له ونحن نشرب ونأكل:

ــ أريد أن أسألك بعض الأسئلة.

قـال:

ــ أريدك أن تسألني أولا لماذا أرسلت بطلبك بكل هذا الالحاح.. إنتظر.. لا تقاطعني. سوف تظن بأنني استدعيتك من المانيا لأثير معك همّي القديم، وهو أن تحلف لي على المصحف الشريف بأن لا تزوّج أياً من بناتك من انسان من غير جلدتنا وديننا.. هذا صحيح.. فأنا والله أكاد أجنّ ويطير عقلي من رأسي حين أتصور بأن واحدة من بناتنا، ومن آل الفشاش، قد تزوجت مخلوقا ليس عربيا أو ليس مسلما.. إياك ثم إياك أن تفرّط بشرفنا يا أحمد.. إن عظامي، وأنا في قبري، سوف تهتز لو حدث هذا.. أعوذ بالله.

انتهى كلامه يا هيلدا.

ومن العجيب فعلا أن أسجّل هنا نص كلامه الحرفي تقريبا مع أنني خلال حديثه كنت مشغولا بتأمل حركات شفتيه. كنت أنظر الى وجهه وكأنني أرى انسانا جديدا لأول مرة. كانت شفتاه تتحركان، وكنت أنظر الى خديه، الى عينيه، الى حاجبيه، الى حركة جوزة حلقة. كان وجهه قد تحلّل أمام عيني الى عوالم كثيرة شعرت بأنني ـــ حيالها ـــ رسام من اولئك الفنانين الذين «قبضوا» على سر الوجود من خلال لمحات معينة أو ومضات لا نقدر على الامساك بها نحن الناس العاديين.

تسأليني: ماذا أجبته؟

لقد قلت نفس الكلام الذي وعدته به عندما زارنا في فيسبادن آخر مرة قبل خمس سنين.. هل تذكرين؟. قلت له: كن مطمئنا من هذه الناحية.. ولكن مالك شردت عن الموضوع الاساسي.. أنت تريدني أن أسألك عن سبب الحاحك على مجيئي من المانيا لماذا دعوتني؟.

قـال.....

لم يقل شيئا.. ففي تلك اللحظة سمعنا نباح «قَطّاش» خارج البيت. كان ينبح غاضبا منزعجا.

فتح أخي درفة النافذة فرأى في العتمة مصباحي سيارة شاحنة كبيرة.. وأمامها سيارة عسكرية..

كانوا قد وصلوا الى مدخل سياج المزرعة..

قال أخي حانقا: **أعوذ بالله.. طارت السكرة. ماذا يريد هؤلاء الخنازير؟..**

ثم التفت إليّ وأوصاني بأن أضغط على أعصابي الى أقصى حد، وأن لا أتكلم إلا أقل الكلام، وباختصار. قال:

ـــ من المهم جداً أن تظلّ هادئاً رصينا.. إياك ثم إياك أن يستفزّوك.. لعنة الله على الخنازير.

الفصل الثاني

حدث كل شيء بسرعة عجيبة.

بسرعة عجيبة أفاق الزاكي وتلثّم وفتح الباب وخرج لاستقبال هؤلاء الزوار الغامضين. أما «أمنا شفيقة» فلا أدري من أين طلعت ومن أين جلبت صورة كبيرة لرئيس الدولة محاطة باطار من الخشب المذهّب، ووضعتها فوق حافة الموقد البارزة من الجدار، وأشعلت أمامها الشمعتين. ثم عادت فاختفت في غرفتها من جديد.. وأنا خلال كل ذلك لا أفهم شيئا مما يجري حولي.

دخل الرجال.

كانوا خمسة رجال مسلحين. ثيابهم عسكرية لكن سحناتهم تذكّر الانسان بأبطال أفلام العصابات والقراصنة. انتشروا في أنحاء القاعة وهم يتلفتون حولهم بنظرات تفقّدية مضحكة يغلب عليها طابع الحركات التمثيلية التي تمتاز بها أفلام ترينتي ورينغو.. وبعد ذلك دخل الرجل السمين الذي يظل يلهث دائما. انه سائق الباص. ابتسم حين رآني والتفت نحو الباب ليقول بافتخار المنتصرين:

ـــ إنه هنا يا حضرة الملازم.. هو بعينه.

دخل «حضرة الملازم» دخول الفاتحين، وبندقيته الرشاشة في يده، ونظر إليَّ لحظة ثم ما لبث أن تراخت العقدة التي بين حاجبيه، واستراحت أساريره عندما رأى الصورة الكبيرة المضاءة بشمعتين، ورأى كؤوس العرق.. ها قد انفرجت أساريره تماما، فقال أخي: تفضل يا حضرة الملازم.

ثم التفت إليَّ وقال: **أعرّفك بحضرة الملازم وَسّاف بوجَقَل.. مسؤول الأمن عن هذه الديرة كلها.**

ثم قال للملازم: **أعرّفك بأخي أحمد.. طبيب.**

فسألني: **يعني أنت عربي؟**

فوجدت نفسي أسأله: **إذن ماذا تراني؟. ياباني؟..**

فضجت القاعة بالضحك. ولاحظت باب غرفة أمنا شفيقة ينفتح قليلا، وبحذر شديد، وتطلّ من خلال الشق الرفيع عينان وَجِلتان.

أمرَ الملازمُ الشاب رجالَه بأن يخرجوا، فقال واحد منهم:

ــ لكننا سيدي لم نفتش حقيبته بعد. والسائق يقول إنها حقيبة ثقيلة جداً وربما كانت مليئة بالمنشورات المعادية.

فقال الملازم ساخرا:

ــ وعلى من يوزع المنشورات في هذا المقطع؟.. على الرمال والتلال والحصى؟

فقال مسلّح آخر:

ــ لكن ربما كان في البيت أسلحة يا سيدي.

فنهره الملازم وهو يقول غاضبا:

ــ إخرس أنت.. أنت بالذات تخرس تماماً.. لقد أكدت لي بأنهم أعداء للنظام.. وها هم يزينون بيتهم بصورة للسيد الرئيس لايوجد مثلها في بيتك أنت.. هيا اخرجوا جميعا.

وجلس معنا وهو يقول بلهجة اعتذار، ويتناول كأس العرق:

ــ عجيبة هذه الدنيا.. عجيبة حقا.. فهذا الرجل بالذات أكدّ لي بأنكم حوّلتم المزرعة الى وكر للصلاة.. وما أجمله من وكر نجد فيه هذا العرق اللذيذ.

وشرب جرعة عرق ثم تلمظ ولعق شفتيه مسرورا.

فقال له أخي:

ــ ان كان عرقنا قد أعجبك فستأخذ معك الليلة قنينتين اثنتين.. لكن ما دامت القلوب قد انفتحت على بعضها فاسمح لي بأن اوصيك يا حضرة الملازم بأن تصدّق أي مخبر ينقل اليك وشاية مؤداها أنني أؤذّن فوق سطح هذا البيت..

فتلك حقيقة وليست وشاية.

انقبض قلبي على الفور.. ماذا يفعل أخي؟. أليس هو الذي أوصاني بالرصانة وتماسك الأعصاب؟.. إذن ما له ينقلب فجأة هكذا الى موقع الاستفزاز المثير؟..

غير أن الملازم، هذا الشاب الغر، انفجر ضاحكا وقال متسائلا باستغراب وببلاهة مطلقة:

ـ تؤذّن؟.. تؤذّن وتنادي بأعلى صوتك: الله أكبر.. الله أكبر؟... من تنادي؟

فأجابه الحاج رضوان بكلمات من نار أحرقت كل شيء تماما.. قال وهو يضغط على كل كلمة كأنه يريدها أن تخرج مثل الطلقة القاتلة:

ـ أنادي الرياح.. الأرض.. السماء.. الأشجار.. النجوم.. الحصى.. الرمال.. الأجداد الذين ماتوا قبل الف سنة.. الأحفاد الذين سيأتون بعد ألف سنة.. الزلازل.. البراكين.. الصواعق.. أشعر بأنهم جميعا يسمعونني ويلبّون ندائي ويأتون إليَّ وقد اشتعلت الدنيا بنار الغضب الذي سوف يطهّر كل شيء..

وحمل كأس العرق فقذف به الى العتمة الخارجية من خلال النافذة.

أصلحك الله يا حاج رضوان.. ماذا فعلت بنا؟.. كيف ورّطتنا هذه الورطة القاتلة؟. آنذاك نظر الملازم الى صورة النواعير، المعلقة على الجدار، ثم أطرق برهة.. ثم سألني بصوت هادىء:

ـ ألا تعتقد يا دكتور أن أخاك يعاني من مرض نفسي يتطلب العلاج؟.. وبالمناسبة انت لم تخبرني.. اين عيادتك؟

ـ في المانيا.

قلت ذلك بجلافة أدهشتني أنا نفسي.. كيف أُصبت بالعدوى فانحرفت ١٨٠ درجة من المداينة الى الاستفزاز والتحدي؟

فقال الملازم:

ـ اذن فنحن لم نكن مخطئين بالمجيء الى هنا.. أليس من المريب أن تأتي الى هذه المزرعة النائية بدلا من أن تنزل في أحسن فندق بالعاصمة؟.. وماذا جلبت

معك من المانيا؟.. وقبل كل ذلك: ماذا جئت تفعل في هذه البلاد؟.. لماذا جئت الى هذه البلاد؟

أجبته: **هذه بلادي.**

ــ أعرف ذلك.. فالحاج رضوان ذكر أنك أخوه.. لكن حتى لو افترضنا أن ذلك صحيح، وأنك مواطن، فليست أبواب البلد مفتوحة لكل انسان.. يجب أن نحمي الشعب من الخونة والمتآمرين.. يجب أن نعرف عنك كل شيء..

في تلك اللحظة قُرِع الباب ودخل عسكري مسلح وقال:

ــ سيدي.. لقد أنجزنا مهمة احصاء موجودات المزرعة.. عندهم حظيرة دجاج بيّاض فيها حوالي مائتا دجاجة من النوع الممتاز.. وعندهم حوض أسماك. وهناك أيضاً مدجنة لتربية طيور الفرّي التي تحبونها على العشاء سيدي.

فالتفت الحاج رضوان نحو الباب ونادى بأعلى صوته، وكأنه عاد الى طبيعته الاولى:

ــ يا زاكي رتّب للشباب عشاءً من طيور الفرّي.

ثم سأل الملازم:

ــ هل تحبونه مشويا أو مقليا؟

فأطرق الملازم مفكرا لحظات ثم قال:

ــ يا حاج رضوان.. أنت رجل طيب.. وأنا هنا في هذه الديرة منذ ثلاثة أشهر ولم يأتني من طرفك أي إزعاج.. إذن فمن واجبي أن أساعدك.. سنعفيك من كل العقوبات ومن مشاكل الجرجرة في المحاكم. فأنت تعرف بأن هناك جهات حكومية لايرضيها أن تفعلوا كل هذه الأشياء بلا ترخيص رسمي.. يعني.. أنتم تعرفون مخاطر انتشار الأوبئة التي قد تفتك بالثروة الحيوانية الوطنية.. كما أن هناك مشكلة تلويث البيئة.. **سنفترض أنك لم تقم بتربية أي شيء من هذه الحيوانات.**

ــ يعني؟

ــ يعني نساعدك بأن نخفي كل الدجاج والفرّي والاسماك.. وبذلك ينتهي كل شيء ولا عين تشوف ولا قلب يحزن.

نكّس أخي رأسه، وامتصّ نَفَساً عميقاً من سيكارته، وصارت عضلة فكّه تتوتر بإيقاع منتظم.. يبدو أنه يضغط على أسنانه بعنف حتى لا يتكلم.. واذا تكلم فماذا

يقول؟.. لقد ضاعت كل ثروته.. انها عملية نهب صريح تتم بمنتهى اللؤم والخسة وأنت لا حول لك ولا طول.

ونحن في هذه الحال المتوترة دخل الزاكي ليخبرنا بلوعة:

ـــ **البقرة.. انهم يأخذون البقرة.**

فخرجت الأم شفيقة من غرفتها مسرعة كالصاروخ، وهي تندب بأعلى صوتها وتضرب بيديها على رأسها وتصرخ غاضبة:

ـــ **لا والله لن يأخذوا حفيظة.. خذوني أنا ولا تأخذوا حفيظة.**

فضحك الملازم وهو يقول:

ـــ **الى أين نأخذك وماذا نفعل بك ايتها الحيزبون؟. هل يمكنك أن تنقلي عدوى مرض الجمرة الخبيثة الذي يفتك بثروتنا الحيوانية الوطنية؟.. ما يدريني ان بقرتكم مصابة بالجمرة الخبيثة؟**

والتفت الى ذلك الجندي الاحصائي وأمره:

ـــ **خذوا البقرة أيضا..**

آنذاك رفعت رأسي نحوه وقلت بهدوء عجيب:

ـــ **أنصحك بأن لا تأخذ أي شيء على الاطلاق.. إياكم ثم إياكم أن تمسّ يدكم أي شيء..**

هذا إذا شئت أن لا تُطرد من الوظيفة وأنت ما تزال في البداية بنجمة واحدة.

ثم وجهت حديثي لذلك الجندي الاحصائي وأمرته بأن يخرج ليرصد السماء جيدا، هو ورفاقه، لأنني أنتظر وصول طائرة هيلكوبتر خاصة، «**لأن جعفر الضاوي آت الليلة للسلام عليَّ**».

وقع اسم **جعفر الضاوي** وقوع الصاعقة.. وتجمدت نظرات الجميع. فواصلتُ الهجوم العجيب بأن قلت للجنديين بلهجة زاجرة:

ـــ أما زلتما واقفين مثل الالواح؟ هيا اخرجا وانتظرا الطائرة.

فخرج الجنديان مضطربين.. أما الملازم فقد غدا كمن سُكب عليه سطل ماء بارد. اصفرَّ وجهه، وراح يبلع ريقه ويتلفت مضطربا، فسألته:

ـــ هل تعرف جعفر الضاوي؟

فأجاب متلعثما:

ـــ إنني أسمع به طبعا يا سيدي.. ولكنني، عفوا، لم أكن أدري بأنك تعرفه.

ـــ آنا لست من معارفه فحسب. بل أنا صاحب فضل كبير عليه.. وحين يصل الآن ترى بنفسك كيف يتوسل إليّ بأن أطلب منه آية خدمة.

فقال بصوت متهدج:

ـــ إذن تصبحون على خير يا سيدي..

وخرج مسرعا.. فناديت خلفه:

ـــ ولمَ العجلة؟.. ظلوا عندنا الى أن يصل جعفر.

لكن حضرة الملازم ورجاله المسلحين فرّوا مذعورين. ركبوا سيارتيهم وانطلقوا مسرعين مضطربين لايعرفون دربهم.

وكان أخي ما يزال غاضبا. فبصق خلفهم من النافذة وهو يقول:

ـــ لعنة الله عليه.. الوغد.. طيَّر السكرة من رأسي.

تقدمت أمنا شفيقة مني وقبلتني من جبيني وهي تقول بفرح:

ـــ الحمد لله.. أنا لم أصدّق بأن حفيظة نجت من أيديهم.. ألف الحمد لله رب العالمين.

أما الحاج رضوان فقد قال، وهو ما يزال منساقا مع توترات الغضب:

ـــ اللصوص الخنازير.. ملازم صغير بنجمة واحدة مستعجل على نهب الدنيا كلها منذ الآن.. ماذا سيفعل بهذه الامة المنكوبة إذن لو صار برتبة لواء مثلا؟

وتقدم الزاكي نحوي وقال لي:

ـــ عمي.. ما دمت قويا الى هذا الحد فمعنى هذا أنك تستطيع أن تدبّر مسألة زواجي.

فانفجرنا بالضحك، وقال له أخي وهو يشير الى صورة الطاغية فوق حافة المدفأة:

ـــ بدلا من هذا الكلام الذي لا طعم له خذ صورة هذا الخنزير من أمامي وأرجعها الى مخبئها.. لعنة الله عليه وعلى كل الخنازير.

فاعترضت الام شفيقة قائلة:

ــ كيف ترفعون صورة الخنزير الان؟.. اتركوها ريثما يصل هذا الغول الذي ذكره أحمد.

فسألتها مبتسما:

ــ وأنت أيضا صدّقت الكلام؟

فضحكنا من جديد.. وتمدّد أخي على طرّاحته، وسوّى وضع الوسائد تحت رأسه، وأمر بأن يجلبوا له لحافا.. وكانت آخر أوامره قبل أن ينام:

ــ هاتوا لحافا لأحمد لينام أينما شاء على المصطبة.

وأطفئت الشمعتان، وأطفىء المصباح، ولم يبق الا العتمة والنوم وصوت الليل. كان من الواضح أن أخي قرر تأجيل كل الاسئلة الى وقت آخر.

الفصل الثالث

عزيزتي هيلدا

أول ما حدث لي عندما أفقت في ضحى اليوم الثاني أنني ما إن فتحت عينيّ حتى وجدت نفسي أهتف بدهشة مترعة بالبهجة:

ـــ ما أشد بهاء الدنيا!! ما أشد سطوع الشمس!!

كان كل شيء وضّاءً مُبهرا.

ويبدو أنني نسيت وهج شمس بلادي بعد كل هذه السنين في ألمانيا، وغيوم أوروبا وجوّها الرمادي المتلبّد أبدا.

وكان الأطفال الخمسة واقفين حولي فانفجروا ضاحكين.

وسألتنيَ سلوى:

ـــ أنا أحب الشمس أيضاً. هل هذه أول مرة ترى فيها الشمس؟

وجاءت أمنا شفيقة لتخبرنيّ بأن الأولاد وقفوا حول رأسي منذ الفجر، ينتظرون أن أفيق ليسألوني: هل صحيح أنني أقوى منَ العسكر؟..

قلت لسلوى: تعالي حتى أتلمّس حرارتك.

فقالت لي: أنا ما عدت مريضة.. هل صحيح أنك خالي؟

أجبتها بحب: طبعا أنا خالك..

ثم نظرتُ إلى الأطفال الأربعة وقلت: أنا خالكم جميعا.

فسألني خالد، ويبدو أنه أشدهم ذكاء:

ـــ إذا كان عمنا رضوان عمنا.. وأنت أخوه.. فكيف تكون خالنا؟

قلت: بل أنا خالكم وعمكم وأبوكم وأخوكم وكل شيء.. وإلا فكيف صرت أقوى من العسكر؟.

فتبادلوا مع بعضهم النظرات صامتين. ويبدو أنهم اقتنعوا بصواب هذه الفكرة التي جاءت عفو الخاطر. لكنها فكرة مدهشة ومخيفة في الوقت ذاته، فعندما يكون المجتمع الانساني طبيعيا، كما هو الحال في كل بلاد الدنيا إلا بلدنا، فان للانسان صفة واحدة في علاقته مع الاطفال. فهو أب أو أخ أو عم أو... الخ.. أما عندما يكون البلد مبتلى بحاكم طاغية يسلط عساكره المتوحشين لذبح الآباء والأمهات أمام عيون أطفالهم، ويطلق ضواريه الهمجيين لتقتل آلاف الاطفال، وتلاحق في الحقول الطينية الباردة وتحت المطر الاطفال المذعورين الهاربين من المذبحة، فإن من الطبيعي للانسان الطبيعي أي الشريف أن يغدو أبا وأخا وعمّا وقاتلا وشهيدا ولصا ونبيا وكل شيء. فالمهم هو أن يدفع السكين عن هذه الأعناق النحيفة الناعمة..

ثم قلت لنفسي ساخرا: متى صرت فيلسوفا يا حضرة المحترم؟. أم أنك أُصبت بعدوى الأسلوب «الرضواني» في التفكير؟!

ثم وجدتني أسأل نفسي: ترى.. ألهذا الغرض استدعاني أخي؟.. هل يريدني أن أتبنى هؤلاء الأطفال؟.. ولماذا؟

سألتني فردوس، وهي الأجمل بينهن:

ـــ هل صحيح ان عندك ثلاث بنات؟

فقلت لأمنا شفيقة:

ـــ يبدو أنك أخبرتهم عني كل شيء.

قالت: أحببت أن يألفوك، فينكسر حاجز خوفهم منك. انهم يرتجفون ذعرا من رؤية أي إنسان غريب.. وفي الليل تنتابهم كوابيس مفزعة أثناء النوم.

ضَمَّت ولدين تحت جناحيها وتابعت بحنان:

ـــ يا عيني عليهم.. صُوَر المذبحة الرهيبة.. صور العساكر وهم يطاردونهم في الحقول الطينية أثناء هربهم من المدينة.. صور لايحتملها العقل تتفجر في عقولهم أثناء النوم..

فسألتها:

ـ اذن لهذا السبب هاجرتم الى هذه المزرعة في آخر الدنيا؟.. لماذا عفتم المدينة؟

قالت:

ـ ما هذا السؤال يا أحمد؟.. هل صحيح أنك لم تعلم بعد بأن مدينتنا مُسحت من الخريطة؟ لقد دمروا بيوتنا ولم يبق منها شيء.. حتى قبر ابيك نسفوه.. حتى ضريح أمك نسفوه.. كل المدافن نسفوها.. **طارت عظام أجدادنا في عراء الفضيحة.**

صمتت برهة ثم سألتني:

ـ إذن ماذا كان يكتب لك الحاج رضوان في رسائله؟.

لم أحر جوابا.. كانت عيون الأطفال ما تزال ملتصقة بي.. غير أنني رأيتهم في شكل آخر هذه المرة. وعدت أعاني من شعوري بالتقصير حيالهم. لماذا لم أجلب لهم معي أية هدية؟.. لكن.. ما أدراني أنني سأجد في بيت أخي خمسة أطفال من أبناء المذبحة وهو الذي أخفى عليّ أخبارا أخطر بكثير؟..

قلت للأولاد، وأنا أرسم ابتسامة على وجهي:

ـ تعالوا اجلسوا حولي لأحكي لكم أجمل الحكايات.

أمنا شفيقة أفلتت الطفلين من تحت جناحيها ونهضت فذهبت الى المطبخ. وأنا جلبت صور بناتي من الحقيبة، ورحت استعرضها مع الأولاد وأحكي لهم الحكايات عن عائشة وسكينة وخولة والمدارس والنزهات والسيرك والقطارات والغابات وملاعب الأطفال وحديقة الحيوانات.

قالت وداد باعتزاز:

ـ ونحن عندنا صابر افندي.. وله جرس في عنقه.

ـ من هو صابر أفندي؟

قالت الأم وهي مقبلة نحونا تحمل طعام الافطار:

ـ هذا اسم حمارنا.. الأولاد علّقوا جرسا في عنقه لكنه لا يرّن. لأنه حمار كسلان الى حد أنه لا يهز عنقه.

فضحك الجميع.

كان طبق القش، الذي وضعته أمنا شفيقة أمامي على الارض، عامرا بكل ما تشتهيه نفسي من المآكل: لبن خاثر، زبدة طازجة، بيض مقلي، عسل، بصل اخضر، نعناع، زيت، زعتر.. ما هذا يا أمنا شفيقة؟.. انه طعام يكفي لأفطار عشرة أشخاص.. مالكم لاتمدون أيديكم؟

قال خالد: نحن أكلنا قبلك بزمن قبل طلوع الشمس.

قالت فردوس: عمي رضوان أكل معنا وسافر.

قالت وداد: الزاكي سافر معه.

ـ الى أين؟

ـ الى الضيعة.. سيجلبان كيس طحين.

قال عبدالفتاح:

ـ لماذا لا تأكل؟.. تذوَّق هذا العسل فهو من عندنا.. عندنا ثلاث خلايا نحل.

وهكذا اكتشفت بأن عسكري الاحصاء، الذي لم يذكر الحمار في لائحة الثروة الحيوانية القابلة للنهب الشرعي، نسي خلايا النحل ايضا.. وبرزت صورة **وَسَّاف بوجقل** والأزمات التي تفجرت ليلة أمس، وهي أزمات من المؤكد أنها سوف تؤدي الى مضاعفات مزعجة. وأنا جئت لأقضي أسبوع راحة واستجمام، وأرى أخي، وأعود.. ولم آت لأضيع في عتمة زنزانة رطبة في سجنٍ مجهول.. إذن فعليّ أن أتوجه بأسرع ما يمكن الى العاصمة فأقابل **جعفر الضاوي** وأخبره بما حدث. وعليه أن يطفىء الفتنة السخيفة في مهدها.. لكنِ كيف أسافر ما لم يرجع أخي فأركب «هيئة الامم»؟.

قلت للأولاد: ما رأيكم في أن تقوموا معي فنتجول في المزرعة لتدلّوني على كل شيء فيها؟.

وخرج الأطفال معي في شبه مظاهرة احتفالية، كلها حماسة وفرح.

وكانت جولة ممتعة جدا، رغم أن الشمس كانت لاهبة محرقة. كل شيء أخضر ويانع ومشبع بالنضارة. مررنا على البقرة الضخمة ذات العينين الواسعتين التي ظلت تنظر الينا ببلاهة وهي لاتتوقف عن الاجترار:

ـ مرحباً يا حفيظة..

وحين مررنا على الحمار المتهدل الأذنين حييناه أيضا:

ـــ طاب يومك يا صابر أفندي.

لكنه لم يحرك رأسه للالتفات الينا. كان نائما وهو واقف. انه ينتظر شيئا ما. وكان يرافقنا في هذه الجولة الممتعة كلبنا قَطّاش، الذي تخلّى عن موقفه العدواني وغمرني اليوم بنظرات اللين والملاطفة. ربما كان أخي رضوان قد أمره بذلك في الصباح، فالحاج رضوان ـــحفظه اللهـــ يحب أن يأمر فيُطاع.. وأمس في الليل، عندما أُطفىء المصباح وتمددنا لننام، وبعد أن حيّاني بـ«تصبح على خير» سمعته يقول للنوم: «تعال يا نوم». فجاء النوم. إذن فمن غير المستبعد أن يكون واثقا من أن الكلب يفهم أوامره ويعيها.

مددت يدي لاربّت بها على رأس قطّاش مداعبا. فقال عبدالفتاح:

ـــ هل تحب الكلاب؟.. عمي رضوان يقول إن الكلاب، في هذه الايام، أحسن من كثير من الناس.

وأخبرتني وداد:

ـــ عمي رضوان يعطف على كل الحيوانات.. يحب كل الحيوانات، هل رأيته كيف يطعم «شحادة» بيده؟.

وقال خالد:

ـــ لكنه يحكي لنا حكايات عجيبة عن بشر تحولوا الى أرانب وقطط وسلاحف وضفادع.

سألته مستغرباً:

ـــ عجيب.. وكيف تحولوا هكذا؟

ـــ بالرصاص..

ـــ أي رصاص يا خالد؟

ـــ رصاص البنادق التي يحملها الخنازير.

أفادت فردوس بالمعلومة التالية:

ـــ عمي رضوان يكره الخنازير كثيرا.

ثم جلسنا في ظل شجرة لوز.. ورحت أجفف عرقي بالمنديل وأفتح قميصي لأتنسّم الهواء. لكنني نظرت الى مروحة مضخة الماء العالية فرأيتها واقفة. كان الهواء ساكناً. كأن حرارة الشمس اللاهبة تريد أن تخنق الحياة في هذه البادية الواسعة. ورغم

ذلك فقد كان ظل شجرة اللوز لطيفا ومنعشا. وكان الأطفال الجالسون حولي فرحين. لقد وجدوا صديقا يتحدثون اليه. أما قطاش، فقد أقعى ومدّ يديه وأرخى رأسه فوقهما وغفا.

والظل الاخضر النديّ، تحت شجرة اللوز، ينتهي عند الساقية، وهي الآن جافة. وعلى امتداد الساقية صفان من أشجار اللوز، ثم أشجار المشمش، والخوخ.. وهناك في المزرعة أيضا أشجار رمان وزيتون، وهي في مجموعها أشجار قليلة، لأن الحاج رضوان، على ما يبدو، زرعها للاستئناس أو لسدّ بعض الحاجة لا أكثر.. لأن همّة الاستثماري موجّه لتربية الحيوانات. فهذا الحقل الاخضر الريّان أمامنا هو حقل برسيم، والبرسيم علف.. والعناية موجهة لحقل تربية الدجاج البياض (عددها أكثر بكثير مما رآه العسكري الاحصائي في الليل)، وهناك قاعة لتربية طيور الفِرّي، وحظيرة للأغنام فيها أكثر من عشر نعاج. على أن المدهش والمفاجىء حقا هو حقل تربية الأرانب. فهو أوسع مشروع في المزرعة.. **من أين خطرت هذه الفكرة للحاج رضوان؟.. ولمن يبيع ارانبه؟.. ما أعظم هذا العقل العملي لأنسان نصف متعلم، كان سمكريا ومصلح مواقد نفط ومحركات ومضخات، فأصبح خبيرا في تربية الأرانب! ولنفترض انه «خطف» خبرته في تربية الدجاج من زيارات قام بها لمزارع الدواجن أو من الكتب، فمن أين كوّن خبرته في تربية الأرانب؟.. وماذا يفعل لو اجتاح هذه الآلاف من الارانب مرض مفاجىء؟ هل يعرف كيف يعالجها وينقذها؟**

كان فن الحاج رضوان واضحا في صنع هذه الأقفاص الكثيرة التي حشر الارانب فيها، وقد وفر لها التهوية بابتكارات قد تبدو بسيطة، ولكنها تبعث على الاعجاب حقا. والفن ذاته واضح في الأقفاص التي تملأ قاعة تربية طيور الفِرّي، هذه الطيور الصغيرة والجميلة التي لها شكل طيور الحجل، لكنها أصغر.. هنا في قاعة تربية طيور الفرّي نلاحظ أن المشكلة ليست في توفير التهوية للتخفيف من وطأة حرارة الصيف، لأن هذا النوع من الطيور الصغيرة الجميلة يحب الحرارة، وانما مشكلتها —على العكس— هي في توفير التدفئة الكافية في أيام الشتاء والبرد والصقيع، حتى يظل حبل الانتاج مستمرا ومنتظما. وهنا أيضا ابتكر الحاج رضوان حلولا بدائية لكنها مدهشة حقا.

أما حوض الاسماك فقد جعله بين المنبع والمصب. فالحاج رضوان الذي يستغل الرياح في تحريك مضخة الماء، نصب برج المضخة فوق أعلى نقطة في أرض المزرعة، والمروحة الكبيرة جدا التي تتوّج هيكل المضلعات الحديدية، تدور بفعل الرياح فتضخ الماء من أنبوب صغير يصب في بركة ذات جدران اسمنتية بارتفاع قامة الانسان. انها بركة صغيرة لكنها كافية لأن يسبح فيها الحاج رضوان هو والأولاد. هكذا أخبروني. وأخبروني أيضا أن «عمهم» يسميها «الحاووظ».

فاذا فاض الماء عن حافة الحاووظ العليا فانه يجري في ساقية إسمنتية صغيرة منحدرا الى حوض السمك.. وهذا الحوض المليء بالأسماك النشيطة ذات الحجوم المتساوية، هو عبارة عن حفرة كبيرة في أرض ما تزال أعلى من مستوى أرض الحقول المزروعة. هكذا يجري الماء منها، بعد أن تستفيد منه الأسماك، فينزل منحدرا الى الساقية التي تذهب متغلغلة بين ألواح الحقول المنسّقة بانتظام.

وكان حوض الاسماك هذا هو الشيء الوحيد في المزرعة المحاط بسياج من الشباك الحديدية المتينة، بارتفاع مترين، أخبرني الأولاد بأن «عمهم» نصبه ليحمي الأسماك من الذئاب والثعالب والضواري التي كانت تأتي في الليل لتخطف الأسماك.

ورأيت داخل هذا السياج، حول الأسماك، عددا من أفراخ البط الابيض.

ترى هل إن الحاج رضوان ربّى هذا البط هناك عمداً؟.. ففضلات البط، حين تترسب في قاع الحوض، تساعد على إنبات عُشَيبات مائية خضراء تتغذّى بها الأسماك ذاتها تغذية طبيعية. ترى هل يعرف أخي ذلك؟..

والسؤال الأهم من هذا: كيف عثر على الماء في هذه المنطقة بالذات؟

○

نبح الكلب فجأة فطيّر من حقل اهتماماتي كل هذه التساؤلات. كان ينبح موجها نظراته الغاضبة نحو خط الافق هناك، عند نهاية الدرب فوق التلة الشرقية.

كان ثمة دراجة نارية مقبلة من هناك.

وفيما صعّد قطاش من توترات نباحة الغاضب، وانطلق كالسهم ليتصدّى لذلك

الطارىء الغريب، كان الأولاد قد فروا مسرعين ليلجأوا الى البيت.. وخالد التفت إليَّ قائلا:

ـــ تعال اختبىء أنت أيضاً.

كان واضحا أن ذعرهم الغريزي أنساهم ما توهموه بأنني أقوى من القتلة، أو أقوى من «الخنازير» حسب مصطلحاتهم المحلية.. وسمعتُ سلوى بنت اختي خديجة ـــوكانت أصغرهم سناًـــ وهي تحجل خلفهم في خطواتها المضطربة وتنادي بأعلى صوتها:

ـــ يا أمنا شفيقة.. علّقي صورة الخنزير الاكبر.

غير أن أمنا شفيقة التي خرجت من باب البيت وهي تجفف يديها بطرف ثوبها كانت ثقيلة هذه المرة. فقد فردت كفها فوق عينيها وحدقت الى البعيد. وحين رأت الدراجة النارية وعرفت راكبها قالت تطمئن نفسها:

ـــ لا حاجة بنا لتعليق الصورة. فهو لن يدخل بيتنا أبدا هذه المرة.

توقف الرجل هناك عند سياج الزيزفون الشوكي، وراح يصرخ طالبا حجز الكلب عنه. والواقع أن «قطاش» الرائع الذي سبقنا الى مدخل المزرعة، جابهه بشراسة وغضب وأنياب مخيفة. ولم يتوقف عن النباح الا عندما وصلت أمنا شفيقة وأمرته بأن يهدأ ويذهب، فسكت ولكنه لم يذهب، بل ظل واقفا ينظر الى ذلك الرجل بعينين تتضحان حقدا واحتقارا وارتيابا. وظل يهمهم غاضبا طول الوقت، كأنه ينتظر اللحظة التي تأمره فيها أمنا شفيقة بأن ينقضّ على ذلك الرجل فينقضّ عليه ويمزقه إربا إربا.

وكان الحوار قد بدأ:

الرجل: هل الحاج رضوان موجود؟

شفيقة: (بنزعة عدائية) ماذا تريد منه؟.. هل لديك خبر كاذب هذه المرة أيضا.

الرجل: (باستعطاف تمثيلي) أستغفر الله يا سيدتي.. أهكذا تقابلون الضيوف؟

شفيقة: (وكنت قد وصلت ووقفتُ حدَّها) أكسرُ رجلَك لو عتَّبتَ الى هذا البيت. اتركونا بحالنا يا ناس.. لقد هاجرنا الى آخر الدنيا حتى نستريح من رؤية أمثالك من المخلوقات البشعة.

الرجل البشع: (مع ابتسامة صفراء) سامحك الله يا سيدتي.. أهكذا تقولين عني؟

شفيقة الرائعة: إذن ماذا تقول عن إنسان كذاب؟

الرجل البشع فعلا: أعوذ بالله.. متى كذبت عليكم؟

شفيقة الرائعة: إنك لم تصدق معنا ولا مرة.. أول مرة جئت لتخبرنا بأن خديجة لم تُقتل، وأنك رأيتها بعينيك هاتين اللتين سيأكلها الدود.. وقبضت ثمن الاخبارية الكاذبة ألف ليرة.. هل نسيت؟

الرجل البشع: لا تظلميني يا سيدتي.. فأنا فاعل خير لا أكثر ولا أقل.. سمعت خبرا مفرحا عن بنتكم فعملت معروفا وجئت من آخر الدنيا لأنقله اليكم وتطمئن قلوبكم.. فماذا أذنبت؟.. هل ضربت الحاج رضوان على يده حتى يدفع لي الألف ليرة أم أنه هو قدّمها لي بنفسه مكافأة على البُشرى؟

شفيقة: ها قد مرت سنة وأكثر.. أين خديجة؟

التفت الرجل البشع إليَّ وقال:

ـــ أرجوك يا أخ.. أحكم بيننا يا محترم.. صحيح أنني أراك هنا لأول مرة، عدم المؤاخذة، ولكنني أقبل بك حَكَماً بيننا.. أنا ـــطول هذه السنةـــ لم أنقطع عن خدمة هؤلاء الجماعة فهل من العدل أن أُطعَن في شرفي وأُتَّهم بأنني كذّاب؟

فجابهته أمنا الرائعة بحزم قاطع: كذاب وألف كذاب..

وعندما استمر الحوار بعد ذلك شعرت بأن كلمة «بشع» هي أقل ما يمكن أن يوصف به هذا الانسان النذل الكريه الذي ظل واقفا بإصرار، وقد أمسك قرني مقود درّاجته، ينتظر الثغرة التي يتسلل منها ليضرب ضربته الاستغلالية الجديدة. فقد فهمت من ذلك الحوار المثير أنه استغل مأساتنا بفقدان أختنا خديجة ليبتزّنا بوقاحة فاجرة خلال عمليات متتالية استمرت طول السنة الماضية كلها..

فمرةً قبض من أخني عشرة آلاف ليرة لقاء أن يصطحبه معه «سراً» الى معتقل مجهول يستطيع أن يرى فيه خديجة ويتحادث معها أيضاً. وبعد أسبوع من الأسفار والتنقلات ادّعى آسفاً بأن «الشخصية الكبيرة» الذي أخذ المبلغ كله، طُرد من وظيفته لأن السلطة اكتشفت تواطؤه بعملية مماثلة.

ومرّةً جلب معه الى هنا رجلا يرتدي ثياب ضابط كبير (ما أدرانا أنها ثياب

ممثلين؟؟). كان ضابطا حقيقيا بشحمه ولحمه ونياشينه والنجوم الكثيرة على كتفيه.

(وذبحنا له خروفا ودفعنا له المبلغ الذي طلبه: خمسة وعشرين الف ليرة.. فقد كانت البشرى التي جاء بها الينا مذهلة. فخديجة ليست حية ترزق فحسب، بل انها ليست سجينة ولا معتقلة أصلا، وانما هي تعيش معززة مكرمة بعد أن اكتشف المسؤولون انها بريئة من أية تهمة، وبما انها صيدلية فقد تقرر أن يستفاد منها لتعمل ممرضة في أحد المعسكرات، ريثما تبرد الحديدة وتهدأ الامور. كما أن عمل الممرضة واجب وطني وخدمة انسانية سوف تتباهى خديجة بها عندما يطلق سراحها وتعود.. متى تعود؟.. وكيف؟.. قال الرجل البشع انه اقنع صديقه الضابط الكبير بأن يطلب تعيينها في الوحدة العسكرية التي هو آمرها. وبذلك فانه سوف يرعاها بعينيه ويحميها ويعاملها كما لو كانت اخته. وحين تتم عملية النقل هذه علينا ان ندفع لسيادته مبلغا مماثلا.. ودفعنا طبعا.. وانتظرنا اسبوعا واسبوعين ونحن نتقلب على جمر النار، الى أن جاء الرجل البشع ليخبرنا بأن صاحبه الضابط الكبير، الذي لا يحق لنا أن نسأل حتى عن اسمه، قد نقل الى خطوط القتال الامامية بمواجهة العدو مباشرة. لم يذكر أي عدو، وانما شجعنا على أن لانفقد الأمل، فهو قد عثر على مجند في ذلك المعسكر، برتبة عريف، مستعد لأن يصور فيلما عن خديجة وهي تداوي الجرحى، ويقدمه لنا لقاء مبلغ اخر... الخ)..

هل يُعقل أن يصل الانحطاط بمخلوق بشري الى هذا الدرك من النذالة ولعق دماء المنكوبين والمتاجرة بمآسيهم وابتزاز لهفتهم القاتلة؟.. وهذا الرجل البشع الواقف أمامي والمصرّ على أن لايذهب إلا بعد أن يحقق عملية ابتزاز جديدة، هل هو انسان؟ طار صوابي فتقدمت منه وبصقت في وجهه:

ــ اذهب من هنا قبل أن أجتزّ بلعومك وألعن والد والديك.. هيّا..

مسح وجهه بكمّه وقال حانقا:

ــ تبصق بوجهي؟.. سوف تدفع ثمن ذلك غاليا.. تذكّر كلامي.. سوف يأتي يوم قريب تقبّل فيه حذائي متوسلا إليّ أن أنقذك من الاعدام.. نحن لسنا من الذين يُبصق في وجهنا.

فقلت له:

ـــ إنني أبصق بوجهك وألعن أجدادك وأجداد الذين يشدّون أزرك ويسلّطون أمثالك على الناس.. هيا.. اذهب

فهز يده بوجه شفيقة منذرا متوعدا:

ـــ هل سمعتِ ما قال؟.. انه يشتم السيد الرئيس شخصيا. لن تستطيعي أن تنكري ذلك في التحقيق.

انذاك تبين لنا انه لم يبق أمامنا إلا «قطاش» لوضع حدٍ لهذه المهزلة المؤلمة والسخيفة.. فأمرته:

ـــ عليك به يا قطاش..

وسرعان ما ركب الرجل البشع دراجته وانطلق بها خائفا يسابق الريح، وقطاش يلاحقه نابحا خلفه.

وانفجرنا ضاحكين.

ما أجمل تألق ضحكة الانتصار على وجه هذه الأم الرائعة التي يتوهج محياها الوردي الشفاف بنضارة التقى والورع والصفاء والأنس.

غير أنني ـــوأنا أضحك من صميم القلبـــ أحسست بلدغة دموع ساخنة فوق وجنتيّ. وكاد الأولاد قد وصلوا إلينا فرحين، فسألني خالد مستغربا:

ـــ هل تبكي؟.. لماذا تبكي ما دمت قد أثبتَّ مرةً أخرى بأنك أقوى منهم؟

وأخبرتني فردوس بهذه المعلومة المفيدة:

ـــ عمي رضوان يزعل منك اذا رآك تبكي.. عمي يريد أن لايكي أحد.

التفتُّ الى أمنا شفيقة ورجوتها بأن تأخذ الأولاد الى البيت ويتركوني وحدي.. قلت:

ـــ أريد أن أخلو بنفسي هنا تحت هذه الشجرة.

فنصحني خالد بأن أجلس على الشرفة، تحت ظلال عريشة العنب «**فهناك يجلس** عمي لوحده حين يريد أن يتكلم مع حاله».

وجلست لوحدي على الشرفة، تحت عريشة العنب. ها قد أصبحت متورطا بشبكة من المشاكل المتداخلة مع بعضها. أصلحك الله يا حاج رضوان.. ما كان أغناني عن هذه الزيارة!

كانت عناقيد العنب فوق رأسي ما تزال صغيرة، بحبوب خضراء صلبة

وحامضة.. وكان ضوء الشمس يبدو من خلال أوراق الدالية الخضراء بأشكال وألوان زاهية، كأنه عندما يمر بمصفاة الأوراق الخضراء لايبقى منه الا الذهبي والاصفر والبرتقالي. ثم إن هذه الدالية أكبر من عشرة أغراس مماثلة في الكروم التي يزرعونها في ألمانيا على سفوح الجبال المنحدرة لعلها تتعرّض أكثر لشمسٍ غير موجودة عندهم. كما أنهم هناك في تلك البلاد الرمادية يحاولون اصطياد المزيد من أشعة الشمس بأن يعرّشوا أغصان الكرمة على أسلاك منصوبة عموديا، مثل الجدران. «**ورغم ذلك فان العنب عندنا ينضج قبل موسمهم بشهرين أو أكثر، فالشمس عندنا أقوى**» هكذا كان يخبرني الحاج رضوان عندما كنا نتنزه معاً في أرياف فيسبادن الجميلة أثناء تلك الزيارة الصيفية الطويلة قبل خمس سنوات. وكان يقول لي: «**الزراعة هي شمس وتربة وماء.. وشمسنا أسطع وتربتنا أخصب ومياهنا وفيرة.. غير أن المشكلة هي: الانسان.. فمقابل هذه العناصر الثمينة الثلاثة عليك أن تضع في الكفة المقابلة عنصرا أثمن بكثير، ألا وهو الانسان.. هنا، في المانيا، عقل الانسان أسخى من أرضهم.. هناك، عندنا في الوطن، الارض اكثر سخاء. ومن لطف الله بنا انه لم يجعل أرضنا من مستوى شحة عقول الذين يتولون مقدّراتنا.. إذ لو كان الأمر كذلك لمتنا من الجوع**».

وكان، في مثل تلك الحالة من الحديث، يحطّ على لازمة ثابتة بأن يقول:

ـ اللهم نجّنا من الكارثة.

ـ أية كارثة يا حاج رضوان؟

ـ لا أعرف.. ولكنني متأكد من أننا مقبلون على كارثة فظيعة لم يقرأ أحد عن مثلها في الكتب.

ـ لاتبالغ يا حاج رضوان.. فتوجُّسات القلب ليس من الضروري أن تتحقق دائما.

ـ إنها ليست توجسات قلب يا أحمد.. بل هي رؤية العين الواضحة المبصرة بدقة.. إن مقدمات الكارثة أصبحت جاهزة مكتملة.. والمقدمات تستجرّ النتائج.. وما تطبخ منه تأكل منه.. أليس هذا هو منطق العقل؟.. عندنا يا أحمد تم تمييز الخيط الابيض من الخيط الاسود، وقسموا المخلوقات الى قسمين: خنازير وكلاب.. والخنازير وحدهم بيدهم الاسلحة وكل شيء.. وكل من يرفض أن

يعيش كالكلب يقتل.. وبيننا وبينهم حد الدم.. والعجيب والمخزي أن بعض الناس الذين قبلوا خاصية الكلبنة زادوا على ذلك بأن راحوا يتمسحون بأذيال الخنازير ويلعقون أحذيتهم العسكرية القاسية.. لكن بقية الناس ترفض هذا.. وقد تعلن عن رفضها فتنفجر.. وآنذاك تأتي قطعان الخنازير فتبيدهم بلا شفقة أو رحمة.

هل كان الحاج رضوان يرى مأساة مدينتنا قبل وقوعها بأربع سنوات؟

○

جاء القط شحادة وهو يمشي رصينا كسولا متمهلا، فوقف أمامي ونظر إليَّ بلا مبالاة.. ثم تمدّد على جنبه، فوق أرض الشرفة، ومدّ يديه ورجليه، وتثاءب وأغمض جفنيه آمناً هانئاً لايهمه شيء مما يحدث في هذا العالم..

أنت مخلوق سعيد يا شحادة.. أنت آمنٌ تماما.. لا يقلقك شيء..

العصافير أيضا هانئة سعيدة، وتصقصق وتطير من شجرة الى شجرة.. أما الأشجار ذاتها فهي الأكثر شعورا بالأمن والاستقرار. إنها واقفة منتصبة في مكانها.. تزهر وتثمر وتورق وتؤوي العصافير وتتمايل مع نسمات الريح.. وها إن رياحا خفيفة بدأت تحرّك مروحة المضخة الكبيرة التي وصل صوت صريرها إليّ: زيق.. زيق.. زيق..

وجاءت الأم شفيقة لتدعوني الى الغذاء.. قالت:

ــ وبعد الغداء تنام لتستريح، ثم تأخذ الأولاد الى الحاووظ ليسبحوا معك.

الفصل الرابع

مالت الشمس الى المغيب، والحاج رضوان لم يرجع بعد. وكانت عيون الأطفال ـ كيفما راحوا وجاءوا ـ تظل مصوّبة الى النافذة الشرقية المفتوحة. كانوا ينظرون من خلالها الى نهاية الدرب هناك عند خط الافق. غير أن أياً منهم لم يُفصح عن قلقه أو ينطق بكلمة تساؤل حول تأخُّر «العم» الذي يشعرون بأنه إذا ما اختفى فقد ضاعوا تماما.

فسألتُ شفيقة:

ـ لم تخبريني عن اسم هذه الضيعة التي سافر الجماعة اليها.

ـ اسمها المبعوجة.

ـ وهل هي بعيدة؟

ـ لا شيء بعيد على من معه سيارة.. غير أنها أقرب قرية الينا. وفيها مركز للأمن.

ـ يعني.. وَسّاف بوجقل هناك.

ـ نعم.

ـ تخمينك أن الحاج رضوان ذهب لمقابلته؟.

ـ لا أدري.. الله أعلم.

ـ يعني.. هل كان مضطراً لأن يتركني هكذا وحدي في أول يوم من وصولي؟.. هل أنتم مضطرون لشراء دقيق؟..

ـ أما آن لك أن تعرف أخاك؟.. فجأة يطلع برأسه موّال ويريد أن يغنيه..

ما هو الموّال الذي طلع برأسه اليوم، قبل طلوع الشمس .. الله أعلم.. غير أن قلبي بارد تماما.. إذ أنه من غير المعقول أن يغيب عنك طويلا. لا لأنه يحبك فحسب، بل لأن كل مواويله أصبحت تتغنّى بك أنت وحدك، في الفترة الاخيرة.. أحمد وأحمد وأحمد.. هكذا يذكرك بلا لقب دكتور ولا شيء.. وكلما فاتحته بأي موضوع يقول لي: «اصبري حتى يأتي أحمد فنرى.. وما يريده الله يكون».

ـــ أية مواضيع يا أمي شفيقة؟.. مثل ماذا؟

ـــ مثلا.. عندما أسأله: كيف سنعلّم هؤلاء الأطفال اذا بقينا هنا في الصحراء؟. يجيبني: «اصبري حتى يأتي أحمد». لماذا لانبيع هذه المزرعة ونرجع الى بلدنا؟.

كانت تحدّثني من غير أن تنظر إليّ، فقد كانت تحدثني وهي جالسة تمشّط شعر سلوى الواقفة أمامها مُطرقة الرأس. المشط في يدها اليمنى التي تصعد وتنزل بحركة متأنّية فيها رقّة وحنان، بينما كفُّها اليسرى تقبض الشعر الأشقر وترخيه وكأنها تنتشي بمداعبة شلالٍ من حرير له وَهَج الذهب الناعم.

وكانت قد بدّلت ثياب الأطفال بعد خروجنا من حمام السباحة في الحاووظ، فألبستهم ثيابا جديدة نظيفة. (هل هي متواطئة مع أخي على خطة لايقاعي في «عشق» هؤلاء الأطفال عشقا يُلزمني بأن أغيّر خط حياتي كله؟.. هل كان اقتراحها بأن أسبح معهم في الحاووظ أول فخ لجرّ رجلي الى حالة العشق هذه؟.. إنني لن أنسى ما حييت تلك اللحظات الرائعة التي عشناها ونحن نغطس في الماء النظيف المنعش، ضمن ذلك الحوض الإسمنتي الضيق، تحت سماء الله الواسعة مباشرة. كانوا يضحكون مبتهجين وكنت أضحك معهم وأنا أكثر منهم سعادة. كنا نتراشق بالماء ونضحك. وكنا نغطس لنتبارى في طول المدة التي يستطيع كلّ منا أن يظل تحت الماء أكثر، ثم نُخرج رؤوسنا من تحت الماء مسرعين ونشهق بنَفَس الحياة المبهر، ونضحك.. وكنا لانعرف كيف نبتكر ألعاباً جديدة، رغم ضيق المكان، فكنت أحمل «خالد» فوق كتفيّ، وأحمل سلوى على ساعدي الأيمن ووداد على الساعد الأيسر، وأقول لعبدالفتاح وفردوس: «تعلّقا برقبتي».. وأقول لهم أيضا بحماسة طفولية متدفقة: «هل صدقتم الآن بأنني أستطيع أن أحملكم

جميعا؟». فتداعب سلوى خدي بكفها الصغير وتسألني بدلال: «خالي.. هل إن بناتك سعيدات هكذا؟».. «لماذا يا سلوى؟».. «لأنني أحب أن أرى كل أطفال الدنيا يضحكون». كانت حمام الحاووظ مغطس تطهير خرجتُ منه وأنا أشعر بأنني إنسان جديد. لقد استطاعت هذه المياه الطاهرة المقدسة أن تذيب عن جسدي الجلدَ المستعار الذي لبسني طول كل هذه السنين في ألمانيا: الوقار.. الأصول.. المنطق العقلي الجامد.. الحسابات الدقيقة.. لقد ذاب «الانسان العقل» وخرج من جلده الانسان الأصلي الحقيقي. نظيف. نقي. طاهر. حي. حتى مسامّ البشَرة في جلدي صارت تتنفس هواء صحياً حقيقياً. وعندما طلعت من الماء لأتجفف بالمنشفة شعرت بأن الشمس والتراب والأشجار لم تعد غريبة عليَّ)..

كانت أمنا شفيقة قد أنجزت تمشيط شعر سلوى، وأجلست أمامها «فردوس» الجميلة ذات الشعر الطويل، وراحت تحبكة جديلة.. وواصلت حديثها معي من غير أن ترفع عينيها عن الجديلة:

ـــ أخوك رجل صالح يا أحمد.. وأظن أن الله سبحانه وتعالى لن يخيبني اذا قلت إنه سيكون من أصحاب الجنة. غير أنه إنسان عجيب. فحتى حنفية الماء التي لاحظتَ أنت بنفسك أنها بحاجة الى إصلاح، وهذه صنعته، قلت له: لماذا لاتصلح الحنفية؟.. أتدري بماذا أجاب؟.. «انتظري الى أن يأتي أحمد».. حسناً.. ها قد جاء أحمد فهل أخرجنا الزير من البير؟

توقفَتْ عن حبك جديلة شعر الطفلة ونظرت إليَّ لتقول:

ـــ أنا يا ولدي امرأة عجوز على أبواب القبر. وقد شبعت من الدنيا. رأيت فيها الحلو والمرّ. صحيح أنني أمرأة محجّبة عاشت بين أربعة حيطان، ولكنني رأيت من الدنيا كل ما يجعلك توقن بأن الحياة مهزلة سخيفة. غير أن عزائي كان في نعمة الله عليّ بأخيك. كنت أقول لنفسي: «يا شفيقة لنفترض أن الله سبحانه وتعالى فتح عليك أبواب السماء في ليلة القدر.. فماذا تطلبين منه؟».. سأقول له «لي طلب واحد.. وهو أن تُنْعم عليَّ في الآخرة بما أنعمته عليَّ في الدنيا، وهو أن أظل مع هذا الزوج الصالح»...

صمتت برهة، وتنهدت بحسرة، ثم تابعت:

ـــ غير أن أخاك تغيّر كثيرا في السنة الاخيرة، بعد المذبحة.

واستعرضَت الأطفال بنظراتها كأنها لاتريد أن تفتح سيرة «العَرَق» أمامهم. أو أنها تتحاشى أن تزعزع صورة الحاج رضوان «العظيم» في نفوسهم.. فسألتُها بحنان:

ـــ وأنتِ؟.. ألم تتغيري أنت أيضا؟

ـــ نعم تغيّرت.. تغيرت في شيء واحد، وهو الأساسي.. اذا رأيتُ ليلة القدر فأنني سأتوسل الى ربي ـــوهو قادر وكريمـــ أن يمنحني القوة والعزم سنوات أخرى **بما يكفيني لأن أربّي أولادي هؤلاء على الشكل الذي يرضي ربي.. أنا لم يبق لي من هدف في الحياة غير هذا يا أحمد.. فاذا مت بعد ذلك فانني أُغمض عينيّ على أعظم سعادة يمكن أن يخفق بها قلب أم، وهو أنني أترك خلفي خمسة أولاد صالحين.**

رنّ الجرس فالتفتنا جميعا نحو الباب المفتوح، فوجدنا الحمار الصابر واقفا وهو يهز رأسه يمنة ويسرة كأنه يريد أن يطرد عن جبهته ذبابة مضجرة.

فضحك الاطفال. وقال خالد:

ـــ هذا صابر أفندي يريد أن يذكّرنا بأنه حان أوان عودته الى الاصطبل للمبيت.

فنظرت أمّنا شفيقة إليَّ وأصدرت الأمر الصريح التالي:

ـــ عليك أنت أن تأخذ الحمار وحفيظة الى الاصطبل.. وهذا السبع خالد سوف يغيّر ثيابه بسرعة ويلحق بك ليساعدك في الأعمال الأخرى..

كان خالد هو الأكبر بين الاطفال الخمسة، وقد طار فرحاً لأن «أمّنا» وثقت به فكلفته بعملٍ من أعمال الكبار. وما أسرع أن جاءني وهو يرتدي ثوب العمل ويحمل منجِلًا وقفّةً كبيرة. قال:

ـــ علينا أن نَحُشَّ البرسيم الأخضر ونقدّم علفا لحيوانات الاصطبل يكفيها طول الليل.

فسألته: وهل هناك غير الحمار والبقرة؟

قال: ستجد في الاصطبل أكثر من عشر نعجات.. وعندنا أيضا ثمانية خراف يربيها عمي للتسمين..

فقلت لنفسي: معنى هذا أن ذلك اللص، ليلةأمس، فاته أن يكتشف الكثير من ثروتنا الحيوانية..

ومضيت مع خالد نقوم بالواجبات، فبعد أن أحكمنا قفل باب الاصطبل على تلك الحيوانات التي اطمأنت الى عشائها الاخضر الوفير، توجهنا الى قاعة تربية الدجاج، فجمعنا موسم اليوم من البيض الطازج الوافر، ورتبناه في حاويات من الكرتون، ووضعنا أمام كل قفص ما يكفي دجاجاته من الماء والعلف المجروش، وأضأنا المصابيح وخرجنا فأقفلنا الباب (كنت أنفّذ أوامر خالد بدقة واتقان).. وقمنا بالأعمال ذاتها في قاعة تربية الفرّي، غير أنني توقفت طويلا أمام الخزانة الحاضنة المليئة بمئات من أفراخ الفرّي المدهشة بجمالها والطريفة جدا بوصوصتها وحركاتها.. ثم نقلنا الى قاعة الأرانب كميات من البرسيم الاخضر اليانع قد تكفيها لثلاثة أيام. غير أن «خالد» أكد لي بأننا إذا تفقدنا هذه الأرانب في صباح الغد فلن نجد أيّ أثر لعود برسيم واحد.. والواقع أن قاعة تربية الأرانب هي الأكثر إثارة للدهشة والاعجاب.. فأنت لاترى في هذه القاعة الا الآلاف من الآذان الطويلة البيضاء المنتصبة، والعيون الحمراء الواسعة التي تعبّر عن البلاهة والهزل في نفس الوقت، والانوف المرتجفة باستمرار.. وكانت الأرانب الصغيرة هي الأكثر جمالا وإثارة.. وكان من الواضح أن الحاج رضوان تعلّم من مصدرٍ ما، ذي خبرة، أن يستخدم الأقفاص لعزل جماعات الأرانب حسب الأعمار.

همس خالد في أذني بسر خطير:

ــ عمي يقول إن تربية الأرانب أربح صنعة.. فنحن في كل فترة نبيع حوالي خمسمائة أرنب.. نبيع اللحوم للفنادق، ونبيع الجلود للتجار، أما الأحشاء فإننا نقدّمها علفا للأسماك.. ما رأيك؟

قلت: هذا شيء مفرح فعلا.

وحين رجعنا كانت الأم شفيقة قد أعدَّت مائدة العشاء.

○

غابت الشمس، ومرت الساعات بطيئة ثقيلة، وأغلقنا النافذة، واشعلنا المصباح، وقامت أمنا شفيقة الى غرفتها لتلجأ الى الله بالصلوات الطويلة. مؤكّد أنها تتوسل وتتضرع رافعة كفّيها الى السماء. فمن المخيف جداً أن لا يرجع الحاج رضوان. وقعد

الاطفال حولي صامتين قلقين، وكانت عيونهم تنخطف نحو النافذة الشرقية رغم أنها مغلقة. وكانت آذانهم تتنصّت باتجاه الباب المغلق أيضا. فربما صدرت عن الكلب قطّاش أية نأمة تنبىء بالوصول. وأنا ــحتى أتهرّب من الأسئلة المضنية التي تدور في ذهني منذ الصباحــ حاولت أن أحكي للاطفال حكايات. كانوا يصغون إليّ، ولكنهم لم يتأثروا بحكاياتي، بل إن القط شحادة المدلل نام في حضن سلوى التي ذبلت أجفانها نعسا، وحين نصحتها بأن تذهب للنوم قالت:

ــ لا أستطيع أن أنام قبل أن يرجع عمي.

فقال خالد:

ــ لا تنتظروا أن ينبح قطاش. فهو عندما يسمع صوت هيئة الأمم لاينبح.

فسألته بدهشة مفتعلة:

ــ وهل يستطيع قطاش أن يميّز صوت محرّك سيارتنا عن صوت غيرها من السيارات؟

فأجابني بحماسة وثقة:

ــ إنه يعرف صوت سيارتنا، في الليل، من بين ألف سيارة.. ثم إن لديه حاسة شم خارقة.. كما أنه قوي جداً. فإذا ما هاجمنا الآن لصوص فإن «قطاش» يغلبهم ويطردهم.. لا تخف.

فقلت له:

ــ سأحاول أن لا أخاف..

وقلّدتُ لهم حركات مهرّج السيرك فلم يضحكوا.. ولم تنفرج أساريرهم إلا عندما سمعوا صوت هدير محرّك السيارة مقبلاً من بعيد. وجاءت أمنا شفيقة من غرفتها، بوجهها الوردي المحاط بهالة بيضاء من غطاء الصلاة الفضفاض وأصدرت أمرها بأن نفتح مزلاج الباب.

تبين لنا أن الحاج رضوان لم يذهب الى قرية المبعوجة، ولم يقابل وسّاف بوجقل أكبر مسؤول أمن في هذه الديرة وضواحيها، وإنما سافر الى العاصمة. وبسبب طول الطريق فقد تأخر في العودة حتى نهاية السهرة، وعاد هو والزاكي شبه محطّمين من شدة التعب، نظراً لأن السفر في سيارة هيئة الامم هو تعذيب حقيقي، حسب تعبيره.

دخل علينا عندما كان الاطفال على وشك التوجه الى غرفتهم للنوم. دخل وهو يحمل حقيبة سفر جديدة، من نوع حقيبتي، وابتسامته تملأ وجهه المغطّى بالغبار، وقال للأطفال بصوت يتهدج بالفرح:

ـ **الحمد لله أنني وصلت قبل أن تناموا.. وأجمل من هذا أن أراكم لابسين ثياب العيد.** (أخي يحباستعمال الأسماء المبهرة. فالثياب الجديدة التي ارتداها الأطفال بعد حمام السباحة اسمُها «ثياب العيد». أما الثياب التي ارتداها الزاكي عندما رافقه في هذه الرحلة الطويلة فاسمُها «ثياب الوجاهة»، وهي جديرة بهذا الوصف لأنها ثياب أمير بدوي. كان متلثماً بكوفيةٍ من لون المسك لحوافّها شراشيب بيضاء صغيرة تشبه أزهار الياسمين، ونهاياتها مشكولة فوق الرأس ببريم أسود رفيع مصنوع من شعر الماعز اللماع. وكان يرتدي ثوباً (جلابية) من الحرير الأبيض، المقلّم بخطوط متوازية لمّاعة ذات لون سماوي هادىء. والقَبَّة وفتحة الصدر مطرّزتان بخيوط من الحرير أيضا، ترسم باللونين الرمادي والكحلي تشكيلات لطيفة من الزخارف العربية القديمة. وهو يزيّن صدره بحزام جلدي مائل، ينزل من الكتف الى الخاصرة المقابلة، لينتهي بجعبة جلدية على شكل مسدس. لكنها في الواقع محشوة بورق صحف.. وهو يرتدي فوق ذلك «دامراً» من الجوخ الكحلي الثمين، المطرّز ببنود حريرية بيضاء تطريزات جميلة.. غير أن هذا ما كانت عليه حال «ثياب الوجاهة» قبل السفر، أما الآن فان ماأصابها من لطخات دهون السيارة وشحومها جعل الأم شفيقة تضرب بيدها على صدرها استنكارا وهي تأمر الزاكي بأن يذهب الى المطبخ فيخلع عنه هذا« السخّام» ويرميه في طبق الغسيل، كان واضحا ان السيارة تعطلت بهما عدة مرّات أثناء الرحلة).

جلس الحاج رضوان بيننا، ووضع يده على الحقيبة، وقال للاطفال:

احزروا ماذا في هذه الحقيبة..إنها حقيبة عمكم أحمد أيضاً..وهو عندما جاء أمس لم يقدر أن يحمل الحقيبتين معاً، فترك هذه أمانة في العاصمة، فذهبتُ وجلبتها لكم..

ثم نظر إليَّ قائلا:

أخبرهم عما فيها ياأحمد.

وفتح الحقيبة بسرعة، ثم فرد يديه على اتساعهما وقال بفرحة من يكشف غطاء كنز:

إنها مليئة بالحلوى والدُّمى والألعاب .. انظروا.. كلها هدايا رائعة جلبها لكم عمكم أحمد من المانيا.. لْان عمكم أحمد يحبكم مثلي واكثر .

عقدت الدهشة لساني .

إذن هذا هو الموّال الذي طلع في رأس أخي اليوم ؟.. لاأظن أنني بحاجة الى أي جهد فكري «لأكتشف» المخطط الذي يبيّته . إنه يريد أن يتعلق الأطفال بي بل إنه يريد أن «يُجيِّرَ» إليَّ كل حبهم له وثقتهم به.. ولكن لماذا؟ مم هو خائف هل يريد ان يغيب عن الساحة؟..

غير أنني، في اللحظة ذاتها، وجدت نفسي أقول لأخي بشيء من التحدي:

ــ ومن أخبرك بأنني لاأحبهم أكثر مما تحبهم أنت؟.. خذوا ياأولادي.

ورحت أنثر الهدايا عليهم بفيض من الفرح الهائل .. بل إنني شاركتهم البهجة بأن فتحت بعض علب الحلوى ورحت أقضم مما فيها بتلذّذ واضح. وكانت هذه العلب جميعها من الْانواع الْاجنبية المستوردة، وكذلك الدُّمى والثياب والْالعاب والهدايا الْاخرى، كلها كانت مدموغة بكتابات أجنبية. **لقد حَبَكَ أخي خيوط اللعبة بدقة وإتقان.**

نظرت الى أمنا شفيقة فلاحظت أنها نسيت ماكانت فيه من غضب وخَنَق، وصارت أكثرنا بهجةً وسرورا. قالت للْاولاد:

ــ هيّا ياأولاد ..ليحمل كل منكم أغراضه وتعالوا الى غرفتنا لننام.

فقلت لهم :

ــ لن يذهب أي واحد منكم قبل أن يعطيني قبلة .

(من أين جاءتني هذه الجرأة ؟.)

فعانقني الْاطفال وأنا أقبّلهم . هزّتني ــ في لحظةٍ سريعة صاعقة ــ مشاعر حنان تنغرس بقوة الى أعمق صماصيم القلب، **وقررت وعاهدت على أن لاأتركهم ماحييت .. أن كنت رجلا جديرا بالحياة والاحترام فهذا هو دربي : أن أحمي هؤلاء الاطفال وأعيش من أجلهم.**

ولكنني لم أُفصح عن ذلك لأخي الذي كان في غاية النشوة والسعادة والارتياح. وعندما عانَقته سلوى ولفّت ذراعيها البضّتين حول عنقه وقبّلته قبلة المساء زفّت

إليه النبأ المفرح:

ــ خالي أحمد سبَّحني معه بالماء اليوم . ولعبنا كثيرا.. وضحكنا .

ففتح عينيه على اتساعهما وقال مبتهجا :

ــ صحيح ؟ .. يعني .. هل تحبين خالك أحمد ؟

ــ كثيرا.

ــ عظيم .. عظيم.. وأحمد يحبكم أكثر ..

ثم ربّت على مؤخرتها الصغيرة بضربتين خفيفتين من يده وقال :

ــ هيّا الحقي بأخوتك وناموا.. ناموا بسرعة.

فذهبت سلوى مسرعة الى غرفة الاولاد، وأغلقت خلفها الباب .. كان من الواضح أن الحاج رضوان مقبل بكل نفسه الليله على أن يسكر سكرة فظيعة . ومالم يتأكد من أن الأطفال قد ناموا فإنه لن يجرؤ على طلب قنينة العرق، ذلك المشروب الذي لاتذكره أمنا شفيقه أبدا، وإنما ترمز اليه بمصطلح رمزي طريف «السمّ الهاري».

وأصدر الحاج رضوان أوامره بأن تبدأ السهرة الرائعة، إذ قال للزاكي:

ــ هات السم الهاري من مخبئه. وأنعِمْ علينا بألذ المأكولات.

وضحك مسرورا.

الفصل الخامس

قال لي الحاج رضوان، ووجهه يطفح بالرضى:

ــ لاحظت أنك قبّلت الأولاد بحنان حقيقي، وهذا أمر أسعدِني كثيرا.

كان قد استحمّ بالماء البارد، وارتدى جلابيته البيضاء الفضفاضه التي ينام بها عادة. وتمدد مستريحا فوق طراحته الشهيرة متكئا على وسائده. كان مصرّاً على أن يبتهج.. قال:

ــ يبدو لي أنك قضيت معهم يوما ممتعا.. وزاد من سروري ماعلمته من خالد بأنك صرت تعرف المزرعة شبرا شبرا، وأنك رتّبت أمور الحظائر.. هل أعجبتك المزرعة؟. هل رأيت ماأمتع الحياة في مزرعة الطاحون والتعامل مع النباتات والحيوانات؟

قال ذلك ثم رشف جرعة عرق ومسح شاربه الابيض بطرف اصبعه. ثم غمس قطعة بندورة بالملح وقذفها في فمه وراح يمضغ على مهل وبتلذذ ومتعة. كان مصرّاً على التشبت بحالة الفرح، يريدها أن تبقى وتستمر.

كان مصباح النفط، هذه الليلة، موضوعا فوق رف الموقد الجداري. وكانت النافذة الغربية مفتوحة، والنافذة الشرقية مفتوحة. إذن فنُسَيمات الليل المنعشة تلعب في القاعة على نحو مريح.. ومن الباب ــ الذي أُبقي مفتوحا تنفيذاً للأوامر ــ كنت ألمح شبح الزاكي وهو يذهب ويجيء في الخارج، مشغولا بتجهيز كميه من طيور الفّرى المشوى للعشاء.

سألني مستفهما وهو يشير بيده الى كأسي الفارغ، في وسط صحون المقبلات التي تملأ طبق القش الموضوع بيني وبينه:

ـــ مالك لاتشرب ؟

ـــ نفسي لاتشتهي العرق الليلة.

ـــ أنت حر.. علينا ان نحترم حرية الانسان، خصوصا في مسألة العرق. إن من يريد أن يشرب العرق عليه أن يشربه بإخلاص. مسألة الاخلاص هذه مسألة ضرورية جدا. حين تأكل فكل بإخلاص، والا فخير لك أن لاتأكل أبدا. حين تحب أحب باخلاص.. حين تكره اكره بإخلاص..حين تحقد احقد بإخلاص وعزم واجعل الدنيا كلها تحقد معك.

وضحك مسرورا.

ربما أمرَ الضحكة بأن تأتي لتقطع الطريق على المنغّصات التي قد تُفَتّقها سيرة «الحقد». فقد كان مصرّا على البقاء هانئا وسط زورق النشوة الهادئة..

كنت أتأمله وأنا جالس على الارض قبالته، ومتمدد مثله باتكاء مريح على ثلاث وسائد. بل إنني ـــ مثله أيضا ـــ كنت قد ارتديت جلابية بيضاء فضفاضة (من ثياب الزاكي). ولم يبق عليَّ إلا أن اربّي شاربين أبيضين فوق فمي لتصبح إصابتي «بالعدوى الرضوانية» كاملة، شكلا وموضوعا.

وسألت نفسي : **هل إنني أعرف أخي حقا؟.. وهل إن هذا الرجل السعيد، نديم الليلة المنتشي طرباً وسروراً وصمتاً وخمراً، هو ذاته الرجل التقي الورع الذي حجَّ الى بيت الله الحرام خمس مرات؟**

ثم سألت نفسي: أم ان سبب سعادته البالغة الآن اكتشافُه بأنني على صورته «فَشّاش حقيقي» حسب تعبيره، إذن. ماذا يقول لو أنه رآني اليوم عندما كنت أشوي عرانيس الذرة مع الاطفال، فأقضم لقمة الحبيبات الصفراء المحروقة وأنا أشعر بأن طعمهما الحليبي اللذيذ يطير بي الى عالم طفولتي وأصولي، فأكتشف نفسي الحقيقية الاولى، وأحسّ بانتمائي المباشر للطبيعة، للهواء، للغبار، للأشجار، للعرانيس، لكل نبتة خضراء وقعت عليها عيني اليوم في المزرعة..

بل انني عندما تمددت تحت شجرة التوت، بعد العصر، كنت أسأل نفسي ـــ وقد أكملت الانحراف ١٨٠ درجةـــ: **أليست الحياة هنا أفضل وأمتع وأجمل؟ أليست المعيشة الطبيعية العفوية هنا، بعيدا عن الدنيا، أفضل من متاعب الطب،**

والمستشفيات والاتيكيت، ....وكل ألمانيا بحالها؟

فاليوم، بعد العصر، شعرت بالضربة الاولى للاصابة بالعدوى الرضوانية.كانت واضحة تماما.

كيف حدث هذا ؟

كيف كان يوم واحد كافيا لأن تجتاحني العدوى الرضوانية . هذا الاجتياح الكامل ؟ أم أنني أنا الذي في أعماقي عندي استعداد فطريّ لتقبل هذه العدوى والأستجابة لها بسرعة مذهلة؟.

أم أنني، خلال كل هذه السنين التي عشتها في ألمانيا، وبروفيسور الطب العظيم، والسلوك المحسوب بدقة، إنما كنت اعيش حياة غيري، أو كنت مستعيرا ثوب أناس آخرين غرباء عني؟.. ولماذا شعرت الآن، عندما ارتديت ثوب الزاكي، بكل هذا التآلف والارتياح؟

[ذات ليلة، إبّان زيارة أخي الخالدة لنا في فيسبادن، نام الجميع، وبقينا أنا وهو ساهرين لوحدنا في صالون بيتنا الذي وصفه الحاج رضوان يومذاك بأنه «صالون ملوك ولكن الانسان لايشعر بالارتياح للجلوس فيه».. سألني:

ــ ألا توجد عندك أسطوانات اغاني.؟

قلت:

ــ بلى.. عندي مجموعة ثمينة من الاسطوانات الموسيقية لأعظم العباقرة.

وقمت فوضعت أسطوانة السيمفونية التاسعة لبيتهوفن، وقلت له

ــ الآن تسمع موسيقى رائعة، فريدة في قدرتها على التعبير عن أدق مشاعر الفرح الجليل.

وضغطت الزر، ودارت الاسطوانة، وغمَرنا صوت الموسيقى الجليلة القادم من زوايا الصالون الاربع.. وبدأ رأسي يتمايل طربا.. فنهض الحاج رضوان واوقف الجهاز وقال لي ساخراً:

ــ كفاك تمثيلا ياحكيم . والله إنك لو سمعت الان نقرات أيّ لحن شعبي بسيط من موسيقى بلدنا لرقصت..لامهرب لكم من جلودكم يامن ذهبتم الى حضارة الغرب الراقية جدا. فمهما تلبّسم مظاهرهم بإتقان وإحكام فإن أعماقكم تنبض بشرايين أخرى.

أتدري لماذا؟.. لأن عيارات خلايا الجسد مُدَوْزَنة على إيقاعات موسيقانا نحن، وهي موسيقى رائعة مترعة بالشمس والنواعير والحقول والبساتين والتين والزيتون ورائحة سجاجيد الصلاة في الجامع].

يومذاك، قبل خمس سنوات، كانت له لحية جميلة جداً.

لاحظ الحاج رضوان، وقد أسرف في الشرب، أن صمتي قد طال، فقال:

— لي رجاء عندك ياأحمد.. انت ترى بأنني الآن مبتهج ابتهاجاً حقيقيا. وهذه—ربما—أول سهرة أسكر فيها على فرح. فلا تعكر عليّ كل هذا بسكوتك. انا أستحق أن أكافأ بالخروج من حلقة الحزن الرهيبة لحظاتٍ ياأحمد.. واشعر بأنني الليلة مثل سجين كاد ينسى شكل الضوء لطول المدة التي قضاها في قعر جب مظلم، ثم أخرجوه للتنفس برهة قصيرة في الهواء الطلق والشمس الساطعة.. فلا تُفسد علي هذه السعادة الطارئة ياأحمد.. خبّرني.. هل في بطنك سؤال؟

قلت: نعم.. لديّ سؤال واحد أريد أن أسمع جوابه الصريح.

فقال مبتسماً: وهل من عادتي أن أخفي عليك شيئاً؟.. هات سؤالك.

ماذا أسأله؟

ها قد حانت اللحظة المناسبة لأن أعرف سبب إصراره عليّ، خلال السنوات الماضية بأن أظل بعيدا عن الجحيم [**انهم يقتلون الاطباء. هكذا كان يسرّب إليّ الاخبار المخيفة.. بل أنه لم يزرني في فيسبادن إلا مرة واحدة وذلك ليبلغني قراره بالموافقة على أن آخذ الجنسية الألمانية المعروضة عليّ.. ولن أنسى ماحييت منظره في تلك الليلة وهو يبكي والدموع تبلل وجنتيه ولحيته ويضمني الى صدره يقول: غصبا عنّي ياأحمد.. أبوك الحاج عبد الرحمن الفشاش الذي تركك أمانة في عنقي، سيلعنني وهو في قبره.. لكن ماذا افعل؟.. ليس في يدي.. إنني حين اعطيك للأجانب أخون الله والوطن والضمير وكل شيء.. ماذا في يدي؟.. أمك التي، ماتت وهي ترفض حتى فكرة زواجك من ألمانية ماذا تقول لنا روحها الآن؟.. أساتذتك، مشايخك، أهل حارتك.. أين أذهب بوجهي من وجوههم؟.. ماذا أقول لهم؟.. هل أخبرهم بأن أحمد ظل مترددا في قبول الجنسية الأجنبية حتى ذهبتُ أنا وأقنعته بأن يغيّر جلده؟.. لكن ماالعمل؟.. هل أدعوك للعودة الى**

الوطن حتى يقتلوك بأشنع مايمكن للعقل أن يتصوره من أساليب في القتل المزري الخسيس؟.. إنهم يقتلون الاطباء ياأحمد.. يقتلون المهندسين والمحامين، وكل المعتقلين وكل من يقول أشهد أن لااله الا الله.. فمالم تكن خنزيرا فأنت مقتول حتما].

أليس عجيباً أن هذا الرجل ذاته يغريني اليوم بزيارة الوطن، بل إنه ينصب لي الفخاخ لأن أتعلق بهؤلاء الأطفال الأيتام، ويصطاد قلبي باغراءات هذه المزرعة.. لماذا؟

أخيرا طرحت السؤال. وكان سؤالا وجيزا وواضحا ودقيقا:

ــ ياحاج رضوان.. لماذُا انت سعيد جدا الآن بالذات؟

قال: لو أخبرتك عن سر سعادتي فإنك لن تصدّق..

وتلفت حوله حذراً ثم أخبرني همساً:

ــ الخنزير الأكبر طاغية البلاد مشرف على الهلاك.. أو إنه نَفقَ وانتهينا منه ومن شروره الى جهنم وبئس المصير.

ـ أوضِحْ كلامك ياحاج رضوان.. فهذا نبأ خطير فعلاً.

ــ عندما وصلتُ الى العاصمة اليوم لاحظت أُن الحركة غير طبيعية.. كان في الجو شيء غير طبيعي. وأنا كما ترى أعيش هنا بلا جريدة أو مذياع. بل إنني لم أهاجر الى وسط الصحراء إلا لأظل بعيدا عن أي مصدرٍ من مصادر الأخبار. إذن ماذا يدريني. بأن الناس، بعد أن اختفت صورة الطاغية الخنزير من الصحف والتلفزيون أسبوعين، قد شحنوا الجو بالاشاعات المثيرة والأنباء المقلقة؟.. سألت كل معارفي الذين التقيت بهم فأكدوا لي أنه يعاني سكرات الموت.. الى جهنم وبئس المصير..

ثم نظر إليَّ مبتسما وقال:

سيكون الحطبة الأكثر اشتعالا في الجحيم.. سيكون أعظم وقدة في نار جهنم.

ــ ليس هذا أوان مثل هذا الكلام يا أخي.. لكن خبّرني.. أما عرفت ما هو المرض الذي يهدّد حياته؟

اتسعت ابتسامته أكثر، وقال:

ــ كل ما يخطر على بالك من موبقات طبية. قلب. انسداد في الشرايين. سرطان

في الدماغ. بعضهم يقول إنه مشلول تماما، وبعضهم جعل الشلل نصفيا، ومعظمهم يؤكد على العمى.. كل واحد من المواطنين الفرحين «يُنعم» عليه بالمرض العضال الذي يتمنى له أن يموت به.

فسألته:

ـــ وماذا فعل الأطباء؟.. هل سمعت اخبارا بهذا الخصوص؟

ـــ وماذا ينفع الطب حين تأتي الساعة؟.. يقولون إنهم أرسلوا وفودا من «الخنازير السوبّر» الى فرنسا وانكلترا وألمانيا ليجلبوا أمهر الأطباء من تلك البلدان.. لكنهم لن ينفعوهم في شيء..

ها إن أخي يصنّف جعفر الضاوي بين «الخنازير السوبر».. من المؤكد ـــقطعاـــ أن جعفر الضاوي يبحث عني الآن في فيسبادن. وإنني أراه وهو يطرق باب بيتنا.

رائع جدا أنت يا حاج رضوان..

قلت له بفرح حقيقي: سأشرب معك.

وسكبت عرقا في قدحي، ثم سكبت ماء ورحت أتأمل تحوُّلات المزيج الى ذلك اللون الحليبي الذي تفوح منه رائحة اليانسون والكحول.. وشربت، وأكلت قطعة بندورة مغمسة بالملح، ثم نظرت أليه وأنا ابتسم.

فانفجر ضاحكا وهو يقول:

ـــ أقسم، يا محروق الباط، أنك تبتسم ابتساما حقيقيا.

فقلت: ولم لا أبتسم وأبتهج وأشعر بالسعادة!. فأنا أيضا، مثلك، أتصيّد لحظة الهرب من كابوس الحزن المقيم، وأحاول أن أتشبث بحالة النسيان.. ولكن سروري الآن هو من وزن سرورك مرتين. وذلك لأنني أراك أمامي مسرورا.. فأنت تعرف كم يهمني أن أراك هانئا سعيدا. ولكن ماالعمل إن كانت الامور كلها تجري بعكس هذا التيار؟.. كأنما هو مكتوب فوق جباهنا: «الفرح ممنوع».

ـــ مثل ماذا؟.. كلّمني بالعربي الفصيح..

ـــ لا أدري.. إنها أسئلة كثيرة جدا، بل غامضة جدا ومقلقة أيضا.. ولكنني قررت أن لا أفاتحك بها أبدا. لأنه من الجدير بي أن اكتشف الأجوبة بنفسي..

ـــ هذا جيد.. هذا عظيم..

ـــ ولكن الانسان لايستطيع ان يصل الى الاكتشاف ما لم يجمع بعض المعلومات الموثوقة التي يبني عليها استنتاجاته.

ـــ مثل ماذا؟

ـــ مثلا.. لماذا لم تكتب لي في رسائلك العديدة ولا كلمة واحدة عن ذلك الانسان البشع الحقير؟

انفجر الحاج رضوان بالضحك مرة أخرى وسألني:

ـــ أي رجل بشع حقير يا أحمد؟.. ميّزه بصفة معينة.. إذ أن البقر في هذه الأيام تشابه علينا.

قلت:

ـــ ذلك الرجل الكريه، صاحب الدراجة النارية، الذي كان يبتزك.

فانتفض كالملدوغ وسألني بلهفة:

ـــ اسكندر الحفيان؟.. من أخبرك بقصته؟

ـــ جاء الينا بنفسه اليوم.

ـــ وماذا فعلتم به؟.. أين ذهب؟.. لماذا لم تُلزموه بالبقاء هنا لانتظاري؟

ـــ هل كنت مشوقا لرؤيته؟

ـــ بلى.. بلى..

وأطرق مفكرا لحظات ثم سألني بنبرة حزينة، بعد أن هدأ غليانه:

ـــ ماذا قال؟.. هل عرفت منه ماذا يريد؟

فوجئت بسماع الجواب يأتي من باب الغرفة:

ـــ جاء بعملية ابتزاز أشد لؤما من كل ما فعله بنا حتى الآن.

هكذا جاءت أمنا شفيقة التي يبدو أنها لاتنام.. ظلت واقفة وهي تقول:

ـــ طردتُه من لحظة وصوله. ولكنه أنسان دَبِق مصفَّح، بلا إحساس.. أفرغت فوق رأسه كل ما يغصّ به قلبي من حقد واحتقار وازدراء وإهانات.. لو كان إنسانا عاديا لتمنّى أن تنشقّ به الأرض وتبتلعه.. لكنه، بعد كل الاهانات ظل واقفا مثل اللوح، ليطرح شبكته اللزجة الكريهة فيقول انه جاء لكي يساعدنا في حل أزمة الصيدلية.

ـــ أية صيدلية؟

ـــ الدكتور أحمد يخبرك.

قلت:

ـــ صيدلية أختنا خديجة.. وهل هناك غيرها؟.. لقد فهمت من كلامه أنك وظّفت شابا خبيرا لادارة أعمال الصيدلية، على اعتبار أن الصيدلية مفتوحة رسميا باسم صاحبتها الغائبة أو المفقودة أو...

فقاطعني بقوله:

ـــ وما المانع؟. هذا تدبير أصولي وقانوني.. ومن حقنا أن نستفيد من ريع صيدليتنا.

قلت:

ـــ المهم أن السلطات كانت تغض النظر عن هذا، لأنها ما تزال تتهرب من الاعتراف بأنها قتلت صاحبة الصيدلية.. لذلك فإن ذلك المبتزّ البشع يريد أن..

فانتفض صارخا بوجهي:

ـــ لا تقل هذا.. خديجة لم تمت.. خديجة ستأتي إلينا لأنها لم تمت.. كذابون.. كلهم كذابون.. إن كانوا قد قتلوا خديجة حقاً إذن فأين جثتها؟ هل طارت في الهواء؟ هل ذوّبوها في الأسيد؟.. أين دفنوها؟.. بل أين ذهب السبعة آلاف مفقود الذين ذهبوا مع خديجة في يوم الجمعة اليتيمة بعد أن جمعوهم من المساجد والبيوت والطرقات؟.

تقدمت شفيقة منه غاضبة وأصدرت إليه أمراً قاطعاً:

ـــ اخفض صوتك يا رجل حتى لاتوقظ الأطفال فتفضحنا.. لعنة الله على أول يوم شربتَ فيه هذا السمّ الهاري.

قالت ذلك وهي ترتجف غضبا، وتلتفت حولها كأنها تبحث عن شيء لاتعرفه.. ثم فركت يديها ورجعت الى غرفتها: «**خير لي أن أعود الى سجادة صلاتي**» وأغلقت الباب خلفها.

توتر الجو كثيرا.. وساد الصمت الثقيل.

أقبل الزاكي وهو يحمل صحنا مليئا بالفرّي المشوي اللذيذ.. وضع الصحن أمامنا صامتا، ثم طوى فراشه وحمله تحت إبطه وخرج من غير أن ينطق بكلمة.

وهكذا عدنا وحيدَيْن: أنا وأخي وقنينة العرق، وصحون المشهّيات، وهذا الفرّي المغري الذي تفوح منه رائحة الشواء اللذيذة، وهذه العتمة الهادئة، وصوت نقيق الضفادع في حوض الأسماك الذي انتبهت الى أنني أسمعه الآن لأول مرة..

ماذا أفعل الان لأخترق كابوس الصمت الثقيل؟.. أليس من السخف أن أفاجىء أخي بسؤال عما إذا كان يستغل هذه الضفادع تجاريا؟..

نظرت إليه. كان مستمرا في إطراقته الصامتة الغاضبة والحزينة.

أشعل سيكارة اخرى، ومصّ منها نفَساً عميقاً، ثم رفع بصره نحوي وقال:

ــ من الأفضل لنا أن نواصل الحديث ونتصارح في كل شيء حتى لو سهرنا الى الصباح. هل أنت مستعد؟

ــ بل الأفضل أن تنام فتستريح.. مؤكد أنك مُنْهَك بعد رحلة اليوم المضنية.

ــ ومتى كنت غير مُنْهَك يا أحمد؟.. إن تعب الجسد لايساوي شيئا على الاطلاق حيال تعب هذا..

وضرب بقبضته على صدغه.. ثم تابع حديثه الشاكي:

ــ هذا أهلكني يا أحمد.. قتلني.. إنني أموت في اليوم الواحد ألف مرة. إنني كمن في صدره خنجر مغروس إلى القلب. كيفما تحركتُ يهتزّ نصلُ الخنجر في قلبي. فأصرخ مستجيرا: «**يا الله**». ماعدت أحتمل كل هذه الآلام.. وعندما يأتي الليل أجد راحة كبرى في الجلوس وحدي بالشرفة.. أجلس هناك وأبكي.. وأبكي.. صورتها تأتيني صارخة مستغيثة: «**أنقذني ياحاج رضوان.. خذني منهم.. خذني إليك فأنا أختك الصغيرة التي ربّيتها على ساعديك**».. فأمدّ كلتا يديّ في الظلام كالمجنون فلا أقبض غير الهواء والفراغ والمزيد من القلق الممضّ القاتل.. كأنما يد القلق تهز الخنجر المغروس في قلبي بوحشية فظيعة أين منها وحشية ذلك الخنزير الأكبر عندما ظل طول الشهر يأمرهم: **اقتلوا المزيد.. اقتلوا المزيد.. ابقروا بطون النساء الحوامل.. اذبحوا الأطفال الرضَّع أمام عيون امهاتهم.. أحرقوا الرجال أحياء..**

وسكت هنيهة ثم قال:

ــ أتدري؟.. دخلوا على مدرسة العميان.. والعميان عجزة طبعا.. فسكبوا عليهم النفط وأحرقوهم وهم أحياء يستغيثون..

ــ مستحيل.. هذا شيء غير معقول.. وهل كان بينهم الشيخ عبدالرحمن خليل؟

ـــ الشيخ عبدالرحمن، هذا الانسان الرائع الذي علّمك لغة القرآن، لم يكن في مدرسة العميان. وإنما أحرقوه وهو في بيته. أحرقوه بنافثات اللهب. ولم يرحموا كونه أعمى في الرابعة والثمانين.

لم يبق كلام.. ارتبط لساني.. طاش عقلي.. عميت.. قمت مترنحا وخرجت الى الشرفة.. وانحنيت أتقيأ.. كانت أمعائي ترفضني.. كانت أمعائي تتقيأني.. وبصقت بمرارة وأنا أقول: **«عليك وعلى أمجادك يا أحمد الفشاش.. إنك لاتساوي بصقة».**

○

الفصل السادس

مرت ثلاثة أيام جميلة رائعة. كانت أياما خضراء بكل ما في اللون الأخضر ــخصوصا عندما يتفتح البرعم الغض من عقدة متحطّبة في غصن يابســ من نضارة وشفافية وتطلّع نشيط الى النور واندفاع للحياة.

فاذا كانت مآسينا هي العقد المتحطبة المليئة بالأشواك الحادة المؤلمة فإن بين الشوكة والشوكة برعم حياة يتفتق عن وُرَيْقة أمل خضراء، يمكن للعين أن تنشغل بتأملها، فاذا ما تأملناها بإخلاص ــحسب تعبير الحاج رضوانــ فإننا سنكافأ حتما باقتناص أثمن بهجة في الوجود، وهي بهجة اكتشاف السر الالهي في معجزة الخلق... «**وانت ماذا تريد أكثر من ذلك؟**» هكذا كان يسألني أثناء جولات العمل في المزرعة ثم يقول:

ــ **فأنت إذا تأملت عملية تفتح زهرة من برعم، أو رصدت باخلاص كيف تتفتق الأغصان الخشبية عن أوراق جديدة، أو قعدت تنظر الى تربة ندية وهي تتمخض عن فلقتي حبة الفاصوليا الملتصقتين بوريقتين صغيرتين في لحظة الانبات الأولى، فإنك ستتصل مباشرة مع سر الاعجاز الالهي الخارق في عملية الخلق،** وسيبهجك كثيرا أن تكتشف **السر الأساسي في الحياة ألا وهو الاصرار على الحياة والبقاء والنمو والعطاء، بل العطاء بسخاء.**

ثم يسكت برهة، وتهمد حماسته، ويتنهد، ويطرح هذا السؤال:

ــ لكن، يا حسرتي، ماالفائدة من أن تكتشف أسرار الطبيعة كلها مالم تكتشف الانسان أولا؟.. **فالانسان ــقطعاًــ هو أعجب مخلوقات الله على**

الاطلاق. وإن أصعب اكتشاف في الدنيا، بل أعظم اكتشاف، هو أن نكتشف الأنسان..

ثم يتلفت حوله، شأن من كان في غيبوبة وصحا، ويقول:

ــ هات هذه المجرفة وقم معي لنعاون الزاكي في تعديل الساقية.

ويرمي عقب السيكارة، ونخرج من ظل الشجرة التي كنا قاعدين تحتها، ونمشي الى الشمس.. فقد كنت ألازمه في العمل بالحقل، والسقاية، وجمع البيض من قاعة الدجاج، وتفقد المفقسة والحاضنة في قاعة الفرّي، وتقديم الأعلاف للأرانب. وعندما كنا نقف معاً أمام حوض السمك الذي يلعب في الماء الضحل بنشاط، كان يدلي بهذه المعلومة المفيدة:

ــ تربية الأسماك هي الأسهل والأقل تعبا.. فما دامت أفراخ الحوض من نوع واحد ومن عمر واحد فإنها لن تفترس بعضها.. والخطر الوحيد عليها هو أن تفترسها الذئاب، ولهذا سوّرنا الحوض بهذا السور القوي من الشبك الحديدي.. غير أن الفضل الحقيقي في طرد الذئاب يعود لقطاش، هذا الكلب الرائع الذي لا أبادله بعشرة رجال.

وكان حبل المودة قد اتصل بيني وبين قطاش. فهذا الحيوان الضخم الذي رأيته مخيفا وشرسا ساعة وصولي، غدا الآن مهرّجا حقيقيا بين يدي، يأتيني في كل مرة وكأنه يبدي رغبة شديدة في تعلم «فن» جديد، بعد أن علّمته كيف يمد يده اليمنى للمصافحة عندما تبادره بتحية «بونجور». وهكذا فإن الاطفال وجدوها لعبة مدهشة «بونجور ياقطاش وبونجور يا قطاش».. ويضحكون ثم يلحّون عليّ في الرجاء بأن أعلّم هذا الكلب الذكي لعبة أخرى. وكان يسعدني جداً أن ألبي طلب هؤلاء الأطفال الذين أصبحت أحبهم بشكل هائل. فأعملت فكري لابتكار لعبة كلبية أخرى، فلم أتذكر إلا حركة كنت قد شاهدتها في السيرك، وهي أن يقفز الكلب فيقف على ظهر الحصان، وبما أنه لاحصان عندنا في المزرعة فانني قلت لهم:

ــ هاتوا «صابر».

فسحبوا الحمار البليد من رسنه. ورحت أشرح للكلب أصول اللعبة. غير أن جهودنا التعليمية فشلت فشلا ذريعا، لالأن «قطاش» لم يفهم علينا (ذلك لأن كل الاطفال شاركوا في تلقينه ما ينبغي عليه أن يفعله) بل لأن الحمار ــ ما إن وثب

الكلب ووقف فوق ظهره— حتى جنّ جنونه وفرّ مسرعا وهو يرفس برجليه.. فضحك الأطفال من أعماق قلوبهم، وقال عبدالفتاح:

— عمري ما رأيت «صابر» يركض هكذا.

وقالت وداد بصوتها الطفولي الآسر:

— ليتنا لم نرفع الجرس من رقبته.

ذلك لأننا، في جملة الاصلاحات الجذرية التي نُفّذت في المزرعة باقتراح مني، نقلنا الجرس الأخرس من رقبة «صابر» البليد الى عنق «حفيظة» النشيطة، فصرنا نسمع له رنينا، بل «هكذا صارت حفيظة بقرة أجمل» حسب تصريح فردوس، هذه الطفلة الجميلة ذات العينين الساحرتين والتي كانت أكثرهم جرأة على مصارحتي بأنها تحبني كثيرا. وكنت في كل مرة أؤكد لها بأنني أحبها أكثر.. ثم مضت قُدُماً في شجاعتها بالبوح فقالت لي:

— أنت ذكي جدا.

قالت ذلك عندما نصبت لهم أرجوحة بديعة، لم تكلفني أكثر من أن أربط حبلا في أكبر غصن من أغصان شجرة التوت الجليلة. وقد نشرت هذه الارجوحة في قلوب الأطفال فرحا لايوصف. فسألني أخي:

— كيف فاتني أن أفعل هذا؟

قلت:

— ربما لأنك رُزقت بالأطفال على كِبَر..

وصار يحلو له أن يفرش بساطا تحت شجرة التوت الجليلة، بعد العصر، ليجلس ويتأمل فرحة الأطفال باللعب في الأرجوحة، بصبابة إنسان سعيد جدا. وكنت أجلس الى جانبه، وفكري منصرف الى سؤال واحد: (**أليس من الأفضل أن يكون لك ثمانية أولاد، دفعة واحدة ومن أعمار متقاربة؟). وكانت أمنا شفيقة تأتينا بالقهوة اللذيذة، وفي الوقت ذاته فإن القط شحادة يُقبل نحونا رصينا متمهلا شبعانا فيتوجه نحوي ويجلس في حضني ثم ينظر الى وجهي بعينيه الذابلتين نظرةً يكاد يقول فيها: «أرأيت كيف فضّلتك على العم ذاته؟» وكنت أسأل نفسي: «هل إن الحاج رضوان أمره بذلك أيضا؟».**

قلت له:

ـــ مزرعتك جنه.. ولكن ينقصها شيءٌ لاتكتمل الجنة بدونه.
فعلّق ممازحا:
ـــ هات واعرض علينا نص البند الجديد من بنود حركتك التصحيحية.
قلت:
ـــ نافورة.. نافورة ماء مثل تلك التي كانت في وسط فناء بيتنا.
قال:
ـــ وهذه حسبنا حسابها أيضا. غير أن مكانها ليس هنا. وإنما مكانها هناك أمام باب البيت، تحت الشرفة تماما.

كانت تلك الفسحة، أمام باب البيت، هي فناء الدار، وهي الفسحة المكشوفة الوحيدة غير المزروعة لأنها أرض صخرية. بل هي صخرة واحدة، واسعة، مسطحة، وفي منتصفها تماما حفرة دائرية باتساع فم التنور، مملوءة بالتراب وفيها غرسة ورد، قال أخي:

ـــ في قديم الزمان كانت هذه الحفر فتحة يمكن للانسان أن ينضح منها الماء بالدلو.. لأنها تنزل الى قناة ري قديمة كانت تنقل الماء، في جوف الأرض، من النهر البعيد الى هذه الأراضي الخصبة. ويبدو أن القناة سُدَّت في مكانٍ ما فجفّت. في ذلك الزمن الغابر كانت هذه الاراضي غابات زيتون.. بدليل وجود رحى الطاحون الضخمة.. هنا كانت توجد مطحنة لعصير زيت الزيتون.

سألته: إذا كانت القناة جافة فمن أين تنضح مضختك الماء؟

ـــ من بئر عميق حفره الرجل الذي اشتريت منه المزرعة. كان رجلا عظيما، أيام الاستعمار دوّخ الفرنسيين بجهاده الوطني. وبعد الاستقلال اعتزل الدنيا وجاء الى هذه المنطقة لينشىء جنته. كانت مطامحه عظيمة. وعندما استدعاني أول مرة لأصلح له مضخة الماء حدثني عن مشروعه لتنظيف قناة الري. كان يريد أن يحوّل هذه المنطقة الصحراوية الى بساتين خضراء.. ولم أره بعد ذلك إلا مرة ثانية عندما استدعاني ليفاجئني بعرضٍ مغرٍ لشراء المزرعة. قال انه اختارني من بين كل الناس لأنه لاحظ عليَّ أنني أحببت المزرعة وأنني سأحافظ عليها. كان رجلا عظيما.

ـــ مات؟

ـ بل سافر الى فرنسا مهاجرا يقبّل الأيادي هناك متوسلا للحصول على جنسية.. ثم انقطعت عني اخباره.

ـ معنى هذا أن وساف بوجقل ليس ظاهرة جديدة.

ـ إنه زمن النهب يا أحمد.. منذ أن أصبحت كل أسلحة القتل في أيدي الخنازير وحدهم صرنا في زمن النهب والقهر والرشوة والعهر والكذب وانتهاك كل شيء.. الى أن كانت المذبحة الوحشية الرهيبة فصار كل ذلك نظاما، وصرنا نحن جميعا تحت العبيد بثلاث درجات..

ثم سألني:

ـ أرأيت الى ذلك الخنزير وساف بوجقل؟.. رغم انه ما يزال ختّوصا صغيرا فقد كان بمقدوره أن يصادر كل ما في المزرعة دون أن أجرؤ على فتح فمي بكلمة. ومن أكون أنا حتى أعترض؟.. أنا مواطن.. إذن أنا لاشيء على الاطلاق.. أصلا أنت رأيت ذلك بعينك. تسألني: لماذا لم أعترض؟ لو أنني أبديت أية معارضة لقتلني على الفور والقانون يسنده. فقانون عهد الخنازير يمنح أي مسلح منهم صلاحية نصب محكمة عسكرية عُرفية تحكم بالقتل وتنفذ الحكم فوراً إذا اكتشفت «واحدا من المعارضة الوطنية».. ثم انهم يمنحونه مكافأة مالية ضخمة لأنه «اكتشف» خائنا وقتله.

بقيت ساكتا. تعمّدت أن لا أُدلي بأي تعليق أو سؤال. فبعد ليلة التقيؤ المروعة قررت أن لا أزيد اشتعال النار في مثل هذه المواضيع أبدا.. فالكابوس الشنيع أشد وطأة من أن يحتمله عقل، وأنا أريد أن أقضي ما تبقى من اسبوع الاجازة وأهرب ناجيا بجلدي، لا أدري إن كنت بعد ذلك سأحتمل وطأة احتقاري لنفسي، لكن المهم الآن هو أن أسرق لحظات السعادة من بين أنياب الكابوس المخيف.. وعندما أسافر يكون لكل حادث حديث.

غير أن أخي، بعد أن دخّن سيكارة ثانية أو عاشرة، تابع كلامه وكأنه يحدّث نفسه:

ـ كل مُسلّح دولة.. وكل رئيس مخفر إله.. يحيي ويميت.. لكن بما أنه إله مزيف فإن له نزوات تصعد وتنزل. فاذا صعدت نزوة القتل فإنه لايشبع من دم المواطن الضحية وحده، بل يقتل كل أفراد عائلته معه، الأب والأم والأولاد

والبنات والأطفال والرضيع والجد والجدة وكل من شاء له سوء الطالع أن يكون في ذلك البيت المنكوب.. وأحيانا تنحطّ لديه نزوة القتل، أو أنه أصيب بالملل من مشاهد الترويع والتوسل، فيغادر البيت من غير أن يقتل رب البيت، لكنه يترك خلفه قنبلة موقوتة أشد ترويعا من القتل، وذلك بأن يقول: «إن ذلك الرجل سبَّ خنزيرهم الأكبر».. وأنت تعرف النتيجة..

ثم سألني:

ــ أليس هذا ما اتهمك به اسكندر الحفيان؟

هززت رأسي وبقيت صامتا.. فسألني، وكأنه تذكر أمرا:

ــ ثم إنك لم تخبرني حتى الآن.. هل إنك جادّ عندما تهدّدهم بجعفر الضاوي؟.. إياك أن تكون هازلا في هذا الأمر.. فهذا لعب بنار خطيرة جدا قد تحرقنا جميعا.

قلت لـه:

ــ اطمئن.. فأنا جادّ كل الجد في هذا الموضوع. فهو صديقي ويتمنى أن يقدّم لي خدمة.

ــ وما الذي أوصلك إلى جعفر الضاوي؟ ... نعرف من هو هذا المخلوق اللعين؟ إنه أخبث واحد بين «خنازير السوبر». إنه أخطرهم جميعا. رغم أنه مثل الشَبَح لايعرف أحد ماهو منصبه على وجه التحديد، بل إنه هو الذي يصنع المناصب ويرسم الأدوار.. ماالذي أوصلك اليه؟.

ــ أنا لم أسع اليه بل إنه هو الذي سعى إليّ.

ــ كيف؟.. متى؟

ــ قبل حوالي ثلاث سنين.. جاءني الى فيسبادن متوسلا، منهارا، مستغيثا، وهو يحمل ابنه الصغير المريض بعد أن نفض الأطباء أيديهم منه. كان حالة ميئوسا منها. وقال لي: «دخيلك.. كبار الأطباء الألمان نصحوني بأن ألجأ اليك».. كانت حالة الطفل تستثير الشفقة، أما حالة الأب فمن لصعب وصفها.. عجيب.. هل يمكن أن يكون ذلك الرجل الرقيق، الحنون، العطوف، هو نفس الرجل الذي تصفه بأنه مخلوق لعين وأخبث واحد في عصابة القتلة المتوحشين؟..

قال: المهم.. وبعد ذلك؟

ـــ عالجت الطفل وأعانني الله على شفائه حتى قام سليما معافى مثل الحصان، بل إنني بعد أن عرفت مكانة الرجل في بلدي استضفته وابنه أسبوعا عندي في البيت.

فقال أخي ممتعضا:

ـــ أعوذ بالله.. أعوذ بالله.. إياك أن تخبر امك شفيقة بهذا.. لأنك ستسقط من عينيها. فهي تعتقد بأن مصافحة أي من هؤلاء لخنازير تدمغ الانسان بنجاسة أبدية.. وهل اتصل بك بعد ذلك؟

ـــ زارني أكثر من مرة.. احيانا كان يأتيني ليقول لي: يا أحمد.. ليست لدي أية مهمة رسمية في ألمانيا.. ولكنني جئت لأقضي معك يومين. فأنا أستريح لك كثيرا. أنت الصديق الصادق الوحيد..

فقال أخي بلهجة قاطعة:

ـــ إنه كذاب.. كلهم كذابون.. باطنيون.. لعنة الله عليهم من خنازير غدارين.

كانت الشمس في سمت الظهيرة اللاهبة، والهواء ساكن تماما، ولا صوت في المزرعة الا صوت الصرصار الاخضر الذي لايتوقف عن الأزيز.

قال أخي:

ـــ قم بنا لنساعد الزاكي في تبييض جدران غرفته قبل أن تدعونا شفيقة لطعام الغداء بأوامرها الحازمة.. هل تعرف كيف تدهن الجدران بالصباغ؟

لم يعد أخي يشرب عرقا. صار حين ينحشر بين فكي كماشة القهر والغضب يهرب الى التلهي بالعمل، غاصبا نفسه على أن تجد السلوان في ممارسة أي عمل يدوي يستجرّ الفكر بعيدا عن التفكير.. أما أنا فإنني غصبت نفسي على أن تتخذ قرارا وحيدا وهو أن لا أتخذ أي قرار على الاطلاق، بل أترك الأمور معلقة الى ما بعد.. الى متى؟.. إلى أن أسافر إلى المانيا وأعود الى بيتي وزوجتي وأولادي وغرفتي وسريري وعيادتي وطلابي.. فليبق كل شيء مؤجّلا إذن..

وعندما وصلنا الى غرفة «العِلّية»، بعد أن اجتزنا قاعة البيت وصعدنا الدرج الداخلي وجدنا كل الأولاد مصبوغين بالدهان الابيض. كانوا يساعدون الزاكي الذي لم يصدّق بعد بأن عمه خصص له أحسن غرفة لتكون عش الزوجية السعيدة.

وسمعنا صوت أمنا شفيقة وهي تنادي:
ــ هيا انزلوا بسرعة فطعام الغداء جاهز.
وحين تنادي هذه الأم العظيمة فمن الذي يجرؤ على التلكؤ؟.. إذن فلننزل في الحال. غير أن الأطفال نزلوا خلفنا متسترين بنا وهم في غاية الوجل والحذر. وما إن رأتهم الأم العظيمة حتى راحت تضرب بكلتي يديها على ركبتها وتصرخ غاضبة:
ــ ماذا فعلتم بأنفسكم يا شياطين؟.. كيف لطختم ثيابكم هكذا بالدهان؟.. ألا تخافون الله؟.. ألا ترحمونني أبدا؟.. يا ناس.. يا عالم.. أنا امرأة عجوز ولم تعد بي طاقة على الغسل.
ثم التفتت الى زوجها تسأله:
ــ أأعجبك هذا؟
فضحك الحاج رضوان وهو يقول:
ــ لن تغسلي ثوبا واحدا بعد اليوم.. سأشتري لك غسالة كهربائية.
ها قد حانت الفرصة المناسبة تماما لأن اعرض اهم بند من بنود الحركة التصحيحية الشاملة. قلت لأخي:
ــ بالمناسبة. كيف تصبر على العيش بلا كهرباء أنت الذي اشتهرت بأنك ساحر الكهرباء؟
فقالت أمنا شفيقة بحسرة:
ــ لأن النجّار يبقى بلا باب دار.
وضع الحاج رضوان يده على شاربه وقال مبتسما:
ــ غالية والطلب الرخيص.. خذي من هذا الشارب أحسن مولّد كهربائي، وثلاجة، وغسّالة، ومروحة، ومصابيح كثيرة تجعل المزرعة تتلألأ في الليل مثل الجوهرة وسط هذه الصحراء المظلمة. لكن على شرط: لامذياع ولا تلفزيون.. فأنا أريد أن أظل بعيدا عن وجع الدماغ..
فقال الزاكي:
ــ عمي.. هل سنفعل كل هذا قبل العرس؟
ــ بل قبل أن يسافر أحمد..
فسألتهم مستفهما:

ـــ عن أي عرس تتحدثون.. هل تمت خطوبة الزاكي لأية آنسة؟
وأقبلنا على الطعام ضاحكين.. بسم الله الذي رزقنا هذه اللقمة الهنيئة، وبسم الله الذي فتح إشراقات الأمل في القلوب المحطمة الحزينة.

غير أن السعادة لم تكتمل.. إذ فوجئنا بما يجفف اللقمة في الحلق.. رأينا من النافذة الشرقية سيارة مقبلة.

الفصل السابع

هبّ الأطفال خائفين وفروا مسرعين إلى غرفتهم بعيون مذعورة ونفوس قلقة لم تعرف بعد نوع الخطر الداهم المقبل إلينا في شكل سيارة غير منتظرة. وكان نباح الكلب خارج باب القاعة يؤيد خوفهم، فقد كان نباحاً عدائياً غاضباً. وربما كانت عينا «قطاش» تقدحان الآن بالشرر وهو يتلوى متوثباً بين يدي «الزاكي» الذي خرج ليربطه إلى أقرب شجرة.

أما أمنا شفيقة، التي تحركت يداها باضطراب لتسوّي وضع المنديل الأبيض حول رأسها بحيث لايظهر منها للغرباء إلا وجهُها، فإنها قامت مسرعة أيضاً، فذهبت الى تلك الغرفة ثم رجعت وهي تحمل صورة الخنزير الأكبر ذات الاطار المذهب، وخرجت فعلّقتها بمسمار في الشرفة (يبدو أنهم يفعلون هكذا عندما يداهمون نهاراً). وكانت خلال ذلك تتمتم ببعض الأدعية والتعويذات ثم تنظر باتجاه السيارة وتنفخ.

كان لون عينيها قد شحُب وخبا من شدة القلق والذعر. ولم أكن أسمع نص تمتماتها السريعة المضطربة، غير أن أذني التقطت عبارة: «**ولا يؤوده حفظهما وهو العلّي العظيم**».. ثم نفخت باتجاه السيارة، عبر النافذة المفتوحة.

أإلى هذا الحد المروّع أنت خائفة يا أمنا؟

كم أنا إذن ابن عاق ونذل وجبان وحقير؟!.. كيف أترك أمنا هنا لوحدها، مع ضعفها، وخوفها الأبدي، وقلبها المسحوق بطاحون الذعر القاتل؟.. كيف أتركها هكذا وأدير لها ظهري، وأبقى بعيداً عنها في المانيا متذرعاً باللهو بأمجاد الانتصارات الطبية ونشوات الثناء والمديح وعظمة الفتوحات العلمية في ميادين الخدمات

الانسانية؟.. أية إنسانية هذه؟.. هل أنا حقاً إنسان عظيم ومَثَلٌ أعلى كما يقول عني تلاميذي طلاب الدراسات الطبية العليا في أوروبا؟

يا حضرات الأفاضل: أنا لست إنساناً عظيماً، ولا مثلًا أعلى. بل أنا لست حتى كلباً. فهؤلاء الأطفال الأيتام عندما فروا من حضني الآن، آملين بملاذ أأمن، كانوا يثقون بشجاعة «قطاش» في الدفاع عن أرواحهم أكثر من ثقتهم بي.. بل إن هروبهم المفجع من حضني أكد بأنهم لايثقون بي على الاطلاق، وأنهم نسوا كل محاولاتي لأن أرسّخ في قلوبهم الاعتقاد بأنني أقوى من الخنازير.

نهضت واقفاً وأنا أقول بحزم قاطع:

ــ لن أسافر.. لن أترككم أبداً بعد اليوم.

فرفع الحاج رضوان بصره نحوي، وهو ما يزال متكئاً على وسائده أمام مائدة الطعام، وقال لي بسخرية مريرة:

ــ أنت دائماً تقول الكلام المناسب في الوقت غير المناسب.. لماذا قمت؟

أجبته:

ــ سأجلب الأولاد من الغرفة.. يجب أن ينسوا عادة الذعر المخجلة هذه. يجب أن نعلمهم كيف يشعرون بالأمان. يجب أن ندرّبهم على التعامل مع الاطمئنان.. ثم إنه آن الأوان لأن يثقوا بي.

فقالت شفيقة بسخرية أشد مرارة.

ــ دعهم مختبئين هناك في ملاذهم المضحك تحت السرير.. كيف تريدهم أن يثقوا برجل لايني يقول لهم: أنا مسافر غداً؟.. دعنا في حالنا يا أحمد أرجوك.. فنحن بعد المذبحة الرهيبة لم يطلع لنا خير من أحد في الدنيا. لاأحد وقف معنا. نحن يا ولدي لانريد منك ولا من أي مخلوق سواك أي عون. **نحن ليس لنا إلا الله. وهو نعم المولى ونعم النصير.**

فقلت بتأكيد جازم:

ــ آمنت بالله.. لكنني أخبرتكم بأنني لن أسافر.. لن أترككم.. ألا تصدقونني؟

ومضيت فدخلت غرفة أمنا شفيقة لكنني لم أجد فيها أحداً.

كان في الغرفة سرير كبير، عالٍ، عريق، منصوب فوق أربعة أعمدة أسطوانية من

معدن مطلي بدهان أسود لماع، وفيها —للتزيين— حلقات من ذهب مزيّف لمّاع أيضاً. وكان ثمة على الجدار سجادة زينة رقيقة وناعمة، معلقة فوق السرير، يطغى عليها اللون الأزرق القاتم المؤطّر بزخارف صفراء تحيط بصورة الكعبة المشرفة وقبة المسجد النبوي، والقبة الذهبية في المسجد الأقصى.. وعلى الجدار المقابل لوحة كبيرة فيها اسم «الله» مكتوباً بحجم كبير جداً فوق أرضية من الكتابات الرقيقة الناعمة التي يبدو أنها تتضمن آيات القرآن الكريم كلها.

ولا شيء غير ذلك في الغرفة إلا رائحة التقوى والورع النقي الصافي.

انحنيت وأنا أرسم ابتسامة على وجهي وأتساءل بصوت مسموع:

— أين أولادي الذين أحبهم كثيراً؟.. لماذا تركوني مع انني لن أتركهم أبداً؟

ثم كشفت طرف الشرشف المتهدّل الى الأرض فرأيت العيون الجميلة، وقلت لها:

— أنا أحب لعبة الاستخفاء. لكنني تعذبت كثيراً حتى وجدت مخبأكم هذا.. هل تخبئونني معكم أم تأتون أنتم إليّ؟

فسألتني وداد: يعني.. لن يذبحوننا؟

قلت: ومن الذي يجرؤ على أن يمسّكم بأي أذى؟.. ألم تصدقوا بعد بأنني أقوى من الوحوش؟ أما رأيتم كيف طردت «وسّاف بوجقلْ وعساكره العشرة؟. أما رأيتم كيف بصقت في وجه «اسكندر الحفيان» وطردته شرّ طرده؟.. فماذا فعلوا؟.. ها قد مرت خمسة أيام دون أن يجرؤوا على أن يرجعوا إليّ.

فقال خالد لأخوته باعتزاز: أرأيتم؟.. هل صدّقتم كلامي؟.. أما أكدت لكم بأنه قوي جداً ولا يخاف؟

فسألتني سلوى:

— خالي.. هل يوجد عندكم وحوش في المانيا ايضاً؟. هل صحيح أنك لن تتركنا أبداً؟

قلت: **أهم شيء الآن أن ترجعوا معي الى المائدة لنكمل طعامنا.. تعالوا معي.**

وحين خرجنا إلى القاعة أدركت أن كل هذه التمثيلية لم تنفع في شيء. فقد مشى الأطفال حولي خائفين متوجّسين. بعضهم ممسك بيدي، وبعضهم ممسك بتلابيبي.

وجلسنا على الأرض حول مائدة الغداء. غير أن العيون كلها كانت مأخوذة إلى النافذة، حيث نرى سيارة متوقفة هناك عند سياج المزرعة. كانت سيارة مدنية فخمة

جداً وثمينة جداً وجديدة إلى حد أنها خطفت عيون الأطفال من حالة الذعر إلى حالة الانبهار المدهش. فزاد ذلك من ارتياحي.

أمّا ركاب السيارة فإننا لم نرهم. كانوا قد وصلوا إلى الشرفة ولبثوا هناك مع أخي وزوجته. وكانت آذاننا تتصيد الكلام من خلال الباب بفضول شديد. فعرفنا أنهم ثلاثة، وأنهم ليسوا من الخنازير. فقد كانت أحاديثهم ودية ولطيفة (**إنهم يتحدثون مثل البني آدم ــ هكذا علّقت فردوس**).. وكان أخي يرحّب بهم بابتهاج حقيقي، خصوصاً عندما كان يوجه كلامه الى واحد منهم اسمه «أبو غزوان» الذي يبدو أنه تاجر دواجن كان الحاج رضوان قد اتفق معه، أثناء رحلته الأخيرة الى العاصمة، على أن يتعهد شؤون تصريف منتجات المزرعة. وها إنه قد جاء ليعاين البضاعة على الطبيعة ويكتب عقد الاتفاق.

ولست أدري لماذا تصورت من صوت هذا الأبي غزوان أنه صاحب مطعم شعبي قديم، وأن له كرشاً كبيراً، ومن ثيابه تفوح رائحة الزنخ. ربما لأنه يقضي يومه وا... أمام حلّة النحاس الكبيرة التي يسلق بها رؤوس الغنم.

غير أن هذا التاجر ذا الكرش والرائحة لم يأت لوحده، وإنما جلب معه اثنين من أعز الناس إلى قلبه. «**صحيح أنها رحلة عمل.. ولكنها فرصة فريدة لأن يستمتع زهير بك بممارسة هوايته في القنص. كما أن عزيزتنا المحترمة الآنسة مفاتن تريد أن ترى بيوت البادية لتستلهم منها مشروعاً فنياً كبيراً**».

وهكذا عرفنا كل الأسماء: أبو غزوان، وزهير بك، والآنسة مفاتن.

وكان أبو غزوان، أثناء حديثه، يتعمّد أن يستغل أية فرصة لتسليط الضوء على زهير بك الجدير بكل ثناء واحترام وتبجيل، فهو رجل مليء ومن كبار أهل النعمة، مع أنه كوّن ثروته الضخمة بعصاميته وكدّ يمينه وعرق جبينه، وله مشاريع ناجحة كثيرة. «**ولولا أن النظام اشتراكي إذن لكان عنده بنك خاص باسمه شخصياً**».

فسمعنا صوت زهير بك يقول:

ــ يا مولانا.. إن هذا من أحسن ميزات اشتراكيتنا. فما أسهل أن تستلف من البنك ما شئت من ملايين لتغطية مشاريعك الضخمة التي تكسب منها الملايين.. يا مولانا هكذا تكون الاشتراكية وإلا فلا.. يا مولانا.. قبل الثورة كان

عدد المليونيرية لايزيد عن عدد أصابع اليدين، بينما يزيد عددهم اليوم على خمسة آلاف مليونير.

وهكذا فقد أطلق الأولاد على هذا الرجل اسم «يا مولانا».. وكان خالد قد تسلل الى الشرفة، مدفوعاً بفضول شديد، ثم عاد ليخبرنا همساً بأن «**السيد يا مولانا**» شاب قد يكون أصغر من عمنا أحمد، وأن معه بندقية صيد لأن لها عينين اثنتين، وأن السيدة التي معهم شابة جميلة وأنيقة.

ومن حديث «أبي غزوان» أيضاً عرفنا أن هذه السيارة الثمينة ما هي إلا إحدى سيارات «يا مولانا» وهي مخصصة لرحلات الصيد، وفيها ثلاجة. وأما هذه الآنسة «مفاتن» فهي صديقته العزيزة. وأنها فنانة كبيرة، لابمعنى «الآرتيست»، وإنما هي رسامة ومهندسة ديكور بارعة. ورغم أن أباها وزير فإنها فضلت الاعتماد على ذراعها فأنشأت مكتباً لمقاولات أعمال الديكور، بتمويل من زهير بك طبعاً، أصبح اليوم أهم مكتب مقاولات وتعهدات في العاصمة.. **سبحان العاطي.. ففي عيد الثورة، الذي يجب أن نحتفل به كل سنة، ترسو عليها وحدها معظم مناقصات بناء أقواس النصر الكرتونية، لأن تصاميمها لأقواس النصر فريدة في بابها من حيث الجمال والابتكار والتعبير عن مدى فرحة الشعب بما وفرته له الثورة من حرية وديمقراطية واشتراكية.. كما أن إتقانها اللغتين الفرنسية والانكليزية جعل من مكتبها الأنيق أحسن ملتقى مفضل لمدراء الشركات الأجنبية الذين يتوافدون على البلد لتصيد مشاريع المقاولات الضخمة.. وهذه عمليات فيها ملايين..**

ثم اختتم أبو غزوان حديثه مؤكداً:

ــ أنا شخصياً أعدّ الآنسة مفاتن مفخرة لبنات هذا الجيل الثوري، ونموذجاً رائعاً بل مفخرة للبنت الاشتراكية المناضلة.

فسمعت صوت أخي يعلق هكذا:

ــ أنعم بها وأكرم.. لكنك لم تخبرني عن أبيها هو وزير ماذا؟

ــ إنه وزير الأوقاف والشؤون الدينية.

ــ أنعم به وأكرم.. نعم الأخلاق ونعم التربية.

○

دخل الزاكي علينا وهو كالمسحور أو السكران، وهمس في أذني من تحت اللثام:
ــ عمي أرجوك.. إن كنت صادقاً معي في مسألة لزواج فاخطب لي عروساً مثل «مفاتن».
فقلت له ضاحكاً:
ــ هذه مسألة سهلة.. ولم لانخطب لك الآنسة مفاتن ذاتها؟.. أظن أنه حان لي أن أخرج لأرى هذه المفاتن التي فتنت لبك الى هذا الحد.
ونهضت وأنا أقول للأطفال:
ــ تعالوا معي.

○

كان الزاكي على حق في أن يطيش صوابه فتنة بهذه الشابة الناضجة والجميلة جداً.. إنها ــ باختصار ــ رائعة الجمال بل إنها لساحرة.. وإنها لناضجة بمعنى الثمرة الشهية التي بلغت غاية اكتمالها حتى كادت تذوب عسلاً وعطراً، ولم يبق عليها إلا أن تقول لك: «**اقطفني.. تذوّقني.. ستجد أنني أموع لذة بين شفتيك**».

كانت ترتدي ثياب صياد: بنطلوناً ضيقاً، وقميصاً طويلاً ذا جيوب خارجية كبيرة، وقبّعة من الفلّين. وكانت قد شمّرت كمّي القميص حتى المرفقين، للتخفف من وطأة حرارة الطقس، وفتحت قبة القميص ماوسعها ذلك. فزاد جمال عنقها وصدرها وزنديها من وطأة تأثير فتنتها على القلوب.

ثم إنها خلعت القبّعة عن رأسها فانساب شعرها الأسود نازلًا إلى الكتفين في شلالات سحر رائعة. وكان كل ماترتديه أبيض. والأبيض لون بنسجم تماماً مع هذا الشعر الأسود والوجه الوردي والبشرة النقية. لاشك في أنها مهندسة ديكور على ذوق رفيع في فهم أسرار انسجام الألوان.. غير أن ارتداءها هذه الثياب البيضاء بالذات، في رحلة الى البادية بالذات، حيث لاشيء غير الغبار فوق الغبار، أمر يجعلك تشك في حسن تقديرها للظروف الحياتية. والأغرب من هذا أنها كانت متزينة بمصوغات ذهبية تدل على منتهى التنافر والتناقض مع «الصورة».. أصلًا عندما تكون المرأة غنية بجمالها الطبيعي هذا الغنى الهائل تكون المصوغات والحليّ والجواهر عوامل تشويش بل تشويه لكمال الخلق الربّاني، فما بالك بهذه «المفاتن»

العجيبة وقد ملأت يديها بأساور ذهبية من كل صنف ولون، كأنها تحمل معرضاً متنقلًا؟.. وما سر هذه الغواية بالذهب التي جعلتها تحمل على صدرها ثلاثة أطواق من الذهب، واحد منها ينتهي بعلبة كبيرة وثقيلة على شكل مصحف شريف؟..

ويبدو أن الآنسة مفاتن لاحظت في عيني أمنا شفيقة سؤالًا حول هذه المصوغات الذهبية الكثيرة، فقالت مبتسمة:

ــ كلها هدايا من أصدقائي وحياتك.

فقال السيد «يا مولانا» موضحاً:

ــ يا مولانا أنا بريء من هذه التهمة.. فكل هذه المجوهرات جاءتها من أصدقائها الذين فوق.. إنهم الأسياد.. وأين إنسان مثلي من رجل كبير من مستوى قائد سرايا الفتوحات؟.. من هذا الرجل وحده جاءِ أكثر من نصف هذا الذهب..

قررت مفاتن أن تغير الموضوع. فنظرت إلى أمنا شفيقة وقالت بلهجة فيها الكثير من الرجاء والتودد واللطف:

ــ أريد أن أغسل وجهي أرجوك.. ثيابي تكاد تلتصق بجسمي من كثرة العرق والغبار.. هل توجد عندكم مغسلة؟

دخل الزاكي على الخط فوراً فقال بحماسة:

ــ عندنا مسبح إن شئت أن تسبحي.

فهتفت غير مصدّقة:

ــ صحيح؟!.. هذه مفاجأة غير معقولة.

فقال الحاج رضوان:

ــ نعم عندنا مسبح لطيف.. صحيح أنه لا يليق بالمقام، فهو غير مبلّط بالرخام الصقيل، ولكن مياهه عذبة ونقية ومنعشة. بل إنها مياه طازجة إن صح التعبير، لأنها آتية من البئر مباشرة.

فقالت مفاتن بابتهاج شديد:

ــ هذه أجمل مفاجأة في الرحلة.. أنا سعيدة جداً.

ثم مدت يدها إلى صديقها العزيز وهي تبتسم قائلة:

ــ يا مولانا تعال معي.. ألا تريد أن تسبح؟

وقاما فذهبا الى السيارة عند السياج، فنهض أبو غزوان ليمشي خلفهما وهو يقول للزاكي:

ــ تعال ساعدني بجلب بعض الأغراض من السيارة. إنها هدايا بسيطة للأولاد.

فقال الزاكي مضطرباً:

ــ اعذرني يا عمي.. الأولاد يذهبون معك.

وما أسرع أن ذهب الأطفال معه، وهم يتمنون لو أنهم في كل يوم يكلفون بألف مهمة من مثل هذه المهمة.. ثم مالبثوا أن عادوا: أبو غزوان في المقدمة وهو يحمل على كتفه صندوق برتقال.. وخالد وعبدالفتاح خلفه يحملان سلة تفاح كبيرة.. ووداد خلفهما تنوء بحمل علبة بقلاوة.. وفردوس تمشي معها.. أما سلوى فقد ظلت هناك تتلمس بيديها الصغيرتين هيكل السيارة وقد بهرتها نعومة ملمس هذا المعدن المصقول، الذي ما أن تزيل عنه الغبار بيدك حتى ترى وجهك فيه لشدة لمعانه وصفاء لونه. ربما كانت سلوى تظن أن كل سيارات الدنيا تشبه سيارة المزرعة «هيئة الأمم» التي لها لون مثل لون جلد الحمار وملمس أكثر خشونة وتجعداً من طين الجدار المليء بالحفر والنتوءات..

ثم فُتح باب السيارة وأطلت منه على الدنيا حورية من حوريات الجنة، وهي عارية تماماً إلا من قطعتي المايوه البكيني الأحمر.. إنها حورية حقيقية حسب تعبير أخي الذي مالبث أن غض بصره وهو يقول بلسان متعتع:

ــ سبحان الخالق العظيم.. هذا هو الاعجاز في الخلق.. آمنت بعظمة الله.

وقال أبو غزوان:

ــ سبحان المعطي الوهاب.. إذا أعطى أدهش وإذا أخذ فتّش.

أما أمنا شفيقة فقد كانت مقتنعة تماماً بأن ما تراه الآن هو من علامات الساعة. ثم إنها رجعت الى داخل البيت عندما خرج زهير بك من السيارة مرتدياً مايوه السباحة، ليلحق بالحورية البيضاء، ويمسك بيدها، ويقبلان نحونا ضاحكين.

وأما «الزاكي» فإنه لم يغضّ من بصره فحسب عندما رأى كل هذه «المفاتن» عارية بجسدها المرمري البض والخارق في كماله، وإنما هرب، اختفى.. من المؤكد أنه هرب وقلبه يخفق اضطراباً وخوفاً غريزياً من أن لايحتمل الضربة الصاعقة.

واذا اختفى الزاكي من الساحة فإنه يجدر بي أن أبادر أنا لمساعدة أمنا شفيقة في إعداد وليمة لائقة بهؤلاء الضيوف الاكابر، الذين سبقونا إلى الفضل بما جلبوه معهم من هدايا أسعدت قلوب الاطفال كثيرا. كما أن المصلحة تفرض المبالغة في الحفاوة والكرم. فهذه أول مرة يزورنا فيها أبو غزوان، التاجر الذي قد يستمر تعامله معنا سنوات.

وهكذا فإنني تقدمت إلى أمنا العظيمة، على رأس الاطفال المتطوعين، لنعمل تحت يدها منفّذين أوامرها المطبخية: (**هاتوا الدجاج. انتفوا الفرّي.. نظّفوا السمكة.. صفّوا الكراسي في الشرفة**). وكانت تصدر تلك الأوامر بصيغة موجزة ولهجة أمر حاسمة، كأنها تريد أن تختصر الكلام حتى لايشعر أحد بما يضطرم في جوفها من امتعاض واحتقار وغضب ينم عن أنها ــلو أن الودّ ودّهاــ لما طبخت لهؤلاء (الأنجاس) طعاما غير الزقّوم.. وطعام الزقوم يستجر شراب (السمّ الهاري) أي العرق. وبذلك فإنني لم أُفاجأ عندما قالت لي وهي تشوي الدجاج في التنور، وعيناها تدمعان بتأثير الدخان:

ــ سوف ترى الآن أن هذه الفاجرة لن تأكل الدجاج الا وتطلب معه السم الهاري.. أليس قليلا علينا لو قلب الله بنا الأرض؟.

ثم مسحت أنفها بكمّ ثوبها منتظرة سماع تعليق مني.. غير أنني بقيت متشبثا بالمثابرة على الصمت. لأن أي جواب أو تعليق سيزيد لهيب النار أُوارا. كما أن الظرف الراهن يقضي بأن نستجلب أسباب المرح والانشراح، ولو كذبا، لا أن نقول لكابوس القهر والحزن والغضب: تعال.

وحين يئسَتْ من صمتي تابعت حديثها كأنها تحدّث نفسها:

ــ إن إبليس ذاته، عندما قرفص بمواجهة أبينا آدم ليحوك لنسله أخبث الخطايا، لم يكن ليخطر على باله أن يأتي يوم على أمة محمد تنحط فيه الأخلاق الى هذا الدرك المخزي من الحقارة والفجور والعهر والتحدي في ارتكاب المعاصي هكذا علناً تحت شمس الله الساطعة.

كانت ترتجف غضبا. ثم إنها مسحت بكمّها دموع عينيها التي درّها دخان التنور وسألتني:

ــ ترى هل إن ما نزل بنا في المذبحة الرهيبة كان عقابا لنا من السماء؟

ثم مالبثت أن أجابت نفسها بحزن وحسرة:

ـ لكن من الذي ذُبح في مدينتنا يا حسرتي!! رجالٌ أتقياء صالحون كان الخنازير يقتلونهم حرقاً في قلب المساجد.. وأطفالٌ أبرياء لم يتح لهم عمر الزهور فرصة لارتكاب أية معصية.. ونساءٌ طاهرات أشد فقرا من أهل الصفّة، وكل واحدة منهن أكثر ورعا من رابعة العدوية.. لقد قتلوا الطاهرات حتى يزداد فجور الفاجرات. وهذه الحقيرة بنت وزير الاوقاف تتباهى بأساور شهيدات بلدنا المغدورات اللواتي قطع الجنود أيديهن بالفؤوس ليأخذوا حليهن.. هل تعرف أي جنود؟.. إنهم جنود قائد سرايا الفتوحات الذي تتباهى هذه الضليلة بأنه من أصدقائها.. هل هذا من العدل؟.. أين اللـ..؟

وبترت اللفظة بأن كمّت فمها بيدها، وتركتني وعافت كل شيء ومضت إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها بقوة. من المؤكد أنها كادت تسأل باستنكار صارخ: (**أين الله؟**) فشعرت بورطة التجديف المخيفة، فذهبت الى ملجأ الصلاة والاستغفار لائذة بمصدر الأمان الوحيد: (**الله**). كانت تردد دائماً : (**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**).

وهكذا بقيتُ وحدي أمام التنور. وصار لزاما عليّ أن أكمل مشاريع المائدة.. أين الزاكي؟

قال الاطفال:

ـ الزاكي صار في آخر الدنيا.. هناك خلف التلال.. وأخذ معه قطّاش أيضا.

ـ والحاج رضوان؟

ـ عمنا واقف مع التاجر في بيت الفرّي.

○

أنجزنا إعداد كل ألوان الطعام المقررة. وقد ساعدني الأولاد مساعدات جليلة. ولم يبق إلا أن نقول للضيوف: (**تفضلوا**).. لكن أين الضيوف؟

قال الأولاد:

ـ أبو مولانا وزوجته ما زالا يلعبان في الحاووظ ويضحكان كثيرا.. وعمي انتقل

مع التاجر الى بيت الدجاج.. غير أن عمي حزين وزعلان

ـــ ما هذا الذي تقولونه يا أولاد؟

ـــ نعم إنه حزين وغاضب ومقهور كثيرا.

ـــ ظلوا أنتم هنا عند المائدة حتى أذهب وأرى.

○

كان الحاج رضوان وأبو غزوان واقفين في عتبة حظيرة الدجاج المغلقة. وكان الجو مكهربا. بادرني أخي قائلا وهو يوشك يتمزق غيظا:

ـــ تعال اسمع هذه الخبرية اللعينة. نحن مهددون بأن تأتي جرّافات عسكرية فتهدم كل ما في هذه المزرعة.

ـــ والسبب؟

ـــ مشروع تربية الفرّي.

ـــ ماله الفرّي؟.. هل هو ضد الأمن؟.. هل إن طيور الفرّي هي حمام زاجل ينقل الأخبار للعدو؟.. من هو الوغد اللاطي خلف هذه الفتنة الظالمة؟.. أهو وسّاف بوجقل؟

ـــ لا.. انه وزير الحرب.

ـــ وزير الحرب؟.. وما هي علاقة وزير الحرب بمثل هذه الامور؟

ـــ أبو غزوان يشرح لك كل شيء.. فأنا ما عدت اطيق الكلام أو التفكير.

ورفع بصره الى السقف بعينين محتقنتين بالدم: (**يارب.. كيف يعيش الانسان في هذا البلد؟**).

قال أبو غزوان:

ـــ اسمع يا دكتور.. اسمعني جيداً وافهم كيف تجري الأمور عندنا. فقد أخبرني أخوك بأنك تعيش في المانيا.. وألمانيا يا صاحبي شيء وأوضاعنا هنا شيء آخر تماما. كل بلاد الدنيا في جهة ونحن هنا في الجهة المناقضة تماما.. مثلا: هل الحاكم عندكم مثلا لاهمّ له إلا أن يقتل أبناء الشعب؟

فقلت له بضجر:

ــ إنني أعرف هذا جيدا.. أرجوك أن تخبرني ما هي علاقة وزير الحرب بالفرّي؟

ــ ها أنذا آتيك في الكلام.. لأنه.. حتى يستطيع الحاكم أن يقتل ما يريد من رعية العبيد، ومتى شاء، وكيفما شاء، دون أن يخشى أية زعزعة، فإن عليه أن يعتمد على نوع من الأعوان تفرض عليه طبيعة النظام أن يشتريهم شراء.. بماذا يشتريهم؟.. بأن يقول لهم: (روحوا انهبوا كل خيرات البلد.. يدكم وما تطول). هل تفهمني جيدا يا صاحبي؟.. وحتى لا يتقاتل هؤلاء الركائز أو يفضحوا بعضهم بعضا فقد تقاسموا مناطق الاختصاص ورسموا خطوطا حمراء بينها. أنا أنهب هنا وأنت تنهب هناك.. واحد احتكر مياه الينابيع وفرضها على الشاربين بأسعار أعلى من سعر البنزين.. والثاني اختصاصه تهريب الويسكي.. والثالث له السكاير. والرابع لتسويق الحشيش على مستوى عالمي. والخامس له حقل تهريب آثار البلاد..

ــ ووزير الحرب؟

ــ وزير الحرب له عمولات صفقات الاسلحة.. لكنه في الفترة الاخيرة، وبعد أن سخّر كبار الضباط للاشراف على طباعة كتاب (فن الطبخ) في مطابع الجيش العقائدي (وهو من تأليف زوجته، وأول طبخة فيه تصنع من الجامبون أي لحم الخنزير) اكتشف أن فن الطبخ هو أرقى الفنون، وأحب أن يقدم للشعب مادة غذائية جديدة ومبتكرة فأنشأ مزرعة ضخمة لتربية طيور الفرّي. وهذا يعني ــبالعربي الفصيحــ أنه لايجوز أن توجد في البلاد كلها أية مزرعة أخرى حتى لو كانت من مقياس مزرعتكم البسيطة. إنه يريد أن يظل حراً في تحديد الأسعار دون الارتباك بأية منافسة.. وأنت يا دكتور ــعدم المؤاخذةــ لاتعرف وسائل الاقناع عندنا. فقد يروق لهم أن يخصصوا هذه المنطقة الصحراوية بالذات لاجراء مناورات وتدريبات عسكرية بالذخيرة الحية، فيجعلوا من مزرعتكم هذه نقطة الهدف التي يكافأ كل مدفعي يحسن التصويب عليها بإحكام.

قلـت:

ــ بسيطة.. نلغي مشروع الفرّي.

فقال أخي ساخرا:

ــ ما شاء الله عليك.. أهكذا تنهار وتستسلم من أول غمزة؟. وبعد قليل تقول: ونلغي مشروع الدجاج، ونطلق الأرانب لتتشتت في أرض الله الواسعة ونحن نفتح

أفواهنا لنعيش على الهواء.

فقال أبو غزوان:

ـــ اطمئنوا.. فحتى لو فعلتم كل ذلك فإنه لن يجديكم نفعاً.. يجب أن تشاركوا واحداً من السادة الذين فوق.

فقلت: وما المانع؟!.. أهلًا وسهلًا بأي شريك مادام سيدفع نصف التكاليف ويقدّم نفس الجهد، ثم يأخذ نصف الأرباح.

فضحك أبو غزوان وقال:

ـــ أرأيت أنك ما تزال تعيش في المانيا؟.. الشراكة هنا يا ابن عمي ليست هكذا.

ـــ إذن كيف؟

ـــ أنت تدفع وتتعب وتشقى.. وهو يقبض المعلوم على البارد والمستريح.. وإلا فكيف تفهم المشاركة والاشتراكية؟.. ومن أين كوّن الوزراء والضباط والمدراء هذه الثروات الخيالية؟

فقلت غاضبا: **لكن هذا ظلم. هذا نهب. سرقة.. هذا..**

ربّت الحاج رضوان على كتفي بحنان وهو يقول:

ـــ لاداعي لأن تغضب وتثير أعصابك. المهم الآن أن نخرج لضيوفنا.. ثم ينقضي النهار على خير إن شاء الله، وبعد ذلك يكون لكل حادث حديث.

ثم التفت الى أبي غزوان قائلا:

ـــ إنني عاجز عن الشكر يا أبا غزوان.

ـــ أستغفر الله يا حاج رضوان.. فأنت نعم الرجل الوطني الشريف المحب للخير. ولولا هذه الثقة بك لما أخذت راحتي في الحديث مع أخيك.. تفضلوا. فأنا على وشك أن أموت من الجوع.

جلسنا حول مائدة الطعام العامرة في الشرفة.

تلفّت أخي حوله وسأل: أين أمكم يا أولاد؟

ـــ إنها في غرفتها.. تصلّي.

كانت أمنا الرائعة مصيبة في توقعاتها. وما أسرع أن تحققت نبوءتها الصغيرة بشأن (السم الهاري) وذلك عندما جلسنا على الكراسي أنا وأخي وأبو غزوان و(يا مولانا)

ومفاتن التي ظلت عارية إلا من مايوه السباحة الأحمر المثير، وقد عقصت شعرها بمنديل أحمر، وغطّت كتفيها بمنشفة حمراء لاتني تنزلق عن الكتفين العاجيين كلما تحركت هذه المفاتن الساحرة أو مدّت يدها إلى طعامٍ أو شراب. كان كل شيء فيها جميلا وفاتنا ومثيرا.. وأنا ماعدت أعرف ماذا حلَّ بي. كأنني عمري ما رأيت شابة جميلة متجردة بثياب السباحة. أو كأنني، بعد كل ما رأيت وسمعت خلال هذه الأيام الخمسة، وجدت من الجنون الحقيقي أن لا أكون مجنونا حقيقيا. واذا كنت خلال سنواتي الأوربية قد رأيت مئات النساء العاريات تماماً في حمامات الزاونا فلم يرتجف قلبي يوماً بأية مشاعر تأثر أبدا، إذن ففي أيام القتل والانتهاك والغدر واللؤم لامانع من أن تطلق كل غرائزك البدائية على هواها.. ويادكتور أحمد تكون حماراً أكثر من صابر أفندي ذاته إذا فعلت مثل الزاكي فهربت من ساحة التهيّج الغريزي الأعمى حذرا من الضربة الصاعقة. أهلًا وسهلًا بالضربة الصاعق.. ويا أيها التهيج البدائي المجنون تعال واملأ شراييني بالطيش والعبث والنهش وكل المحرّمات.. إنني أريد أن أنهش كالكلب المسعور.

قالت مفاتن، وهي تلقي أول نظرة استعراضية على المائدة العامرة:

ــ ما هذا؟. ماذا أرى؟.. هل يُعقل أن يفاجأ الانسان هنا في وسط البادية بمثل هذه المائدة الملوكية؟.. وأي ملوك؟.. فشر الملوك. فإنهم لم يحظوا بمثل هذه المآكل أبدا.

كانت تقول ذلك بإعجاب شديد. وكان وجهها المشرق بنور الفرح والانشراح يقول مع ابتسامتها الرائعة:

ــ دجاج مشوي.. فرّي طازج. وصحون مقبلات ومشهّيات يستحيل أن تجدها في أرقى مطعم في العالم.. لذلك فإنه حرام أن تؤكل بلا عَرَق.. ألا عرق عندكم؟.. من غير المعقول أن تكونوا على هذا المستوى الرفيع من الذوق الراقي ولا عرق عندكم.

وما أعجب ما بدر عن أخي.. فقد قال بوجه جامدٍ:

ــ عدم المؤاخذة.. نحن هنا لانعرف هذا الشيء الذي تذكرينه على لسانك.

غير أن هذه الفتاة أو السيدة الجميلة، بدلا من أن تلاحظ حالة الانقباض والامتعاض التي تلبّست روح أخي، انفجرت بضحكة رنانة. تأسر القلب وتسكره بلا خمرة. (حتى أسنانها كانت جميلة).

أخرج (مولانا) مفاتيح السيارة من جيبه وقدّمها الى أبي غزوان قائلا باستخفاف:
ــ يا مولانا.. أنت تعرف كيف تجد بعض المشروبات في السيارة.. بيت السبع لايخلو من العظام.

والحقيقة ان (العظام) التي جلبها أبو غزوان من السيارة كانت كافية لافتتاح خمّارة بحالها. الأمر الذي زاد من اعتزاز السيد (يا مولانا) بنفسه وبأمواله وبصواب النظرية التاريخية الخالدة التي تنص على أن المال هو أعظم قوة سحرية في الارض، **(فبأموالي استطعت أن أشتري مثل هذه البضاعة النادرة من الخمور النفيسة وبأموالي استطعت أن أشتري هذه الصديقة التي...)** غير أن صديقته الرائعة الجمال لم تعجبها هذه الخمور. فقد نظرت الى القناني الأنيقة البراقة بازدراء وتساءلت باستنكار ساخر:

ــ ما هذا؟.. ماذا أرى؟.. ويسكي الانكليز ونبيذ الفرنسيين؟.. أين نحن الآن؟.. نحن الآن ــيابني وطنيــ هنا في بلدنا، في وطننا، في صحرائنا، في الشمس لا في الضباب،.. لذلك فإنه من النشاز أن نشرب غير العرق، بل إنه لمن الخيانة الوطنية أيضا..

ثم قالت بنبرة تأكيد حازم: **أنا شخصيا أريد عرقا. وإلا فلن أشرب. وأنتم أحرار.**

فقال اخي وهو يكتم غيظه من (مولانا) الذي (أنزل) هذه الخمور في ساحة المزرعة دون استئذان أهلها:

ــ يا ستّي مشّي الحال.. إلّا تكن إبل فمعزى.

فانفجر الضيوف ضاحكين. وكان معهم كل الحق هذه المرة. إذ أن إيراد هذا النص في هذه المناسبة بالذات دليل على أن حالة الهيجان الغاضب الذي يضطرم في قلب الرجل جعل عقله يتدحرج الى مهاوي الطيش.

ثم إنه انتبه الى أن الأولاد واقفون حولنا استعداداً لخدمتنا. وخالد يحمل إبريق الماء وعبدالفتاح يحمل إبريق اللبن. فأمرهم بأن يتركوا كل شيء ويذهبوا الى شجرة التوت فيلعبوا بالأرجوحة. فوضع الأطفال ما بأيديهم على المائدة وانصرفوا صامتين. فقالت مفاتن:

ــ إنهم أطفال رائعون. غاية في اللطف واللباقة والتهذيب.

وبدأت تأكل. كانت تلوك اللقمة بتأنٍ شديد واستمتاع واضح.. ثم سألَتْ أخي:
ــ هل هم أولاد ابنك؟.. (وأشارت اليّ)
فقهقه أخي بالضحك وقال:
ــ بل كلهم أولادي.. أما هذا الشاب الطريف فهو أخي. شقيقي من أمي وأبي.. وهو من أشهر الأطباء العالميين في المانيا.
فتدخلتُ قائلا:
ــ الواقع أن ضيفتنا العزيزة لم تخطىء في تخمينها.. فأنا يا آنسة، وأختي خديجة أيضا، لم نعرف غير الحاج رضوان أبا. فهو الذي ربّانا وسخّر كل حياته لتنشئتنا. وأنا شخصيا إن كنت قد وصلت الى ما وصلت فذلك بفضله هو..
فالتفتت مفاتن الى الحاج رضوان وقالت برقة عذبة:
ــ اسمح لي يا حاج رضوان أن أعبّر لك عن إعجابي الكبير بك شخصيا. أنت إنسان رائع وعظيم. ورجل في مثل سنّك، عنده هذه الهمة وهذا الوعي والطموح والذوق، وهذه المزرعة، وهذه الشهامة وروح الفروسية، رجل يندر مثاله، خصوصا في هذه الايام.. إنني سعيدة جدا بالتعرف بك.
سكر الرجل أبو القلب الطيب، وقال لها وهو يبتسم مسرورا:
ــ انتظري يا آنسة أرجوك. انتظري لحظة واحدة. سيأتيك العرق في الحال. لكن أي عرق!. أنا واثق من أنك بعد أن تتذوقيه سوف تصعدين الى السطح وتصرخين: هذا ألذ عرق شربته في حياتي.
ضحكت مفاتن وقالت:
ــ أعدك بأن أفعل ذلك.
فقهقه الجميع ضاحكين. وكنت أنا أكثرهم سعادة وسرورا. هاقد انزاح الكابوس عن صدر أخي المسكين الذي ماعاد يحتمل وطأة المزيد من الكوابيس. وليهرب الى عالم النشوة والمرح والانشراح، ولو كذبا. فلينس الهموم القاتلة، ولو للحظات معدودة.
وجاء العرق وشربت مفاتن واعترفت بأنه ــ حسب تعبيرها ــ شيء نفيس، وسألت:
ــ ما اسم ماركة هذا العرق؟

أجابها الحاج رضوان:

ــ أتريدين الصدق؟.. ماركة السِم الهاري.

فارنجّت أجواء الشرفة بالضحك من جديد.. ثم طالت جلسة الطعام والشراب الممتعة التي لم يكن يلوّث جو صفاء الأنس فيها إلا مداخلات (مولانا) السمجة البليدة التي تنضح من إناء روحه التجارية الجشعة. إن كل خمور الدنيا وأجمل نساء العالم لايمكنها أن تحرف لسانه عن مداولات الجشع التجاري. فعقله مأخوذ كليا للمال، وكل لحظة في أية مناسبة هي فرصة يمكن استغلالها لطرح فكرة مشروع تجاري جديد يمكن أن يدرّ الملايين. فإذا لم تلقط الصنارة (**فإننا لانكون قد خسرنا شيئا**). وأظن ــ بل إنني متأكدـ أنه لو كان يمر بشارع محفَّر، ورأى عمالا مساكين يعملون في تنظيف مجاري القاذورات، فإنه يغلق النافذة حتى لاتقتله الروائح الكريهة، لكنه يبتهج للفكرة الجديدة التي لمعت في ذهنه: **لماذا لم يفكر أحد قبله بإنشاء مؤسسة تجارية لتنَظيفات المجاري؟**. بهذه الصورة كنت أراه عندما كان يخترق جو الأنس والمرح ليقول لي:

ــ يا مولانا.. لاتحمل أيَّ همّ.. فرجل من مستواك الطبي الرفيع وله هذه السمعة الدولية حسبما فهمت يمكنه أن يجمع ملايين الليرات بسنة واحدة اذا فتح عيادة خاصة عندنا في العاصمة، فما بالك لو فتح مستشفى؟.. أنا مستعد لأن أموّل لك نفقات إنشاء أحسن مستشفى. والله كريم والمنتوج فيفتي فيفتي..

فأقول:

ــ لكن الطب مهنة انسانية. وهذا مشروع تحكمه دوافع الجشع.

فيضحك ويقول:

ــ أية إنسانية يا مولانا؟.. يا مولانا إن هذه الدنيا لايحكمها إلا المال.. فلوس.. ملايين. ولا تصدّق أي كلام غير ذلك.. وحتى لو بقينا ضمن حدود المهمة الانسانية التي تفضّلت بالتنويه عنها فإنني أحب أن أطرح سؤالا: (**هل هناك مهمة انسانية أسمى من إنقاذ روح إنسان؟**). **الجواب: طبعا لا**.. اذن فانظر ما تعلمناه من حياتنا التي نعيشها: يوميا يُعتقل العشرات بل المئات، وهذا شيء طبيعي فكل إنسان معرّض للاعتقال للتحقيق معه. لكن هؤلاء الذين يؤخذون لايرجعون أبدا. بعضهم يُبادون اغتيالا في السجون، وبعضهم يُحكم عليهم بالاعدام،

ومعظمهم تنقطع أخبارهم نهائيا، **إلا الذين عند أهلهم فلوس ويستطيعون أن يدفعوا بسخاء.** فإنهم يعودون الى أهلهم معززين مكرّمين.. إذن فلولا الفلوس لراحوا في خبر كان **يا مولانا. اليست هذه مهمة انسانية؟؟ المال يا مولانا ولا شيء غير المال.**

وشرب كأسه مزهوّاً بعقله الواسع الحكيم.. وها إننا جميعا ـــ وقد اغتيل المرح وحط كلكل الكآبة ـــ بقينا صامتين. والصمت إقرار. إذن فليواصل انتصاراته.. قال لأبي غزوان آمراً:

ـــ صبّ لي كاسا أخرى.

ثم التفت اليّ ليتابع حديثه الحماسي:

ـــ دلّني على أي إنسان له ولد مفقود أو أب أو أخت مثلا، وأمهلني أربعا وعشرين ساعة فقط حتى أجلب لك أخته من تحت الأرض ولو كان قرار المحكمة باعدامها قد صدر سبع مرات.. يا مولانا.. الفلوس تصنع المعجزات.

تكهرب الجو كثيرا. وها إن الكارثة قد حلت بكل وطأتها.. وكل محاولات مفاتن بإلقاء أطرف النكات لاستعادة الجو المرح لن تجدي بعد أن تطرّق الحديث الى (الأُخت) بهذه الغلاظة، وانتصبت صورة أختنا خديجة على المائدة أمام عيني الحاج رضوان اللتين بدأتا بالاحتقان.. فوضعتُ يدي على قلبي مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم.. ثم وجدت نفسي أقول:

ـــ يا جماعة الخير.. هل لاحظتم أن الآنسة مفاتن لم تَفِ بوعدها؟

ـــ أيَّ وعـد؟

قلـت:

ـــ يا حاج رضوان طالِبْ بحقوقك.. ألم تتعهد الآنسة مفاتن بأن تصعد إلى السطح وتعلن اعترافها بأن هذا ألذّ عرق في الدنيا؟.

فانفرجت أسارير أخي لهذا المخرج المريح وقال:

ـــ أنا لا أطالبها بشيء.. ولكن وعدَ الحرّ دين.

نهضت مفاتن بقوامها السامق وجسدها العاري المتألق نضارة، ومشت وهي تحمل كأسها بيدها، واجتازت الفسحة التي أمام الشرفة بخطوات أنيقة فيها كل سحر الصبا وروعة الكمال. وظلّت عيوننا متعلقة باللون الاحمر المثير الذي يجعل قماش قطعتي المايوه يرسم تفاصيل دقيقة ومحدّدة لخطوط الجسد المتباهي بكماله

الخارق.. إلى أن وصلَتْ الى الدرج وصعدته.، فلم نعد نرى منها إلا أثر الصورة المهيجة التي ظلت تحفر في المهجة المضطربة.. وصرنا نسمع صوتها الجميل وهي تهتف صارخة فوق السطح: **هذا ألذ عرق في الدنيا.. تعالوا اسكروا.. تعالي يا شمس الأصيل.. تعالي أيتها الصحراء العظيمة.. هيا إلى الجنون هيا إلى الجنون.**

كان صوتها الجميل يثير نشوة الطرب الى حد الجنون.

وكان يضايقني أن جلستنا في الشرفة تحول دون رؤيتها وهي هناك في الأعالي تنادي الشمس، بساقيها الرائعتين، وخصرها العاري، وصدرها المتوقد، وكتفيها وعنقها ووجهها وعينيها وشفتيها وشعرها..

وكنت أحب أن أقوم عن كرسيي وأمشي الى موقع يمكنني أن أراها منه. ولكنني قررت أن أضغط على نفسي فاخبىء المتعة الى لحظة عودتها. إنه نوع من الصبر الصعب لكن مكافأته ضخمة.. فما أسعد قلبك وأنت تراها حين تعود.

وحين عادت لفت نظري أنني (أكتشف) جمال الأساور الذهبية في يديها والأطواق المتدلية من عنقها الى ما بين النهدين المخبوءين تحت شريط القماش الأحمر المثير.. قلت لنفسي: **(لقد أصبحت الحلّي الذهبية عوامل مساعدة على إبراز الجمال الطبيعي)**. وقلت لنفسي: **(إنه لمن حسن الحظ أنها لم تخلع عنها حليّها عندما تجردت من ثيابها للسباحة)**. وقلت لنفسي: **(إن نظريتك المعهودة عن تناقض الحلي الصناعية مع الجمال الطبيعي نظرية بائخة وتافهة)**. ثم قلت لنفسي: **(إن حياتك كلها بائخة وتافهة وأنت إنسان تافه ووغد وخائن أيضا.. وها إنك قد انحدرت الى أحط مهاوي خيانة كل ما كنت تدعي بأنك سخّرت له حياتك)**.

أين المثل العليا والقيم السامية؟

أين أنتِ يا أمنا شفيقة؟

أين أنت يا أمنا العظيمة.. يا أرضنا الطيبة.. يا سماءنا الصافية.. يا شمسنا الساطعة.. أين أنتَ يا قمر ليالينا.. يا عبير أزهار بساتيننا.. أين أنتِ يا رائحة سجاجيد جوامع مدينتنا.. أين أنت أيها النهر الهادىء الجميل الذي كانت تتمرّى عليه بيوت مدينتنا.. أين راح كل شيء.. أين ضاع كل شيء؟.. وكيف استطاعت أمنا العظيمة أن تستعصي على الضياع؟

نهضت واقفا ورفعت كأسي وهتفت بنبرةٍ استفزازية.

ـــ كأس أعظم وأجمل امرأة في الدنيا.
فقالت مفاتن: شكرا.
فقلت لها بروح عدائية:
ـــ لاأقصدك أنت وإنما أعني أمنا شفيقة.
وفي اللحظة ذاتها شعرت كأن لكمة قوية مؤلمة أصابتني في معدتي حتى كدت أتلوّى..
ـــ عفوا.. إنني مضطر لأن أترككم.

ومضيت مسرعا الى خلف البيت وأنا أترنح ملتوّيا على نفسي، ويدي تضغط بقوة على معدتي، وتقيأت.. تقيأت حتى آلمني الشعور بأن أمعائي تكاد تخرج من بطني.. ثم غبت عن الوعي وسقطت مغشيا عليّ... وحين فتحت عيني بعد ذلك وجدت نفسي متمددا على التراب أمام باب غرفة المؤونة، فاتحا ذراعيّ ووجهي الى السماء، وفوق رأسي عشرة عيون بريئة قلقة، وفوقها أمنا شفيقة منحنية عليّ تمسّد شعري بيدها الحنون وتتمتم بصلوات غير مفهومة.. إنني مستريح تماما:

حركت رأسي الى هذه الجهة فرأيت (صابر أفندي) وهو في وضعه التفكيري الأبدي، غير مهتم بأحد.. وخلفه قرص الشمس الأحمر وقد أوشك على المبيت وراء خط الأفق البعيد.. كدت أقول له: **أنت أسعد مخلوق يا صابر أفندي.. لأنك مستريح من مشاكل التفكير.**

حركت رأسي الى تلك الجهة فرأيت (حفيظة) واقفة تنظر نحوي بعينيها السوداوين الكبيرتين وأنفها المفلطح العريض الذي يلمع دائما، كأنها كانت تريد أن تسألني: **ماذا فعلت بنفسك يا أحمد؟.**

رجعتُ برأسي الى وضعه الطبيعي فابتسمتُ بسعادةٍ غامرة وقلت للأطفال الخمسة:

ـــ لن أترككم أبداً.. لن أسافر أبداً.

سألوني بلهفة: وبناتك؟

ـــ وسوف يأتين كلهن الى هنا.. الى هذه المزرعة بالذات.. سوف نعيش كلنا معا في هذه المزرعة الجميلة.

فأشرقت على وجه أمنا شفيقة ابتسامة لا أبيعها بكل مباهج الدنيا.

غير أن البسمة تجمّدت وانقلبت الى شهقة خوف وقلق. فقد سمعنا صوت طلقات نارية في الجهة الثانية من البيت، أمام الشرفة،

ماذا حدث؟

كان الاطفال يرتجفون ذعرا. غير أنهم بدلا من أن يهربوا الى ملاذهم الواهي في الغرفة تحت السرير رموا بأنفسهم عليّ وتمسّكوا بي. فتأجج في قلبي فرح لا يوصف.

ثم إنني نهضت لأذهب فأعرف سر هذه الطلقات النارية.

الفصل الثامن

ما أن وصلنا أمام الشرفة ورأينا المشهد حتى صرخت الطفلة وداد وهي تبكي بتوسُّل:

ــ كفى كفى.. حرام عليكم.. هكذا قتلوا أهلي عندما حصروهم في الحمّام وأطلقوا الرصاص عليهم.

○

كان الوضع على النحو التالي:

قفص كبير، طول ضلعه حوالي متر، ووجوهه الأربعة مصنوعة من شبك يشبه شبكة صيادي السمك، غير أنه من أسلاك معدنية رفيعة.

في قلب القفص حوالي مائتي متر طير فرّي مضطربة مذعورة تتصادم وهي تطير مضمّخة بدمائها، فتصطدم بسقف القفص فتقع لتصطدم بدمائها، وهي توصوص بأصوات الاستغاثة ولا مغيث، بل مزيد من طلقات الرصاص من بندقية الصياد «زهير بك» الذي كان واقفا على بُعد لايزيد عن خمسة أمتار، وهو يصوّب بندقيته نحوها ويطلق النار ويضحك معتزاً برجولته، ثم يطلق نار العين الثانية ويضحك مزهواً ببطولته، ثم يحشو عيني بندقية الصيد بطلقتين جديدتين ويعيد العملية بلا توقف، ويظل يضحك مبتهجاً بقدرته على التصويب الدقيق بينما الطيور الحبيسة التي تنفر دماؤها إلى خارج شباك القفص تتلاطم مع بعضها متخبطة مذعورة مستغيثة وهي تستحم بدمائها.

صرخت الطفلة الباكية مرة أخرى بتوسّلٍ يهز قلب الصخر:

ــ كفى أرجوكم.. هكذا قتلوا أهلي.

وضعت يدي على ماسورة البندقية وخفضتها الى الأسفل وسألت هذا المولانا الأحمق:

ــ ألم تسمع رجاء الطفلة؟.. ماذا تفعل يا رجل؟

أجابني بمنتهى البرود:

ــ كما ترى.. إنني أصطاد.. فعلام الاعتراض يا مولانا؟

الحاج رضوان أمر الأطفال بأن يذهبوا.. وأبو غزوان تقدم نحوي وقال لي ملاطفاً:

ــ فليكن صدرك واسعاً يا صاحبي.. عمرك ما مارست هواية صيد؟.. زهير بك مشى كل هذا المشوار الطويل ليمارس هواية الصيد.. فكبار رجال الأعمال يحبون الخروج للصيد لأنه أفضل مهرب لهم من مشاغل الأعمال المضنية..

ــ كان بإمكانكم أن تصطادوا على الطريق.

ــ طول الطريق لم نوفق برؤية أية طريدة.. وها أنت ترى أن الشمس أوشكت على المغيب.. إذن لم تبق أمامنا أية فرصة.. فهل تريد لصديقك زهير بك أن يرجع وجعبة صيده فارغة؟

نظرت إلى أخي فوجدته ما يزال واقفاً مطرق الرأس، صامتاً، ويداه معقودتان تحت صدره، ينتظر نهاية هذه الورطة بفارغ الصبر. مؤكّدٌ أنه لو عرف أن هذا ما سوف يحدث لما قدّم صندوق الفرّي هدية للضيوف رداً على هدية الفواكه والحلوى.

قال الصياد وهو يرفع يدي عن ماسورة البندقية:

ــ يا مولانا.. إن كان قلبك رقيقاً إلى هذا الحد فذلك لأنك طبيب إنساني.. أما بالنسبة إلينا فإننا نقول: أُحِلَّ لكم صيد البر والبحر.

ــ لكن ما تفعله الآن ليس صيداً، وإنما أنت ترتكب مجزرة ليس فيها أية شفقة أو رحمة. فالرجولة تقضي بأن يترك الصياد للطريدة فرصة الحرية لاختيار أي سبيل للنجاة.. وأنت الآن تقتل مساجين.. هل رأيت إنساناً يقتل مساجين ثم يدّعي بأنه انتصر عليهم؟

فقال بتأكيد وشماتة:

ــ بلى لقد رأيت.. فأنا لا أقتل غير طيور.. بينما ذلك الآخر ــ وأنت تعرفه

جيداً ـــ اصطاد ألف إنسان أعزل محصورين في السجن.

أرخيت يدي وانسحبت من الساحة كلها، وأردت آن أمشي بعيداً عن صوت طلقات البارود واستغاثات الطيور الحبيسة التي تتخبط بدمائها.. غير أن أبا غزوان مشى معي وظل يرافقني ونحن نمضي خائبين تحت أشجار المزرعة... حاول أنَ يعزّيني:

ـــ لاتزعل يا دكتور أحمد.

ـــ لكن ما يفعله هذا التافه حرام.. وحشية.. غدر.. كان بإمكانكم أن تسلكوا سلوكاً انسانياً فتذبحوا هذه الطيور بالسكين.. ماالمانع؟!

ـــ لاينفع.. فأصول لعبة التباهي في أوساط المجتمع المخملي أن تكون هذه الطيور قتيلة البارود.. وإلا فكيف يستطيع أن يؤكد بأنه اصطادها من الفلاة بقدرته الخارقة. لذلك فإنه سيعلّقها الآن من أرجلها بخيوط، ويزيّن بها مقدّمة سيارته، ليدخل العاصمة دخول الفاتحين، ويقول الناس: «انظروا ما أوفر حصيلة هذا الصياد الماهر». وعليه بعد ذلك أن يدخل مبنى «نادي العظماء» وهو في ثياب الصياد، والخدم يمشون خلفه في موكب استعراضي حاملين هذا الصيد الوفير، فتشهق الزوجات بشهقات الاعجاب، **مع أنهن يعرفن جيداً بأن الرجل أعجز من أن يصطاد عصفوراً، وإنما هو قد حصل على هذه الضحايا بنفس الطريقة التي يمارس فيها أزواجهن رجولتهم: بالمال**.. وإلا فلماذا أنشأ وزير الحرب مزرعة تربية الفري؟..

نودي على أبي غزوان فمدّ يده ليصافحني مودعاً، فاستوقفته قائلا:

ـــ مؤكّد أنك إنسان طيب يا أبا غزوان.. وقد تضحك إذا أخبرتك بأنني تصورتك في صورة رجل تفوح من كرشه رائحة طباخي رؤوس الغنم الزنخة.. غير أن ما رأيته أكد لي بأن الرجل الزنخ هو ذلك الديوث.. كيف تصادقه يا رجل؟.. بل كيف تخضع له ـــعدم المؤاخذةـــ خضوع الأجير؟

ـــ المصلحة يا دكتور.. أريد أن أعيش.. ظروف حياتنا صعبة وقاسية بشكل لايمكنك أن تتصوره أبداً.. إذن فعلينا أن نحني الرؤوس ريثما تمر العاصفة.. والمثل يقول: اليد التي لاتستطيع أن تعضها قبّلها وأنت تدعو عليها بالكسر..

ـــ كل هذه المبررات مرفوضة يا أبا غزوان.. كرامة الانسان أهم من المال..

وإن كان ارتباطك به لمصلحة تجارية أو مالية فبإمكانك أن تجد أي مصدر رزق آخر بعيداً عنه. وإن خفت الجوع فليخسأ الجوع. أنا مستعد لأن أرسل إليك راتباً شهرياً من ألمانيا.

ضحك أبو غزوان وسألني بروح ودية:

ــ هل ترسل إعانة شهرية لأخيك الحاج رضوان، مع أنه يعيل خمسة أيتام؟

ــ كلا.. إنه يرفض بعناد وإصرار.

ــ أرأيت إذن؟. إذا كان أخوك يرفض قبول الاعانة المالية منك.. فكيف تريدني أن أقبلها أنا الانسان الغريب؟

ــ إذن كيف تقبل إعانة هذا التافه الزنخ؟

ــ لمعلوماتك يا دكتور.. أنا لا أسعى للاستفادة من هذا الرجل مالياً فحسب، بل إنني ألجأ إليه ليحميني أيضاً.

ــ يحميك من ماذا؟

ــ من القتل.. من الخطف.. من الترويع.. كل مواطن هنا مهدد بروحه وماله وعرضه ما لم يكن محمياً من واحد منهم..

ــ وهذا التافه واحد منهم؟.. إن وضعه يوحي بأنه كلب من كلابهم التي تتوسل لهم بأن يسمحوا له بأن يلعق أحذيتهم.

ــ تشخيصك صحيح تماماً.. ولكن لاتنس أن قائد سرايا الفتوحات زوج أخته.. لقد ظل زهير بك سنتين وهو ينصب شباك الاغراء أمام ذلك الخنزير عارضاً أخته بأساليب أكثر عهراً مما رأيته على بنت وزير أوقافنا اليوم، حتى استطاع «الوصول».. وكان يوم زواج اخته من ذلك الخنزير ــ فوق ثماني زوجات اخريات ــ أعظم أيام حياته على الاطلاق.. لأنه اليوم الذي انفتحت فيه أمام زهير بك أبواب المجد والثروة.. **لاتستغرب يا دكتور.. فالدنيا عندنا مركّبة هكذا**

.. على الانسان أن يكون وغداً لينهش ويعلو.. والوغد الصغير يستعين بالوغد الأكبر.. وهكذا.. وإلا فلماذا تظن أن هذه البنت «مفاتن» ترافق زهير بك؟.. لأن موسم مناقصات تشييد أقواس النصر الكرتونية أصبح على الأبواب. فعيد الثورة قادم بعد أسابيع.

فقلت باستغراب يفضح مدى بلاهتي:

ــ ولكن أباها وزير.. فكيف يترك لها حبل الانهيار الأخلاقي هكذا.
قـال:
ــ لو لم يكن أبوها أشد منها عهراً ونذالة وحقارة لما قبل على نفسه أن يكون موظفاً برتبة وزير في عهد الخنازير.. أستودعك الله يا دكتور.. واسمح لي أن أقول لك بالعربي الفصيح: ربما كنت تفهم في الطب.. لكنك لاتفهم شيئاً في الحياة على الاطلاق.. لاتزعل مني.. السلام عليكم..
وتركني وانصرف.. وأنا جلست حيث أنا. وكانت الأصوات المزعجة قد هدأت.. ثم إنني سمعت صوت محرك السيارة. غير أن السيارة ظلت واقفة في مكانها.
جاءني خالد راكضاً ليقول وهو يلهث:
ــ قم يا عمي.. إنهم يتقاتلون.
ــ من ومن؟
ــ أبو مولانا وزوجته.
ــ دعهم يتقاتلون.. ناب كلب في جلد خنزير.. أما عرفت سبب الخلاف؟
قدم لي خالد بطاقة صغيرة وقال:
ــ السبب هو هذه البطاقة. فيها عنوان مكتب الزوجة ورقم هاتفها.. أعطتني البطاقة لأوصلها لك وكلفتني أن أسلم عليك. ولكن زوجها غضب كثيراً وشتمها مع أنها ليست عارية. وإنما هي مرتدية كل ثيابها.
ما ألطف براءتك الطفولية يا خالد؟!.. سألته:
ــ إذن ما دامت متسترة بثيابها فما هو سبب الخلاف؟
ــ سمعتهما، وهما يصرخان غاضبين، يذكران رجلا مريضاً يبدو أنه مهم جداً.. والزوجة تريد أن توصلك إلى ذلك الرجل الكبير المريض.. قالت إنك إذا شفيته فإنها ستستفيد كثيراً..
أخذت البطاقة من يده فمزقتها وأعدتها إليه:
ــ إرجع إليهم وارم هذا في وجوههم.. وقل لهم عمي يقول لكم: مع ألف سلامة..
ذهب خالد مسرعاً وهو شديد الحماسة لتأدية هذه المهمة. وبقيت جالساً أنظر إلى الأشجار والمساء..(**إذن فهذه الحقيرة تريد أن تستغلني بهذا الاسلوب**

البشع؟!)... ثم إنني سمعت صوت السيارة وهي تنطلق وتبتعد.. لاردّكم الله.. إنني أبصق على أمثالكم أيها الكذابون الأنذال الذين فقدتم كل صلة بالشرف والصدق والحس الأخلاقي.

ثم سألت نفسي: **مابالك يا أحمد لاتني تهدد بأن تبصق في وجوه الآخرين؟. أما كفتك تلك الورطة مع اسكندر الحفيان؟.. أين أعصابك يا رجل؟.. إن كنت تريد أن تعيش هنا فلتكن لك أعصاب من فولاذ.. تعلّم من أخيك كيف تكظم غيظك وتخنقه بعنف حتى تكاد عيناك تنفجران.**

كانت الشمس قد غابت تماماً، والنجوم بدأت تتلألأ في سماء العشية الرمادية المنعشة. وأنا قاعد أفكر ولا أعرف كيف أفكر أو بماذا أفكر.. إلى أن جاءني خالد مرة ثانية ليخبرني بأن الزاكي قد رجع.. ولكن وجهه، هذه المرة، مبلل بالدموع. قال:

ـ رجع الزاكي ومعه امرأة مقطوعة اليدين.

فنهضت كالملدوغ، وركضت مسرعاً إلى البيت.

○

الفصل التاسع

كان في البيت ــ بالفعل ــ امرأة مقطوعة اليدين.

وصلت وقلبي يخفق وجلا وقلقا ففوجئت بأن وجدت كل من في القاعة يقهقهون بالضحك وقد تحلّقوا حول هذه السيدة العجيبة التي ترتدي ملاءة سوداء ولا يظهر منها إلا وجهها ونهايتا يديها المقطوعتين عند الرسغين تقريبا. إن هذه الملاءة السوداء هي زي الخروج عند نساء مدينتنا. إذن فهذه السيدة العجيبة هي من مدينتنا. كما أن لهجتها الأنيسة إلى قلبي ذكرتني بصوت أمي وأختي وخالاتي.. ما الذي أوصلها إلى هنا؟. من هي؟. وماذا جاءت تفعل هنا في آخر الدنيا؟. وكيف عرفت الدرب؟.

كانت عيناي تنخطفان الى يديها اللتين بلا كفّين.

وعندما رآني أخي واقفا قال لها وهو ما يزال يضحك:

ــ أقدّم إليك أخي أحمد.

فقالت:

ــ أهلا وسهلا.. تشرّفنا بالدكتور أحمد.. تعال اضحك معنا على جحا. فهؤلاء الأطفال ضحكوا كثيرا عندما حكيت لهم بعض حكاياته.

ما أعجب أمر هذه المرأة المجهولة!. كيف عرفت أنني طبيب؟.. وما أشد ذكاءها وما أسرع بديهتها.. ويبدو أنها لمحت كل هذه التساؤلات على وجهي فبادرتني قائلة:

ــ أنت معروف ومشهور عندنا يا دكتور. وشباب المدينة كانوا يتحدثون عنك كثيرا بإعجاب واعتزاز. أنت من مفاخر مدينتنا.

قلت : اشكرك.

فقالت وهي تبتسم وترفع يدها التي بلا كف:

ــ لاتتسرّع بالشكر ياحكيم.. لأنني لم أنجز كلامي. فنحن لانعتز بك وحدك. لأنك لم تكن بيضة الديك. فأنت تعرف بأن ألمانيا وفرنسا وإنكلترا وبلاد السويد وكل بلاد أوروبا مليئة بالناجحين من أبناء مدينتنا الذين نبغوا في الطب والهندسة والذرّة وأدق علوم العصر. وبعضهم أوسع شهرة مَنك. فأنت لم تتجاوز شهرتك نطاق أوروبا، بينما الدكتور هشام بن الحاجّة نظيرة الله يرحمها، يأتون إليه من أمريكا الى ألمانيا ليأخذوه بطائرة خاصة الى أمريكا فينجز معجزة طبية ويرجع.. أليس هذا صحيحاً؟

أجبتها، وقد هدأت نفسي وانفرجت أساريري:

ــ نعم هذا صحيح. والدكتور هشام من أعز أصدقائي هو وأبناء وطننا الآخرون. نحن لم ننقطع عن بعضنا.

ــ حسنا تفعلون.

ــ لكنك يا سيدتي تعرفين عني أشياء كثيرة وأنا لا أعرف بعد حتى ما هو اسمك.

ابتسمت وقالت بروح مرحة:

ــ لن أذكر لكم اسمي.. دواعي الأمن التي ستعرفها في الوقت المناسب تفرض عليّ عدم ذكر اسمي الحقيقي. وأنا راضية بالاسم الذي أطلقه عليّ الناس بعد الاحداث: ذات اليدين المقطوعتين. على وزن: ذات النطاقين.

فقلت:

ــ لكن كيف نناديك؟ هل نناديك: يا ذات اليدين المقطوعتين؟. مستحيل.

ــ يمكنك أن تناديني باسمٍ حركي.. سعاد مثلا.. فأنا كلما لجأت الى بيت جديد أتخذ اسماً جديداً. عندكم هنا اسمي سعاد.

ثم استدركت على الفور:

ــ هذا إذا قبلتموني دخيلة عليكم.

فقلت لها فوراً وبتأكيد حاسم: **أنت هنا لست دخيلة علينا بل أنت هنا في أحداق عيوننا.. هذا بيتك يا سعاد وأنت أختنا وأنا شخصيا أتكفل بحمايتك ما**

حييت، والله على ما أقول شهيد.

فقال أخي بروح مشبعة بالغبطة والرضى:

ــ بارك الله بك يا دكتور أحمد.. وملائكة السماء ترضى عليك.. إنك حقاً ابن الحاج عبدالرحمن الفشاش.

كان أخي في قمة النشوة والسعادة. فها إن مخططه قد نجح نجاحا كاملا. لقد رسم لأن أرث عنه الحمل الثقيل (لأنه يريد أن يسافر بعيداً عن هذه الدنيا ــحسبما كان يخبرني في كل جلسة خلوة بيننا). وهو لم ولن يصارحني بذلك، فهذه عادته.. حتى في حال التعبير عن عواطفه فإنه لايستخدم لغة الكلام، بل يترك لرادار قلبك أن يستشعر اهتزازات موجة العاطفة التي يبثها قلبه. ولذلك فإنه لم يعانقني قط عند أي وداع لسفرٍ طويل، رغم أنني الحب الكبير والوحيد في حياته ــبعد أختنا خديجة رحمها اللهــ. وعندما وصلت اليه في هذه الزيارة بعد شوقٍ أمضّه وأمضّني خمس سنين فإنه لم يعانقني ولم يفصح عن عاطفة الشوق والفرح بكلمة واحدة. لأنه من المفترض بي ــحسب نظريتهــ أن أكون شاعراً بذلك من غير كلام. **إن العاشق الحقيقي، في اعتقاده، هو الذي لاينطق بأية كلمة حب. لأنه ما لم تكن عاطفة الغرام في قلبي العاشقين معا هائلة وصاعقة الى حد الاستغناء عن دور الكلام فان ذلك الغرام «فالصو»**. ولهذا كان أخي ضد كل اغنية غرامية ترد فيها كلمة «احبك». اذ ما دام الطرف الآخر بحاجة لأن يقال له ذلك بالعربي الفصيحــ ومع الحلف بأغلظ الأيمان أحياناًــ فهو إذن غير جدير بالغرام، لأنه ليس إنسانا بل بقرة. وعلى هذا الأساس فان الحاج رضوان كان يجلّ عاطفة الحب الصامت الذي في قلب القط شحادة حياله. وكان يقول لي: «انظر كيف ينام هذا القط في حضني نومة العاشقين بصمت يعبر عما يعجز الكلام أن يعبر عنه».

هذا في حالة التعبير عن العواطف.

أما في حالة التعبير عن الأفكار فالنظرية ذاتها قائمة. فالمفترض بك أن تكون لديك الأفكار التي لدى الشخص الاخر إذا كنت مطحونا مع هذا الشخص الآخر في طاحونة المحنة الواحدة. وهذا كان شأنه في مخططه المصيري الذي رسمه لنقل أمنا شفيقة والاطفال من فوق كتفيه الى فوق كتفيّ. فعلى الرغم من ضخامة هذه العملية فإنه لم يصارحني بها حتى ولو تلميحا. وإنما انتظرَ أن أبادر من نفسي بالاعلان عن

قبول ذلك المخطط الرهيب الذي لا أعرف عنه شيئا، والذي ربما قضى هو شهورا عديدة في التفكير به تفكيرا اقتضاه الكثير من السهر والتدخين والسكر أيضا.

وخلال هذه الأيام الخمسة التي انقضت من أسبوع الزيارة كنت أكتشف الفخاخ التي نصبها بمقتضى المخطط إياه. وكنت أعلن القبول والموافقة. غير أن استجاباته لمواقفي لم تكن مستقرة.. لم يكن يشعر بأنني جاد وحاسم. ذلك لأن قبولي بمخططه كان من باب الرضوخ أو الاذعان لمشيئته هو. أما الآن، عندما بعث القدر بهذه السيدة المتسكينة وحلت الضربة القاضية فإن تعهّدي بكفالتها كان اندفاعا ذاتيا متينا وأكيدا وجازما. والمدهش أن مجيء هذه السيدة لم يكن ضمن مخطط الحاج رضوان وإنما جاء من القدر.. من السماء.

كان الجميع فرحين بهذا الوعد الشجاع الذي قطعته على نفسي. وكان الأطفال أكثرنا سعادة بذلك، خصوصا سلوى التي وقفت بمواجهة هذه السيدة المدهشة وسألتها بصوتها اللطيف:

ــ هل صحيح أن اسمك سعاد؟

ــ الانسان حر في اختيار الاسم الذي يعجبه.. وأنا أخترت اسم سعاد.

ــ وماذا يعني سعاد؟

ــ سعاد يعني الشمس.. الشمس اسمها سعاد.

فقالت سلمى:

ــ أنا أحب الشمس.

فضمتها سعاد الى صدرها بيديها المقطوعتين وقبلتها بابتهاج وهي تقول:

ــ يا روحي عليك أنت يا حلوة يا قمّورة.. الليلة تنامين عندي.

والتفتت مباشرة الى الأطفال الآخرين وقالت:

ــ كلكم حلوين.. وكلكم أذكياء.. هذا واضح من عيونكم.. وبما أنني سأصير خالتكم إذن فمن حق كل واحد منكم أن ينام عندي ليلة.. بالدّور.

فسألوها فرحين:

ــ وهل تحكين لنا حكايات؟

ــ طمّنوا بالكم من هذه الناحية.. عندي حكايات لها أول وليس لها آخر.

وشرعت تحكي لهم حكاية أخرى عن جحا، فيضحك الأطفال. ثم يتصل الحديث بعد ذلك ويتقلب من موضوع مثير للفضول الى موضوع أشد إثارة للفضول. لكن السيدة سعاد كانت ــ بحكمة ولباقة ــ تعرف كيف تعرض من المعلومات ما يجوز أن يُطرح أمام الأطفال، وتخبىء الباقي منتظرة وقت ذهابهم للنوم.. لهذا فإنها، من بين كل نصوص الدعاء التي تحفظها، لم تعلم الاطفال الليلة إلا «**دعاء ما قبل النوم**»، وهو عمل ملأ قلب أمنا شفيقة سعادة وسرورا وحرّك لسانها بالاعتراف بأن هذه السيدة الرائعة ليست إنسانة عادية وإنما هي «**هدية أنزلها الله علينا من السماء**». فهي معلمة مدرسة، ومثقفة حقيقية، وتعرف كيف تعلم الأطفال ما كانوا محرومين من تعلمه. وهكذا فإننا بدلاً من أن نرجع الى المدينة رضوخا لحاجة الأطفال إلى مدرسة فإن المدرسة جاءت الينا لنظل مقيمين في هذه الجنة بعيدا عن الناس والمشاكل والهموم. فالحمد لله رب العالمين.. والأهم من كل هذا أن سعاد كانت تحدّث الاطفال بأسلوب مشوّق جدا جعلهم يتعلقون بها تعلقا شديدا.. ثم إنها فاجأتهم بهذا السؤال:

ــ من منكم صار يعرف دعاء ما قبل النوم؟

أجابوا بحماسة:

ــ الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا واوانا.

ــ ومتى نتلوا هذا الدعاء؟

ــ قبل النوم طبعا.

ــ إذن هيا بنا الى النوم ما دمنا قد تلونا الدعاء.

فذهب الأطفال الى الغرفة وقد نسوا أنهم لم يتناولوا طعام العشاء بعد. لذلك لحقت بهم أمنا شفيقة لتطعمهم في الغرفة. ولاحظتُ أنها أغلقت الباب خلفها، ولكنني واثق من أنها تعرف كيف تلتقط أهم ما في حديث سعاد الذي استمر بعد لنفهم منه أنها لم تنزل علينا من السماء وإنما جاءت الينا راكبة في سيارة الباص ــ إياها ــ التي تحركها صوت هدير طاحون النهر، والتي يقودها ذلك الواشي السمين المصاب بضيق التنفس. ولم تأت لوحدها وإنما جاء معها هذا الشيخ العجوز الذي لاحظتُ أن أخي يتحدث عنه بمنتهى الاحترام والاجلال ويسميه الشيخ عبدالقادر.

كان الشيخ عبدالقادر قد نام منذ أن اتكأ على الفراش الممدود فوق المصطبة، في أي ركن شئت من هذه القاعة. وكان من الواضح أنه عانى من يوم متعب جدا الى حد الانهاك. فهو شيخ قد تجاوز سن الثمانين، ورحلة اليوم ــوقد جرّبتها أنا قبلهماــ تطحن الزير سالم أبا ليلى المهلهل، فكيف بهذا الرجل العجوز الذي لايكاد يستطيع الكلام لشدة ضعفه ووهنه؟.

قالت لي سعاد:

ــ حين تعود الى ألمانيا، بالسلامة إن شاء الله، وتقابل الدكتور هشام فإنه سيفرح كثيرا اذا أخبرته بأنك رأيت جدّه.

وأشارت الى الرجل العجوز النائم.. ثم تابعَتْ:

ــ الدكتور هشام يحب جده الى درجة تفوق أي تصور. وهو محق في ذلك. فهذا الرجل العجوز ــلاتغرّك شيخوختهــ من أشجع الرجال.. يكفيه أنه الوحيد الذي تطوّع لتهريبي في هذه المغامرة الطويلة الصعبة.. أنت تعرف بأنك في كل ربع ساعة تصطدم بحاجزٍ مخيف في الطريق ويقولون لك: (**هات هويتك**) وترتجف القلوب رعبا من فتنةٍ غير متوقعة.. قلت له: (**ياجدي إنك تغامر بحياتك.. فهم إن لقطونا لن يقتلوني قبل أن يقتلوك أمامي لزيادة التنكيل بي**)، فكان يقول: (**وهذا ما تشتهيه نفسي يا ابنتي.. فما أجمل أن أكسب نعمة الشهادة بعد سن الثالثة والثمانين!. لاتخافي.. فهذا العجوز الشائب قادر على أن يحميك ويوصلك سالمة الى مزرعة الحاج رضوان الفشّاش بعون الله.. ثم إنني أريد أن أسألك: ماذا بقي لي في هذه الدنيا حتى أخاف عليه؟ أنت تعرفين أنه لم يبق من عائلتنا أحد ولو كان هشام هنا لولى**). ومشى معي طول الطريق بهمّةٍ وبأعصاب متينة. ولم يدركه التعب الا عندما نزلنا من ذلك الباص المزعج وسرنا على أقدامنا باتجاه المزرعة. صارت خطواته بطيئة ثقيلة. وضغط على نفسه كثيرا حتى لا يتوكأ عليّ. الى أن وصلنا الى تلك التلة التي تلقانا فيها هذا الشاب الشهم وكلبه المدهش.

وأشارت الى الزاكي الذي كان واقفاً يصغي لحديث سعادِ بفضول وشغف.. غير أنه تراجع ليهرب عندما سمع قولها:

ــ لاتؤاخذوني.. أنا إنسانة فضولية وأحب أن أعرف كل شيء.. هل يمكنكم أن تخبروني لماذا يظل الزاكي ملثّما هكذا؟.

نظر الحاج رضوان الى الزاكي وهو يبتسم قائلا:
ــ إنه لايريد أن يكتشف الناس بأنه بلا فم.
فضربت سعاد بيدها على صدرها استغرابا وسألت:
ــ اذن فكيف يعيش؟.. بلا يدين يمكن للانسان أن يعيش.. أما بلا فم؟؟
فقال الزاكي من تحت لثامه:
ــ لاتصدّقيهم يا سيدتي.. هذا عمّي يحب أن يمزح.
قلت له: إذن فأنت لم تتركنا هربا من تلك المرأة.. خبّرني يا زاكي: هل لمحت سعاد والشيخ فوق تلك التلة بينما نحن لاهون عابثون؟
قـال:
ــ أتريد الصدق؟.. قطاش لمحهما قبلي.. لاحظت أنه ثبّت عينيه على تلك الناحية بارتياب فحدّقت النظر فرأيت شبحين منَ بعيد، فأمرت (قطاش) بأن يلزم الصمت ويمشي معي. وذهبنا الى هناك فوجدنا هذه السيدة وهذا الشيخ. وحين عرفت أنهما ضيفان علينا نصحتهما بالمكوث هناك بعيدا عن الانظار الى أن يذهب ركاب السيارة. فقد علمت من هذه السيدة انها لاتريد أن يعلم أحد بقدومها وأنا ماذا يدريني إن كان ركاب السيارة جواسيس؟. لذلك بقيت معهما الى أن خلا الجو.
ضحك أخي وقال:
ــ أحسنت صنعا يا زاكي.. ولكنك نسيت أن سائق الباص لن يغمض له جفن قبل أن يخبر وسّاف بوجقل بأنه جلب إلينا امرأة مقطوعة اليدين.
فقالت سعاد:
ــ أنا لم أكشف عن يديّ من تحت الملاءة أبدا طول الطريق.. فضيحة.
فقال أخي: على كل حال توقعوا مجيء هذا الوساف اللعين بين لحظة وأخرى.
فأيدت سعاد صواب هذا التحسّب، وأخبرتنا بأن ذلك السائق السنمين لايحبنا وأنه يسمّي مزرعتنا باسم: طاحون الشياطين.
قلت: رغم ذلك فإن (وساف) لن يأتي هذه المرة.. أنا متأكد من ذلك.
فالتفت أخي إليّ ساخرا: أوَتعتمد على حماية صاحبك جعفر الضاوي؟.. لاتغلط يا أحمد.. فربما نخبرهم بأننا من أزلام جعفر الضاوي يكونون قد قتلونا جميعا.

فقالت سعاد: بل ربما قتلوكم إذا عرفوا أنكم من جماعة هذا الرجل الخطير الذي يجلس في الاعالي بين المتصلين مباشرة بالطاغية الأكبر.. ألم تسمعوا بما حدث في محلجة القطن؟.. (بدأت تخصني بالحديث وحدي) **فعندما اعتقلوا كل من وصلت اليه أيديهم من رجال المدينة وشبانها لم تعد تتسع المدارس، فأخذوا حوالي تسعين رجلاً بالشاحنات العسكرية الى محلجة القطن على الدرب القبلي، ورموا بهم هناك في مستودع رطب بارد ليس فيه الا الجدران الاسمنت والسقف الاسمنت والارض الاسمنت، والدنيا شتاء ومطر وبرد. وتركوهم هناك يموتوا من البرد. ثم جاء اليهم ضابط كبير كتفاه مليئتان بالنجوم والنسور الذهبية، جاء ومعه رجال حاشيته المسلحون المتحفزون لسماع أمره بإعدام هؤلاء الناس والتخلص منهم. غير أنه فوجىء بهؤلاء الضحايا المساكين يهتفون باسمه: (يعيش البطل ضرغام الخضّور.. يعيش البطل ضرغام الخضّور) فانفرجت أساريره وأمر رجال حاشيته بأن يجلبوا لهم طعاما وبطانيات.. وانصرف.. وسرعان ماجيء لهم بطعام وبطانيات. غير أن..**

فقاطعتها: من هو هذا الضرغام الخضّور؟

ــ هل صحيح أنك لاتعرف من هو ضرغام الخضور؟ إذن ماذا تعرف؟

ــ أعرف أن القوات العسكرية التي ذبحت مدينتنا هي سرايا الفتوحات التي بقيادة شقيق الطاغية الأكبر شخصيا.

ــ هذا صحيح.. ولكن هناك قوات عسكرية أخرى، اسمها (كتائب الصمود) كانت تعاون سرايا الفتوحات بل تتنافس معها في أعمال الفتك والقتل والتدمير، وهذه كانت بقيادة الخضور.

فقلت: إذن كم كانت المذبحة وحشية ورهيبة؟

فنصحني أخي بأن أحتفظ بتساؤلاتي الى ما بعد سماع بقية القصة، ورجا الضيفة أن تكمل حديثها.. قالت:

ــ بعد قليل جاء ضابط صغير ومعه فرقة موت وسأل المساجين المساكين غاضبا: (أأنتم الذين قلتم عن ضرغام الخضور إنه بطل؟ إن كان بطلا حقا فليأت لانقاذكم). والتفت الى رجاله آمراً: (رشّوهم) فرشّوهم.. وسقط الجميع شهداء، رحمة الله عليهم. راحوا ضحية الاعتقاد بأن أفراد العصابة الذين فوق هم جهة واحدة..

التفت أخي الى الزاكي وقال له:

ــ بدلا من أن نضيع الوقت بهذه الأحاديث التي لاتنتهي قم فجهّز المخبأ. رتّب الأوضاع فيه لشخصين اثنين. فربما اضطرت سعاد والشيخ عبدالقادر للمبيت فيه طول الليل.

وقال لسعاد:

ــ اطمئني تماما. عفاريت الجن لن تعرف مكانكما.

وكانت أمنا شفيقة قد رجعت إلينا بعد أن نام الأطفال. ولكنها ظلت واقفة. وتلك حالها عندما تكون مضطربة قلقة.. لذلك فإنها سألت سعاد:

ــ آأنت متأكدة من أنهم يبحثون عنك؟

قالت سعاد:

ــ حان الأوان لأن تعرفوا كل شيء فأنا ملاحقة منذ خمسة أشهر لأنني ارتكبت إثماً عظيماً جداً.. ماذا فعلت؟.. كل ما فعلته أنني سرّبت الى منظمة العفو الدولية رسالة شرحت فيها قصتي بالتفصيل.. فعندما حدثت المذبحة الوحشية جاءوا فقرعوا علينا الباب صارخين: (**فليخرج الرجال الى الشارع**).. زوجي رحمه الله كان سائق شاحنة، عمره ما حمل سلاحا ولا تدخّل في السياسة، حين سمع الأوامر أطاع، قام وفتح الباب وخرج اليهم. سألوه (**أما عندك أولاد؟**). قال: (**عندي ولد واحد.. عبدالمجيد .. طالب بكالوريا**). كنت أضم عبدالمجيد الى صدري بقوة، ولكنهم نادوا على عبدالمجيد فخرج اليهم وهو في بيجامة النوم.. لحظة خاطفة مثل البرق وأطلقوا الرصاص وكوّموا عبدالمجيد وأبا عبدالمجيد جثتين أمام الباب، فخرجتُ مسرعة وأنا أبكي وأصرخ بغضب: (**ماذا فعلم؟؟.. ألا تخافون الله؟؟..**). ويبدو أنهم لاحظوا أن يديّ مليئتان بأساور الذهب. فقد كان أبو عبدالمجيد رحمه الله يصر دائماً على أن لاأصرف قرشا واحدا على مصاريف البيت، فهي مصاريف يريد أن يتكفل بها لوحده، لذلك كان يشجعني على أن أجمّد قيمة رواتبي بمصوغات ذهبية (**من كان يتوقع أن يأتينا ذلك اليوم الأسود؟**).. لم يستطيعوا سحب الأساور من يديّ. وكانوا مستعجلين. فقطعوا يديّ بالفأس وأنا أصرخ وأتوسل وأستغيث. ثم مضوا فرحين بغنيمتهم النجسة وتركوني والدماء تنفر بغزارة من كلتا يديّ.

إنه لمن المذهل حقا أن سعاد كانت تروي هذه الوقائع بهدوء ورصانة، كأنها

تحكي حكاية قرأتها في جريدة مترجمة عن سيدة في اليابان.. هممت بأن أسألها: (**كيف استطعت أن تصيري هكذا؟. من أين جاءتك كل هذه الشجاعة في ما لمسناه من سلوكك حتى الآن؟**). ولكنني لاحظت أن الجميع مطرقون صامتون فأطرقت صامتا. غير أن الاسئلة كانت مثل البراكين داخل هذا الرأس الذي ما عاد يطيق التفكير: أيُعقل أن تبلغ الهمجية بأولئك القتلة هذا الحد المروع من الدناءة والوحشية وتفحّم الضمير؟.. وماذا تم بشأنهم بعد ذلك؟.. هل عوقبوا أم كوفئوا؟.. أم أن رئيسهم المباشر قتلهم غيلة بدوره أيضا ليقدّم تلك الغنيمة النجسة الى سيده قائد سرايا الفتوحات أو قائد كتائب الصمود.. وماذا تقول يا دكتور أحمد لو أن بعضا من هذه الأساور هي التي تتزين بها «مفاتن»؟.

سألت هذه السيدة المنكوبة:

ــ هل إن اسمك محفور على تلك الأساور؟. (نسيت أنني لاأعرف أسمها أصلا؟).

فسألتني بدورها:

ــ ماذا تقصد من هذا السؤال؟

قلت، متراجعا عن فكرتي الجنونية:

ــ لا شيء..

جاء الزاكي ليخبرنا بأن المخبأ صار جاهزا.. فيه فراش وماء ومصباح أيضا.

غير أننا لم نسمع هذا الخبر تقريبا، لأن الأذهان كانت مأخوذة الى مأساة هذه المرأة الباسلة التي مالبث أن تلقت هذا السؤال من أمنا شفيقة:

ــ ياست سعاد. نفهم من كلامك أنك أنت التي يجب أن تلاحقيهم لا العكس.. فأنت المجني عليها وهم المرتكبون.. فماذا حدث بعد ذلك؟.. لماذا يلاحقونك؟.

قالت سعاد:

ــ منظمة العفو الدولية أرسلت الى حكومتنا الرشيدة مذكرة تعرض فيها مأساتي وتسأل: (**هل إن ما ورد فيها صحيح؟**).. طبعا سيكون الرد: (**ابدا. هذا غير صحيح، بدليل أنه لايوجد في بلادنا السعيدة كلها امرأة مقطوعة اليدين**).. ولذلك فإن كل الأجهزة السرية تبحث عني لاخفائي من الوجود.. وها إنني منذ

خمسة أشهر أهرب من بيت الى بيت حتى لجأت اليكم.

سكتت هنيهة ثم قالت:

ــ أنا جائعة. ألا عشاء عندكم؟

وسرعان ما وُضع طبق القش على الأرض أمام أخي الجالس على طراحته المعهودة.. وها هو قد بدأ يميل الآن على جنبه الأيمن فيتكيء على وسائده بارتياح واضح، ثم ينظر إليّ بعينين تقولان جهرا: (**اشكرك يا أحمد**). لكنه لم ولن ينطق بذلك..

وجيء بالطعام، فقامت سعاد ومشت الى الشيخ النائم وأيقظته:

ــ قم يا شيخ عبدالقادر.. تعال الى العشاء.

فقال بصوت واهن:

ــ دعيني نائما.. أنا تعبان.

فألحّت عليه:

ــ بل يجب أن تقوم.. فأنت لم تأكل لقمة منذ الصباح. ولو أخبرتك من سيتعشى معك الآن لنهضت نشيطا مثل الحصان.. معنا أحد رفاق الدكتور هشام في ألمانيا.

فهبّ الرجل المسكين وهو يتلفت إلينا غير مصدّق. فقال له أخي:

ــ تعال يا شيخنا.. هذا أخي الدكتور أحمد وأنت تعرف أنه، مثل حفيدك، طبيب في ألمانيا.

جاء الشيخ الجليل وعانقني وقبلني: (دعني أشم فيك رائحة هشام). ثم جلس الى جانبي ليأكل وهو يقول بحماسة:

ــ حدّثني كل شيء عن هشام.. حدّثني عنه حتى الصباح.

غير أنه لم يأكل. وإنما كان يلقم هذه السيدة الرائعة مقطوعة اليدين. كان من المستحيل عليها أن تأكل وهي بلا يدين. فكان الشيخ الجليل يجهّز اللقمة ثم يضعها في فم السيدة. وكان الحاج رضوان قد اعتذر عن المشاركة في الأكل لأنه شبعان، بينما أمنا شفيقة واقفة تبكي بصمت، والزاكي جالس هناك في ركن القاعة أمام صحن طعامه ولكن فكيه لايتحركان. أما أنا فقد اشتهيت أن تنشق الأرض وتبلعني. (**اين النخوة في رؤوس الرجال الذين تركوا نساءنا يصلن الى هذا المصير المروع؟**).

الشخص الوحيد الذي ظل متشبثا بشجاعته بيننا، في هذا الموقف الرهيب، هو: سعاد التي غصبت وجهها على أن يرسم ابتسامة وهي تسألنا:

ـــ مالكم لاتأكلون؟. هل هذه أول مرة ترون فيها إنسانة مقطوعة اليدين؟.

بقينا صامتين.. الا الزاكي، فقد تخلى عن عزلته وجاء الينا وهو ينشج بالبكاء قائلا:

ـــ عمي أرجوك.. هل تسمح لي بأن أتولى أنا تلقيم هذه الخالة؟

ففوجيء الزاكي بسعاد تقول له:

ـــ لاتبك يا مسخوط.. فقد ولى زمن البكاء.. انظر إليَّ أنا. مالك تظل واقفا هكذا؟.. تعال وأطعمني بيديك فنحن نكمّل بعضنا.. أنا بلا يدين وأنت بلا فم.

فجلس الزاكي الى جانبها وهو ما يزال مضطربا.. فقالت له:

ـــ وأنصحك بأن لاتقول عني (خالة).. لأن الزواج من الخالة حرام. ومَن الذي يعلم الغيب؟.. فربما تزوجنا..

فانفجر الجميع ضاحكين، ومُسحت الدموع وأقبلت النفوس على الطعام بشهية مفتوحة.. غير أن القلوب، في أعماقها، ظلت قلقة متوجّسة.. متى يداهمنا وسّاف بوجقل؟. وهل إن هذا الأرعن هو الخطر الوحيد؟. إن قلبي يود لو يتهرب من هذه المخاوف الغامضة التي تتعاوره من كل جانب. ويبدو أن سعاداً لاحظت ذلك عليّ (لأن الآخرين صاروا خبراء مهرة في عملية الكظم) فسألتني مبتسمة:

ـــ لاسهم ولا تغم يا دكتور.. مالك؟.

أجبتها:

ـــ لا أعرف. ولكنني أحس بأن إبليس مقرفص لنا الليلة.

فضحكت سعاد وهي تقول:

ـــ حلوة قرفصة ابليس هذه.. إنك لم تنس التعابير المحلية.

ـــ الصدق أنه تعبير من ابتكار آمنا شفيقة ولم أسمعه من غيرها.

ونبح الكلب (قطاش) فقال أخي وهو ينظر من النافذة:

ـــ اذكر الذيب وهيّء له القضيب.. ذكرنا ابليس اللعين فجاء اليكم ولكنه ليس مقرفصا بل هو راكب سيارة.

حدّق الزاكي ببصره الى مصباحي السيارة المقبلة وسط ظلام الليل وقال:
هذا صوت سيارة وساف بوجقل.
فأصدر أخي أمره:
ـــ الى المخبأ بسرعة.. السيدة والشيخ يجب أن يختفيا تحت سابع أرض.

الفصـل العاشـر

مرّت تلك الأزمة بسلام.

فقد توقفت السيارة عند سياج الزيزفون، وسمعنا صوتا غليظا ينادي من هناك: «أين أنتم يا هذا الربع؟». فانفرجت أسارير أخي وقال بارتياح:

ـ هذا صاحبنا أبو شعلان الرجّ. فلنذهب إليه نحن لأنه لاهمّة لديه لأن يأتي هو إلينا.

ونهض وهو يقول لي:

ـ قم معي يا أحمد.. هات المصباح وتعال.

ـ ضروري؟!

ـ إن شئت أن تبقى فابق. ولكنك ستخسر خسارة كبرى. لأنك ـ ماحييت ـ لن تتعثر بمخلوق أطرف من هذا «الرج». تصوّر برميلا حقيقيا وصدئاً أيضاً، وهو محشو بكميات هائلة من الغباء والترهّل والادعاء، ولهذا البرميل يدان تشبهان مخاطين، وعلى كمّ إحدى اليدين أرسم شريطتين على شكل ثمانيتين فوق بعضهما لتمييز رتبته العسكرية الرفيعة، فهو شرطي عتيق. ثم ضع فوق البرميل كرةً مكان الرأس، واجعل فيها حفرة مفتوحة دائماً لتدلق فيها أي نوع من الخمور الرديئة تصل إليه اليد. ذلك هو أبو شعلان الرج رئيس مخفر المبعوجة الذي لاتتوقف يده عن فتل شاربيه الضخمتين باعتزاز وهو يقول متباهياً: «أنا مطوّع البادية»..

ثمّ ابتسم الحاج رضوان وأضاف:

ـ تصور أن مطوّع البادية الهمام لاهمة لديه لأن ينزل من سيارته فيمشي مائة خطوة إلينا.

كان الزاكي قد وصل إلى ذلك الرجل قبلنا، ومعه «قطاش». وحين وصلنا اليهما، ومعنا المصباح، اكتشفت أن من أهم أسباب برود همة السيد الرج أنه محشور حشرا بين مسند ظهر الكرسي من خلفه وبين إطار مقود السيارة المضغوط في كرشه. كما اكتشفت أن أخي حين وصفه لي نسي ــأو تعمّدــ أن يتحدث عن رائحته.. أعوذ بالله.. من المؤكد أنه لم يغتسل منذ بداية الصيف، لا هو ولا ثيابه. فقد كانت رائحة عرقه المتيبسة على ثيابه، طبقات طبقات، «تفوح» بخميم كريه لايطاق.

وقد جرى الحوار على النحو التالي:

الرج: انهى الموضوع يا حاج رضوان.. **(يتجشأ)** فقد عرفت الحقيقة من الزاكي. تصبحون على خير. **(يضع يده على المفتاح ليشغّل محرّك السيارة ويذهب).**

أخي: **(يستوقفه)** أية حقيقة يا أبا شعلان؟.. انتظر رجاءً.. دعنا نفهم ما يجري.

الرج: جئت لغرضٍ واحد وهو أن أعرف: هل جاءكم اليوم رجل عجوز جدا ومعه امرأة ترتدي ملاءة سوداء؟. فأكد لي الزاكي **(يتجشأ)** أنه لم ير رجلا عجوزا جداً ولا امرأة ترتدي ملاءة بيضاء أو سوداء.. **(يفتل شاربيه الضخمتين)** طبعاً لاداعي لأن أنزل وأفتش المزرعة لاتأكد بنفسي من صحة الأمر، لأنه لا الزاكي ولا أبوه ولا جده يجرؤ على أن يكذب عليَّ.. أنا مطوِّع البادية كلها.. **(يهمّ بأن يذهب)**

أخي: **(يضع يده على مقود السيارة)** على كل حال أرجو أن تقبل شفاعتي بهذا المسكين سائق الباص فلا تؤذه لأنه نقل إليكم هذه الوشاية الكاذبة.

الرج: ما أطيب قلبك يا حاج رضوان!. صحيح أنك على باب الله.. فها أنت تحاول أن تستدر عطفي على ذلك الرجل الفسّاد مع أنه ما جاءنا مرة الا ورماك بوشاية تقتل جملًا. مع أن الملازم وساف لايدفع له فلسا واحدا على أي من تقاريره اليومية الالزامية، وهو على كل حال يظل أقل لؤماً من ذلك الرجل الذي جاءنا قبل ثلاثة أيام ليرميكم بتهمة كافية لأن تبيد عشيرة بكاملها.

أخي: (**بقلق حقيقي**) أعوذ بالله. من هو ذلك الرجل؟
الرج: لاأعرفه.. لكنه يركب دراجة نارية. قال إنكم تشتمون الرئيس وتبصقون على صورته (**يتجشأ**).
أخي: أستغفر الله.. من أين جاءتنا هذه المصيبة؟.. الله شهيد بأننا أبرياء من هذه التهمة يا أبا شعلان.
الرج: أنا لا أعرف شيئاً.. صحيح أنني مطوع كل هذه البادية التي تراها عينك، ولكنني لا أتدخل بمثل هذه الأمور، فهي من اختصاص الملازم وساف.
أخي: وماذا فعل الملازم وساف؟
الرج: سجّل ذلك في دفتره. ولكنه قال للرجل: «إذهب الى من هم أعلى منا حتى يحققوا في شكواك».. آنذاك أدركت أن ما أخبرني به العساكر صحيح.
أخي: وماذا أخبرك العساكر؟
الرج: قالوا إن الملازم وساف يخاف منكم.. مؤكد أنه يخاف منكم. بدليل أنه الليلة تذرع بعشرين حجة حتى لايأتي بنفسه فيحقق في قصة العجوز والمرأة. مع أن ذلك من اختصاصه. أما أنا فاختصاصي الجرائم الثقيلة: قتل.. اعتداء.. نهب هتك أعراض. (**يفتل شاربيه**) أنا مطوّع البادية.
أخي: إنني أستغرب ما أسمعه الآن يا أبا شعلان. فنحن نحب حضرة الملازم ونحترمه مثلما نحبكم ونحترمكم جميعاً، فأنتم ــ يارجال الأمن ــ تضحون بأرواحكم في سبيل حماية أرواحنا..
الرج: غير أنه صار يخافكم ويحذركم منذ أن عرف أنكم من جماعة جعفر الضاوي.
أخي: (**مستنكراً باستغراب**) نحن من جماعة جعفر الضاوي؟. يشهد الله بأنني عمري مارأيت هذا الرجل أو تبادلت معه كلمة واحدة.
الرج: إذن فهذه المزرعة ملك من؟.. يا ويلنا نحن إذا ثبت أنها مزرعة جعفر الضاوي وأنتم وكلاؤه، وياويلكم أنتم إذا ثبت العكس.. آنذاك تكون هذه المزرعة فعلاً مزرعة الشيطان كما يسميها سائق الباص.
أخي: إذن هكذا يتصور حضرة الملازم؟
الرج: نعم.. ولذلك فإنه نزل الى العاصمة ليتأكد من حقيقة الأمر بنفسه..

ويبدو لي أن جماعته، في العاصمة، نصحوه بالتمهل والصبر ريثما يرجع الضاوي من السفر.

أنـا: وهل السيد جعفر الضاوي مسافر؟

الرج: (**همساً**) الكلام بيننا.. فالملازم وساف خصّني شخصيا بهذا النبأ السري الخطير.. جعفر الضاوي مسافر إلى ألمانيا ليجلب طبيبا معينا قالوا إنه يستطيع شفاء الرئيس الذي... (**ينتبه**) ولكن مالنا نحن ولهذه الأمور؟. فلنرجع إلى مخفر المبعوجة بسلام.. تصبحون على خير. (**يشغل محرّك السيارة**).

أخي: انتظر لحظة يا أبا شعلان.. (**للزاكي**) اذهب بسرعة وهات لأبي شعلان خمسة أرانب.. (**للرج**) أنت تحب الأرانب.. أم تفضل صندوق بيض؟

الرج: (**مضطرباً**) لا ياصاحبي.. كان الله بيني وبين أي شيء يتعلق بهذه المزرعة المخيفة..

وانطلق بسيارته مبتعدا.. فنبح «قطاش» خلفه.

ها إن الأمور تتطور بخط تصاعدي مخيف.. فما العمل؟

استدرت لأعود إلى البيت فأنام، بعد هذا اليوم العاصف، لكنني توقفت إذ رأيت أخي يجلس على حافة رحى الطاحون التي تشبه مصطبة دائرية كبيرة.. سألته:

ــ ألا تريد أن نعود إلى البيت؟

ــ تعال واجلس معي هنا.. أريد أن أتحادث معك كلمتين.

والتفت الى الزاكي:

ــ خذ المصباح معك. فنحن نريد أن نسهر لوحدنا على ضوء القمر.. وارجع الى أمك فساعدها في إخراج الشيخ والسيدة من المخبأ.. ناموا ولا تنتظرونا.

انسحب الزاكي صامتاً، على عادته، وبقيت وأخي جالسين على رحى الطاحون، المزرعة خلفنا والسماء والبادية أمامنا. كان القمر هلالا نحيلا، غير أن نوره اللطيف منسجم مع هذا الهدوء والسكينة والصفاء الذي يشمل الكون كله.

قال أخي:

ــ نحن ظلمناك يا أحمد.. فالانسان، بعد غيبة طويلة، يزور أهله ليستريح ويفرح ويتذكر أيام الطفولة والصبا وينعش نبض الحياة في عواطفه.. ونحن ماذا قدمنا لك في هذه الزيارة؟.. لاشيء غير الهم والغم والمشاكل.

بقيت صامتا. لأنني إذا أردت أن أتكلم فماذا أقول؟
سألت نفسي: ما أجمل الليالي المقمرة في هذه البادية!..
ثم سألت نفسي: أليس عجيباً أننى الآن، بعد هذا اليوم المليء بالمتاعب والمشاكل، أشعر بأنني مستريح تماما، وأن الأفكار التي في رأسي صارت واضحة ومحددة ومستقرة. صحيح أننا جالسان في عتمة الليل وحيدين في هذه البادية اللانهائية، غير أن أفكاري واضحة وقلبي مطمئن. وكان قطاس ما يزال واقفاً أمامنا وهو في حالة التنبه واليقظة. كان واقفاً خلف سيارتنا «هيئة الامم» المستقرة أمامنا مثل صندوق أسود كبير.
فاجأني أخي بهذا السؤال:
ــ ماذا قررت أن تفعل؟
أجبته:
ــ هذا موضوع لايحتمل نقاشاً. فالطبيب ملزم انسانياً بأن يعالج أي مريض حتى لو كان عدوه. وإن جاء جعفر الضاوي ليأخذني لمعالجة الرئيس فإنني سأذهب معه.
فقهقه أخي ضاحكاً وقال:
ــ الطبل في الشرق والعرس في الغرب.. أنا يا أحمد حين سألتك: «ماذا قررت أن تفعل؟» لم أوجه سؤالي إلى أحمد الطبيب، بل إلى أحمد الانسان الذي...

توقف عن الكلام ثم مالبث أن قال كمن يحدث نفسه:
ــ فلنترك هذا الموضوع إلى حينه.. فالظاهر أنه لم يستكمل نضجه بعد.. قم بنا لننام. فأنا أمامي أعمال شاقة غداً. سيأتي أبو غزوان تاجر اللواجن مع شاحنة ضخمة، وعليَّ أن أملأها بصناديق البيض وأقفاص الأرانب والفري. وقد نبيعه نصف الأسماك أيضاً.
ــ إذن يجب أن أنام لأنهض في الغد نشيطا وأساعدك في هذه الأعمال.
ــ لا .. أنت والزاكي تسافران في الغد إلى العاصمة. من حقك أن تعيش يوماً أو يومين في أجواء الرفاهية المريحة. وتأخذان معكما الشيخ عبدالقادر لأنه من الأفضل أن لايراه أبو غزوان أو غيره هنا.

وعندما رجعنا إلى البيت سمعته يتمتم: «**وما تشاءون إلا أن يشاء الله**».. ثم تمدد على طراحته المعهودة، وأرخى رأسه على وسائده وهو يقول: «**فوضت أمري الى الله.. نعم المولى ونعم النصير**».. ثم أغمض عينيه ونام.

وأنا أغمضت عيني لأنام. ولكن ذهني كان في أشد حالات التنبه واليقظة، والأفكار المؤرقة تتزاحم ليخرج كل منها فينفرد في ساحة الاهتمام. لماذا قرر أخي فجأة أن يبعدني عن المزرعة؟ هل إنه شعر بدنو ساعة الحريق؟..

بقيت أتقلب على نيران الأرق زمناً.. إلى أن سمعت أخي يقول وهو مغمض العينين:

— **إرم كل شيء خلف ظهرك ونم.. وغداً يخلق الله ما لا تعلم.**

وهكذا كان.

الفصل الحادي عشر

قل: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور.

هكذا أمرتني الطفلة الحلوة سلوى أول ما فتحت عيني على ضياء شمس الضحى المبهر. كانت واقفة فوق رأسي تنتظر أن أفيق لتعلمني دعاء ما بعد النوم. وكانت تبتسم بوجهها الصبوح الجميل.

قلت مطيعا: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور.

فسألتني: ماذا يعني النشور؟

اعترفت: لا أدري.

فضحكت سلوى ثم أكدت: «**خالتي سعاد تعرف.. إنها تعرف كل شيء.. تعال إلينا في الشرفة إذا كنت تريد أن تتعلم**». وذهبت مسرعة الى الشرفة التي حوّلتها سعاد إلى مدرسة في الهواء الطلق.

كانت القاعة، حيث أنام، مشرعة الباب والنافذتين على نور شمس الضحى الساطع.. وكل شيء في القاعة نظيف ومرتب وأنيس. والدنيا حلوة ومبهجة. وسلوى حلوة ومبهجة. وكذلك الأطفال الآخرون الذين أسمع أصواتهم الناعمة وهي تناغش معلمتهم الخالة سعاد. سعاد أيضا إنسانة رائعة.. ما أجمل أن تفتح عينيك على الدنيا فترى كل شيء صبوحا، ودودا، نقيا، طاهرا، بهيا، أنيسا، «لماذا لاأبقى فأعيش هنا، في هذه المزرعة الجميلة، بعيداً عن العالم كلّه.. أليست هذه هي الجنة؟».

نهضت منتشياً بمشاعر التفاؤل. غسلت وجهي ثم خرجت إلى الشرفة. كان الأولاد متحلقين حول سعاد.

ـــ صباح الخير يا سعاد.
ـــ صباح الخير يا أخي.

«**أخي؟!**» ما أجمل أن أسمع هذه الكلمة منك أيها السيدة الباسلة!! كانت ظلال أوراق كرمة العنب تغمرها هي والأولاد بهالة من لون أخضر ناعم وشفاف، تتخلله بقع ذهبية من ضوء الشمس. كانوا سعداء ببعضهم. لقد وجدوا بعضهم. واللون الأخضر، لون النماء والخير والاستبشار يمتد ليشمل المزرعة كلها. وها إنني أرى الأشجار المصطفة وكأنها صفوف راقصين في مهرجان عيد الربيع، وها إن ألواح البرسيم الأخضر تمايل مزهوة بنضرتها ولمعان الحياة البضة في سوقها وأوراقها، وهي تمايل بتأثير نسائم منعشة كانت كافية لأن تجعل مروحة المضخة، في أعلى البرج، تدور ببطء وكأنها تلعب. وها إن لصريرها أثر الموسيقى العذبة في النفس المرتاحة. أما الكورس الغنائي فتجده حول حوض السمك حيث أفراخ البط والأوز التي تكاد ترقص وهي تلاحق بعضها بمرح وترف بأجنحتها من غير طيران. قلت لنفسي: «هذه المزرعة جنة.. سأعيش هنا مع أخي ومع الجميع». غير أن ضربة الفأس الحاسمة التي تقطع حبل المصير في مثل هذا القرار الخطير تتطلب شجاعة. آنذاك وجدت نفسي ألتفت إلى سعاد والأولاد. قلت لها:

ـــ في الليل سألتك «**من أين لكِ هذه الشجاعة؟**» فتهربت من الجواب.

قالت: أنا مستعدة للجواب الآن. غير أن الزاكي ـــ المسكين ـــ يعمل وحده في قاعة الأرانب، ويتعب، وعلينا أن نساعده.

ثم فاجأت الأولاد بهذا السؤال:

ـــ أنتم تحبون الزاكي كثيراً أليس كذلك؟.. إذن قوموا فاذهبوا كلكم لتساعدوه، فسيارة التاجر ستصل بعد قليل ويجب أن تكون الأرانب موضوعة في أقفاص الشحن..

قام الأطفال وذهبوا لمساعدة الزاكي.

نظرت سعاد إليَّ وقالت:

ـــ ما أردت أن أخبرك أمام الأطفال بأنني من أضعف خلق الله. فأنا طول الليل أبكي.. كلما انفردت بنفسي أبكي وأبكي وأبكي وأتذكر ابني وزوجي وأولئك الوحوش الذين اغتالوهما وقطعوا يدي.. ثم أتذكر ما حل بمدينتنا وأسأل

نفسي: «ما نفع البكاء؟!». غير أنني ما لم أبك فإنني سأموت. وتلك هي مآسالي حيال الناس الطيبين الذين ألجأ إليهم وأنام عندهم.. فليلة أمس بت في غرفة السيدة شفيقة، أقول «بت» ولا أقول «نمت». لانني لا آنا نمت لكثرة مابكيت ولا هي نامت لشدة إشفاقها عليّ.. مسكينة أمنا شفيقة.

ــ يعني.. الأطفال ناموا وحدهم في الغرفة الثانية؟

ــ نعم.

ــ ولكنك وعدتهم بأن يناموا معك.

ــ أمنا شفيقة ذكرتني بهذا الوعد أيضاً. لأنها تعرف بأنني لن أبكي أمام الأطفال.. لأنني أمام الناس عموماً مضطرة لأن أظهر بصورة الانسانة الشجاعة؟!.. ثم إنني أريد أن أسألك يا دكتور: لقد فقدنا أربعين ألف شهيد، فهل نقضي على من تبقى حياً منا باليأس والحزن والقهر والانهيار؟.. إنني أعتذر إليك لأن كلامي غير واضح تماماً، وغير منسجم منطقياً.. فأنا عندما أبلغ هذه النقطة من خيط التفكير يفلت الخيط كله من بين يدي..

وتبتسم وتسألني: ذلك تعبير أدبي خائب فأنا بلا يدين.

قلت: ومع هذا فإنني أصر على الثناء على شجاعتك. وإنني وقد كفلتك أمس ووعدتك بأن لاأدعك تحتاجين الى غيري ما حييت، شعرت اليوم باعتزاز وفرح وسعادة غامرة عندما سمعتك تقولين: «ياأخي».

قالت بمداعبة لطيفة:

ــ وهذا تعبير شعبي دارج على اللسان أيضاً. إن أي إنسان قد يقول لاي إنسان: يا أخي.

ــ لكنني أنا تلقيها منك في موقعها الصحيح.. فأنت أختي أمام الله والناس. وإنه ليشرفني أن يكون لي أخت مثلك. يا سعاد نحن لن يفرق بيننا إلا الموت.

ــ لا فائدة منك.

ــ ماذا تعنين؟

ــ سافرت الى تلك البلاد البعيدة وعشت عشرين سنة بين أولئك الأوربين الذين يقيسون الأمور بمقياس المصلحة والمنفعة، ويزنون كل قول أو مبادرة سلوكية بميزان المردود المقابل.. ثم ها إنك، في لحظة واحدة، تنسى كل ذلك وتعود إلى

آصلك: إنساناً حقيقياً، يندفع عاطفياً لاتخاذ قرار خطير دون النظر إلى أي اعتبار عقلاني جامد.. أنت من شعبنا يا آخي.. هكذا هو شعبنا العظيم. وعلى هذا المستوى الانساني الرفيع من الشهامة والنبل والمروءة كان كل شهدائنا الذين ما قتلوا إلا لأنهم كانوا كذلك.. يا حسرتي..

وأطرقت سعاد هنيهة ثم سألتني:

ــ قولك إنهم يريدون أن يفرضوا علينا النذالة والدناءة والحقارة بقوة السلاح؟.. ما لم تكن وغداً تُقتل.. ما لم تسجد للطاغية سجود العبد الذليل تُقتل.. وأما إن قبلت على نفسك أن تصير من طينة الذين قطعوا يدي، وحشاً حقيقياً ونذلاً نموذجياً، فإنك الناجي والرابح والكاسب في مراتب العيش... ماقولك يا أحمد؟.. إن هذه المسألة تقلقني عشرات أضعاف ما تقلق أياً منكم. ذلك لأنني معلمة، أي مربية، فكيف أربي الاطفال؟ هل أستمر في انتهاج خط الكذب فأظل أحدثهم عن مكارم الاخلاق وأزيّن لهم محاسن قيمنا التراثية الاسلامية والقومية؟ أم أنني يجب عليَّ ــحتى أحميهم من غدر وحوش مجتمع الشياطينــ أن أصارحهم بأن المخلوقات البشرية ليست كلها على صورة «الانسان» التي رسمها لنا ديننا العظيم وزينها لنا آباؤنا ومعلمونا في المدارس؟.. وإذا كان الأمر كذلك فكيف أقول لهؤلاء الأطفال الأبرياء: حصّنوا أنفسكم منذ الآن واعلموا جيداً أن المجتمع مليء بالغدارين والكذابين والخونة والمرتشين ومعدومي الضمير.. إن كنت أخي حقاً فساعدني: بأي لسان أقول للأطفال هذا الكلام؟

جاء خالد من قاعة الأرانب ليسألني:

ــ هل صحيح أنك ستأخذ الزاكي معك اليوم لتصلح له وجهه؟

ــ من أخبرك بهذا؟

ــ الزاكي .. وهو سعيد جداً. لكنه خائف من أن تكون مازحاً.. نحن كلنا نحب الزاكي ونرجوك أن تصلح له وجهه.

ضحكت وقلت لخالد:

ــ إرجع إليه وطمئنه.. فأنا جاد فيما قد وعدت. وسوف آخذه معي الى

مستشفى بالعاصمة لأقوم بعملية التجميل بنفسي..

فطار خالد مسرعاً نحو قاعة الأرانب لينقل البشرى العظيمة. أما أنا فقد التفت الى سعاد متسائلاً:

ــ هل تصدّقين بأنني لم أر وجهه حتى اليوم؟.. ربما كان غير محتاج لعملية تجميل.

قالت:

ــ مسكين.. لو أنه أدرك الحقيقة لما تورط في هذا الوهم.

ــ أية حقيقة يا سعاد؟!.. أتدرين أن حديثك يمتعني كثيراً؟.

ــ في هذه الأيام بالذات لم يعد الانسان بحاجة لأن يدرس الأربعين حديثاً النووية ثم يقرأ أفلاطون وأرسطو وشوبنهاور، ثم يحفظ أشعار المتنبي، حتى يكتشف ما هو القبح وما هو الجمال.. فقساوة هذه الأيام المظلمة في وضوح كل شيء فيها، تجعل الحمار ذاته يكتشف بأن الجمال هو جمال الروح لا الشكل، وأن البشاعة هي بشاعة النفس لا الوجه.. أنت كنت نائماً في الصباح ولم تر الزاكي عندما كان يلقمني طعام الافطار. لو أنه أبرّ الأبناء لما كان بمثل هذا الحنان والعطف و..

سألتها:

ــ والشفقة؟

أجابت بتأكيد:

ــ والحب أيضاً.. هل تظنني لا أسمع خفقان قلب العاشق؟

فسألتها بمداعبة:

ــ يعني .. هل أفهم من هذا الكلام يا سعاد أنك تقبلين بالزواج منه «على عيبه»؟

ــ هذا قرار لايحق لي أن أبت فيه مالم أسمع مشورة أهلي.

ــ وأين أهلك حتى نستشيرهم؟

ــ عجيب .. ألم تكن تؤكد قبل لحظات بأنك أصبحت أخي.. إذن فالقرار قرارك.

ــ صدقيني يا أختي إذا اعترفت لك بأنني أشعر الآن بسعادة غامرة. سأذهب لأبحث الموضوع مع أخي في الحال.

ومشيت باتجاه قاعة الأرانب، فنادت سعاد خلفي:

ـ انه ليس هناك.. الحاج رضوان عند باب المزرعة. إنه هناك منذ الصباح يحاول أن يصلح محرك السيارة الذي يرفض الدوران.

فاستدرت ومشيت الى سياج الزيزفون الذي تجثم تحت ظلاله سيارة هيئة الأمم. لاشك في أن الطفل خالد عندما طار مسرعاً ليبشر الزاكي بنبأ «تصليح وجهه» كان أكثر اتزاناً مني وأنا طائر على بساط الأحلام الجميلة لأقول لأخي بحماسة طفولية: «**أرأيت أن الله سبحانه وتعالى يبتلي ويعين؟!.. ها قد تفتحت أول زهرة أمل في حقل مآسينا.. ما رأيك بزواج سعاد والزاكي؟**»..

○

لم تكن هيئة الامم جاثمة بدواليبها الأربعة تحت ظلال الزيزفون.. فشمس الظهيرة وقد صارت في السمت، طردت الظل إلى ما تحت الأشجار مباشرة، وهناك يجلس الشيخ عبدالقادر لائذاً من الحر اللاهب. أما أخي، الذي انتابته حالة من المعاندة الشديدة (**إما هو وإما هذه السيارة المستعصية على الاصلاح**) فقد كان يسبح بعرقه وكان قميصه المبلل بالعرق ملطخاً ببقع الشحوم السوداء أيضاً ولكنه رغم كل ذلك بادرني بهذا السؤال العجيب أول ما وصلت:

ـ **عمرك رأيت أنذل من هذا الاسكندر الحفيان؟.. أصلحك الله يا أحمد.. كيف تركته يذهب عندما جاء الى هنا؟.. أما عرفت كيف تغرس سكيناً في بطنه فتريح البشرية من شروره.**

سألته ببراءة:

ـ وما الذي أورد سيرة هذا الرجل الكريه الآن؟

ضحك أخي وهو ينظر الى الشيخ عبدالقادر ويقول:

ـ اسمعوا يا ناس.. الدكتور أحمد نسي ما أخبرنا به الرج الليلة..

ثم التفت إليَّ وسألني:

ـ أنسيت أن هذا الحقير يدعي بأنك شتمت الطاغية كبير الخنازير؟! هل تعرف ما هي عقوبة هذا التجديف بحق الذات الطاغوتية؟.. الاعدام.. أنت مهدد

بالاعدام يا أحمد وتسألني ما الذي جلب سيرة هذا الحقير؟!.. أنا لم يغمض لي جفن طول الليل. كنت أتقلب على الفراش وأنا أسأل نفسي: أما كفى هذا الوغد كل ما لعبه بعواطفنا طول سنة؟ أما كفاه ما ابتزه من أموالنا؟.. أما كفاه ما يسعى اليه اليوم فإما أن ندفع له نصف ريع الصيدلية وإما أن يؤكد للنقابة بأن أختنا خديجة قد ماتت فيغلقوا الصيدلية ونحرم من ريعها.

قال الشيخ عبدالقادر بصوته الواهن، وهو لائذ بظل سياج الزيزفزن:

ــ بالمناسبة يا جماعة.. أرجوكم أن لاتؤاخذوني.. فقد نسيت.. لكن حديثكم عن الصيدلية وعن أختكم خديجة جعلني أتذكر الآن.. هاكم.. إنني أحمل اليكم رسالة من أهل الاستاذ نزار.

ودسّ يده في جيبه ثم أخرج رسالة.

سألت:

ــ من هذا الاستاذ نزار؟

قال أخي وهو يفض الرسالة:

ــ إنه الشاب الذي كلفناه بإدارة شؤون الصيدلية.

كانت الرسالة تتضمن سطرين لاأكثر.. **صيدلية خديجة أُغلقت وخُتمت بالشمع الأحمر. والأستاذ نزار صار في السجن.**

الحاج رضوان مزّق الرسالة وشرر الغضب يقدح في عينيه.. وصارت عضلة فكه تتوتر وترتخي بإيقاع هيجاني كاد يسحق أسنانه.. ثم انحنى فوق محرك السيارة ليفك مضخة البنزين وهو يقول:

ــ يجب أن نصلح السيارة مهما كلف الأمر.. يجب أن أسافر أنا لا أنت.

وقفت حائراً. ماذا أفعل؟.. ماذا أقول؟ وارتجفت ذعراً للفكرة المخيفة التي خطرت لي:

هل إن أخي يريد أن يقتل ذلك الرجل البشع؟.. ومتى تحوّل الحاج رضوان الى قاتل؟.. متى حشروه بين حجري رحى الطاحون بهذه القسوة التي جعلته لايرى أي منفذ إلا بأن يقتل الطحان؟.. ولكن.. هل إن اسكندر الحفيان هو الطحان؟.. هل إنه الأفعى السامة الوحيدة؟ وهل إن قتل هذه الأفعى اللعينة يفتح باب الخلاص؟.. أم أن البلد صار يغص بالأفاعي التي تفحّ وهي مكشرة

عن أنيابها؟.. هل إن جسد الوطن مصاب بلوثة سرطان في الثدي مثلًا بحيث يمكن إنقاذه إذا استأصلنا الثدي؟.. أم أن النظام كله فاسد وجسد الوطن مبتلى بسرطان في الدماغ، في الدم، في العين في اللسان في الصدر، في القلب، في كل مكان.. إذن فما العمل؟.. كيف نحقق النجاة والانقاذ والخلاص؟.. يمكنك طرح ألف جواب مقبول إلا جواب قتل رجل بشع بعينيه. لأن هذا ليس حلًا على الاطلاق.. وإنني ملزم أخلاقياً حيال أخي بأن أصارحه بهذه الأفكار وأن أحاول إقناعه بالعدول عن فكرته الرهيبة والخاطئة. إنه مخطىء مخطىء.. وإنني سوف أذكّره بكلمته التي كان يرددها كثيراً أثناء زيارته لي في المانيا (يا أحمد.. كل هذا النعيم الحقيقي الذي يرفل به الألمان سببه تمسكهم بالديمقراطية.. فلا حياة بلا ديمقراطية، ولا حرية ولا نهضة ولا فن ولا صناعة ولا زراعة بلا ديمقراطية.. لا سلامة للوطن أصلًا بلا ديمقراطية.. ونحن ــ يا حسرتي علينا ــ خسرنا كل شيء من يوم أن أعلنت أحزابنا الوطنية حلَّ نفسها، من يومها تحولنا من مواطنين الى عبيد لشخص واحد أو لحزب واحد يطغى عليه شخص واحد.. خسرنا كل شيء يا أحمد).. إنني سأذكّره بكلامه هذا وأقنعه بأن طريق الخلاص هو العودة الى الحياة الديمقراطية التي تكفل للمواطن حقوقه الانسانية.. أما اغتيال شخصٍ أو عشرة، أو مئة، فلن يحل المشكلة أبداً مهما كانت خطورة ذلك الشخص، فما بالك باغتيال وغد تافه من مستوى اسكندر الحفيان؟.. من المؤكد أن هذه الفكرة صارت الهاجس الأشد وطأة على ذهنك يا أخي، منذ زمن طويل، وإنني أعطف عليك لما عانيته من عذاب كان مع مرور الزمن يشتد ويزداد قساوة وإيلاماً، وإنني أراك رؤيا العين وأنت تحاول في كل مرة أن تؤجل «التنفيذ» إلى حين تجد وسيلة لضمان سلامة زوجتك وهؤلاء الأيتام من بعدك، وها إنك وجدت الحل بأن تستدعيني فلبيت وإنني صادق العزم على تبنّي أحبابك جميعاً، والزاكي وسعاد، ولكن ــ لقاء هذا ــ فإن من حقي عليك أن تصغي لوجهة نظري.

نبح «قطّاش» وهو يرصد بعينيه التلة الشرقية. جاءت الشاحنة الكبيرة المنتظرة، وعلينا أن نتعاون جميعاً لنقل صناديق البيض. وأقفاص الفري والأرانب.

قال أخي:
ــ يا أحمد خذ الشيخ والمرأة الى المخبأ.. بسرعة.
نهض الشيخ عبدالقادر وتسلل متستراً بالأشجار، وأنا أمشي خلفه، الى أن وصلنا الى البيت فدخل، ثم اجتاز القاعة الى المطبخ، وهناك وجدنا أن «سعاد» قد سبقتنا فأزاحت موقد النفط من مكانه في احدى زوايا المطبخ، وها إنني أرى خلف الموقد فتحة في أسفل الجدار يمكن للانسان أن ينزل فيها بصعوبة. نزل الشيخ عبدالقادر وهو يقول لي:
ــ عليك أن تزيح الموقد ليعود إلى وضعه الطبيعي.
ــ ألا تريدني أن أنزل معك؟
ــ لا.. لا.. صرت أعرف دربي.. إن قدمي الآن ثابتة على درجة سُلّم طبيعي منحوت في الصخر.. إنها عشرون درجة. وبعد ذلك تصل إلى سرداب طويل جداً كان في قديم الزمان قناة ري جوفية.
ــ والانـارة؟
ــ المصباح موجود من ليلة أمس.. هل نسيت؟
ــ وسعاد؟
فسمعت صوتها من جوف القناة تحت الارض:
ــ لا تشغل بالك بنا.. المهم أن تسرع بإغلاق الفتحة عندك.
أزحت الموقد بصعوبة. كان ثقيلًا جداً. وإنني لأتساءل كيف استطاعت سعاد ــوهي امرأة ضعيفة وبلا يدينــ أن تزيح هذا الموقد الثقيل الذي توحي لك نظافته بأنه لم يستخدم قط. ربما كان من مخلفات مالك المزرعة السابق.
ثم خرجت فوجدت الجميع يعملون بهمة ونشاط. أخي والزاكي وأبو غزوان يحملون أقفاص الأرانب وصناديق البيض، بينما اختص الأطفال بنقل أقفاص الفري. أما أمنا شفيقة فهي مشغولة بالتنور، لأن شعارها الثابت: «الطعام أولًا عندما يحل عليك ضيف».
سألتهم:
ــ وأنا ؟.. ماذا تريدون أن أعمل؟
ــ أنت اصعد فوق الشاحنة لتأخذ الصناديق والأقفاص فترتبها فيها.

ـــ لكن هذا العمل من اختصاص السائق.

ـــ سائق الشاحنة تطوع لاصلاح سيارتنا.. كثّر الله خيره.

○

سارت الأمور على أحسن ما يرام. تم نقل البضاعة بسهولة وإتقان. والأطفال انشغلوا عن الاحساس بالتعب بفرحة العمل والنشاط والحماسة. وأنا رتبت صناديق البيض جيداً ثم وضعت فوقها أقفاص الأرانب والفري بإتقانٍ جعل سائق الشاحنة مسروراً لأنه استطاع أن يصلح سيارتنا المتهالكة، ويجعل محركها يدور **(بصوتٍ ألطف من صوت طنين النحلة)** حسب تعبيره. وكان أخي مسروراً أيضاً لأن «هيئة أممه» صارت قادرة على الحركة. وكان أبو غزوان مسروراً كذلك لأن أخي قبض منه قيمة البضاعة من غير أن يعترض على الأسعار التي حُسبت بموجبها. **(قال أخي بعد ذلك: هذه عملية سرقة وليست عملية بيع وشراء).** وكانت أمنا شفيقة أكثرنا سروراً لأن أبا غزوان فاجأنا بمبادرة تسهل الافراج عن المختبئين تحت الأرض بأقصر وقت. فقد اعتذر عن البقاء لتناول طعام الغداء، واكتفى بأن طلب رغيفين من هذا الخبز الطازج، وقرصاً من الجبن.

وقـال:

ـــ لو أن سيارتنا محملة بأعلاف أو أسمدة لما همّنا مرور الوقت. غير أن السيارة محمّلة بأرواح. وعلينا أن نوصل هذه الأرواح إلى العاصمة بأسرع ما يمكن.. إذن فلنأكل في الطريق.

فعلّق أخي ممازحاً:

ـــ لاتخف يا أبا غزوان.. فحتى لو بقيت عندنا حتى المساء فإنني لن أفاتحك بموضوع الأسعار غير المعقولة التي حسبت قيمة البضاعة بموجبها.. يا رجل اضحك في عبك.. فأنت أخذت كل هذه الشحنة الضخمة بأقل من نصف قيمتها الحقيقية..

ـــ حرام عليك يا حاج رضوان.. فأنت تعرف بأنني أحبك وأهتم بمصلحتك. أما بالنسبة لمسألة أسعار هذه البضاعة فوالله إن...

قاطعه أخي مبتسماً:

ـ لا تحلف يا صاحبي.. فأنت لو دفعت أقل من هذا المبلغ لوجدتني راضياً.. أتدري لماذا؟.. لأن حظك من السماء. فأنا مضطر للبيع كيفما كان لأنني مستعجل للسفر أيضاً.. كما أنك صديق، وقد نحتاج إليك في يوم من الأيام، إذن فلتستفد من هذه الصفقة أنت خير من أن يأخذها غيرك اغتصاباً بالبلاش.. يعني.. كما يقول المثل: في بطن السبع ولا في بطن الضبع.

ـ ماذا تعني يا حاج رضوان؟.. إذا كنت أنا السبع فمن هو الضبع؟

ـ عجيب.. ألم تخبرني أمس وتؤكد لي اليوم بأن وزير الحرب سوف يسلط دباباته لشن هجوم على كل مزرعة فرّي في البلاد؟..

وقهقه أخي بالضحك وهو يربت على ظهر صاحبه قائلًا:

ـ إذهبوا راشدين وليوفقكم رب العباد.

وما أن انطلقت الشاحنة مبتعدة بما حملته من غنيمة حتى أسرعنا للافراج عن الشيخ وسعاد التي قالت وهي تخرج من فتحة المخبأ خلف الموقد:

ـ بدلًا من دعاء ما قبل النوم ودعاء ما بعد النوم علينا أن نبتكر صيغة دعاء لما قبل المخبأ ودعاء لما بعد المخبأ..

فقهقه الجميع بالضحك وتوجهنا الى مائدة الغداء بنفوس مرحة وشهية مفتوحة للطعام. بل إن أخي كان يأكل بنهم و(إخلاص) حسب تعبيره، وكان يلتفت إلى الزاكي الذي يطعم سعاداً بيديه ويقول له باعتزاز وفرح:

ـ هل سمعت صوت هيئة الأمم؟.. صار صوتها أنعم من صوت النحلة.. مالك لاتأكل يا محروق الصفاح؟.. صحيح أنني سعيد جداً برؤيتك مهتما بسعاد كل هذا الاهتمام، لأن سعاد مثلك غالية علينا جميعاً. ولكن يمكنك أن تضع لقمة في فمها ولقمة في فمك.

فقال الزاكي بخجل:

ـ عمي هذا لايجوز.. فقواعد التاكتيك تنص على أن السيدات أولا.. ليديز فيرست..

فقلت وأنا أضحك:

ـــ الاتيكيت يا زاكي.. وليس التاكتيك.
وعلق أخي ممازحاً:
ـــ عشنا وشفنا.. لم يبق على الزاكي إلا أن يعلمنا أصول الاتيكيت.
فقالت سعاد:
ـــ وماله الزاكي؟.. ماذا ينقصه؟.. إنه نعم الشاب الذكي والشهم والجدير بكل احترام.
آنذاك هممت بأن ألقي قنبلة الفرح، فالمناسبة مواتية تماماً لطرح موضوع الزواج.. غير أن وجود الأطفال معنا على المائدة جعلني أتريث.
قال أخي:
ـــ أشهد الله يا سعاد أنك نعم المرأة العظيمة ثناؤك على الزاكي ملأ قلبي بالهناء الحقيقي. فهذا الشاب الذي فطره الله من معدن المروءة لصافية هو في الحقيقة جوهرة قد لاتجدين لها مثيلًا في الدنيا. وربما كانت هذه أول مرة أمتدحه فيها بوجهه، **لأنني الآن مسافر، وقد يطول بي السفر**، إذن فمن الواجب أن أدلي بشهادتي في هذا الشاب الذي يسعدني أن أقول إنه ابني.. يا زاكي.. من قلبي أقول اللهم أرض عن الزاكي.. اللهم ارض عن الزاكي..
ثم نهض قائماً وقال لأمنا شفيقة:
ـــ رتّبي لي الحمام بسرعة.. أريد أن أغتسل وأتطهر ثم أصلي ثم أقرأ جزءاً من القرآن الكريم، ثم أتعطر بعطر الورد وأرتدي ثوب الحرير الأبيض وأودعكم وأسافر..
غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث.. فقد سمعنا صوت طائرة سمتية في السماء. كنا جالسين نأكل في الشرفة، والسماء مكشوفة أمامنا على مدى البصر. وها إن الطائرة السمتية مقبلة نحونا. فهرب الأطفال وسعاد والشيخ ودخلوا إلى البيت.. والكلب «قطاش» هرب أيضاً بدلا من أن ينبح غاضباً أو محتجاً. ربما كانت هذه أول مرة يرى فيها طائرة.
قلت لأخي: هذا جعفر الضاوي حتماً.

الفصل الثاني عشر

لاوقت للمجاملات. فقد كان جعفر الضاوي على نار كما يقولون. حتى انه لم ينزل من الطائرة السمتية، وانما فتح زجاج نافذتها ونادى: (**أرجوك يا دكتور أحمد.. هات حقيبتك وتعال بسرعة.. في الطريق اشرح لك كل شيء**).

كانت الطائرة السمتية قد حطّت على بعد حوالي مائة متر من سياج المزرعة، فأثارت تحتها زوبعة من الغبار الكثيف، وهي زوبعة ظلت تتصاعد باستمرار، لأن مروحة هذه الطائرة العسكرية لم تتوقف عن الدوران . فالجماعة لايريدون ان يفرّطوا بأية ثانية من الوقت.

فقلت له بأعلى صوتي وبأعلى مستوى من البلاهة ايضا:

ــ لاحقيبة معي.. افتحوا الباب لأصعد.

فُتح الباب، وأُنزل منه سلّم معدني بسيط. وكان عليّ أن أركض مسرعا لأخترق حاجز الغبار الكثيف، تحت وطأة صوت هدير محرّك الطائرة المزعج. فأمسك الزاكي بيدي ــوكان الشخص الوحيد من أهلي الذي جاء معي لاستقبال الطائرةــ ورجاني أن أصطحبه معي. وأضاف صارخا بأعلى صوته، من تحت اللثام طبعا:

ــ اذا كنت ذاهبا لاجراء عمليات جراحية إذن خذني معك لتنهي موضوعي.

سحبته من يده: تعال يا زاكي.

غير أنه حرن في مكانه مترددا. ثم سحب يده من يدي متراجعا وهو يقول:

ــ لا.. لا.. لن أذهب الآن.. لا أقدر أن أتركهم وحدهم.

فصرخت في أذنه: ماذا تقول؟.. ارفع صوتك.

فصرخ في أذني: **خير لي أن يظل وجهي مشوّها من أن أترك أهلي وحدهم وهم بحاجة إليّ.**

فتركته وأسرعت نحو الطائرة. غير أن كلمته انغرست في قلبي سهما من نار لايمكن أن تخبو ابدا. (**لقد قتلتني يا زاكي دون أن تدري. وإن كلمتك العفوية هي أقسى صفعة تلقيتها في حياتي**). وحين نظرت اليه من خلف زجاج نافذة الطائرة رأيته يلوّح لي بيده، وباليد الأخرى كان يمسح دموعه.

وأقلعت بنا الطائرة صاعدة مبتعدة. وأنا وجهي ملتصق بزجاج النافذة وعيني ثابتة ــ بلهفة وعاطفة ــ على الزاكي وعلى المزرعة التي بدت من الجو بأدق تفاصيلها. وها إنني أرى بقرتنا «حفيظة» واقفة ترعى البرسيم قرب سياج حوض السمك. وها إن أخي واقف في الشرفة ينظر نحونا: (سأرجع اليكم يا حاج رضوان. لن أغيب عنكم أكثر من يوم واحد. ما عدت أستطيع العيش بعيدا عن مزرعة الطاحون).

وفيما راح أبو ضاوي يغمرني بعبارات الترحيب والحفاوة والابتهاج بلقياي، فإن عيني لم تتزحزح عن زجاج النافذة الصغيرة. فالدنيا تحتنا كلها بادية: أرض سهلية ترابية قاحلة. ومزرعة الحاج رضوان الفشاش هي الرقعة الخضراء الوحيدة. إنها علامة الحياة الوحيدة، وفيما عداها فإنك لاترى تحتك ــ على امتداد البصر ــ غير السهول الترابية التي تتخللها مُوَيجات من التلال الرملية الصغيرة. وبين بعض التلال قد تجد مضارب جماعة من البدو، لاتزيد عن خمسة أو ستة من بيوت الشعر العتيقة المهلهلة، وحولها بعض الاغنام الواقفة في هذا الوقت من النهار وهي مطأطئة رؤوسها من الذل أو للبحث عن عشبة يابسة فوق قشرة التراب الجافة، أو أنها تلوذ برؤوسها هاربة من قيظ الشمس اللاهب للتظلل بظلال بعضها.

وبعد ذلك ــ إذا شئت أن تتسلى بالمنظر ــ فإنك لن ترى من نافذة السمتية غير الطريق الترابية الوحيدة التي يطرقها باص المبعوجة بسائق سمين مبتلى بعاهة الوشاية الطوعية. وهذه الطريق خالية من أية سيارة في هذا الوقت.

قال جعفر : ماذا يعجبك بمنظر هذه الصحراء؟. أما آن لك أن تلتفت إليّ وتهتم بحديثي؟. يا رجل أنا غير مصدّق بأنني قد وجدتك بعد كل ما عانيت في البحث عنك.

التفتُ إليه قائلا وأنا أبتسم:

ــ لذلك سافرتَ الى ألمانيا، وذهبتَ إلى فيسبادن، فطرقتَ باب بيتنا، فخرجتْ لك هيلدا ورحّبت بك وأخذت من يدك علبة الكنافة وهي تقول: (**شكرا على هذا الكاتو**) فقلت لها موضّحا ــ شأنك في كل مرة ــ (**يا سيدتي هذه ليست كاتو.. هذه كنافة مبرومة بالفستق والجوز واللوز. هل الدكتور أحمد موجود؟**). فأخبرتك هيلدا بأنني مسافر في زيارة للوطن الغالي .. وأعطتك العنوان.

فقال أبو ضاوي مندهشا:

ــ كأنك كنت معي. كيف عرفت كل هذا؟. بل إن زوجتك أفهمتني بلغة الاشارات الصعبة ــ لأنني لاأفهم الألمانية وهي لاتفهم الانكليزية ــ بأن زيارتك لن تزيد عن أسبوع. لذلك أسرعت بالعودة فورا للبحث عنك. فأنا أعرف عقلك الانضباطي المتزمت في دقة تحديد الزمن والمواعيد. وكنت أخشى أن يمر الأسبوع من غير أن ألقاك.. لأننا محتاجون إليك في مهمة خاصة.

قلت : أعرف .. أعرف .

فسألني باستغراب: ماذا تعرف؟.. يبدو لي أنك فعلا تعرف أشياء كثيرة.

ــ أعرف سرا خطيرا. لكنني لن أخبرك به حتى لايسمعنا الأخ المحترم (وأشرت الى الضابط الذي يقود السمتية، وكان بثلاثة نجوم).

فضحك أبو ضاوي ثم قال آسفا:

ــ إنني أعتذر.. كيف فاتني أن أعرّفك بالنقيب عناد؟.. هذا الدكتور أحمد يا نقيب عنـاد.

قال قائد الطائرة:

ــ أهلا وسهلا.. تشرّفنا.

كان واضحا أنه يتهيّب في سلوكه بحضور أبي ضاوي الذي واصل كلامه:

ــ النقيب عناد صديق عزيز وموضع ثقة. فما هو السر الخطير الذي تعرفه؟

ــ لديّ خط هاتف مباشر من مزرعة الطاحون الى بيتي في فيسبادن.

ضحك أبو ضاوي وقال:

ــ أؤكد لك مرة أخرى أنني لاأخفي شيئا عن النقيب عناد فماذا تعرف؟

ــ أعرف أن رئيس الدولة يعاني من سكرات الموت، وأنكم استقدمتم أطباء

أجانب عديدين فلم ينفعوا بشي.. خبّرني يا صاحبي: هل أصبحت حالته الصحية ميئوسا منها؟

انقلب حال جعفر من الممازحة والملاطفة الى القلق والوجل. غير أنه ظل متماسك الأعصاب. إنه هو أيضا صار خبيرا في إخفاء بواطن نفسه تحت مظاهر خارجية معاكسة تماما. إذ من غير المعقول أن يكون هذا الرجل الأنيق، النحيف، ذو الملامح الانيسة واللطيفة، والنظارات الرقيقة التي بلا إطار، من غير المعقول أن يكون هذا الشاب الذي يوحي مظهره ولطفه ورقة حديثه وكل مواصفاته بأنه موسيقار أو شاعر باع روحه للجمال والعدل والحرية، من غير المعقول أن يكون واحدا من أكبر أعوان الطاغية السفّاح، بين عصابة (خنازير السوبر) حسب تعبير الحاج رضوان. **كيف يمكن «تلبيس» وحشٍ وجهَ شاعر..** إن الرعب الذي يثيره في القلوب اسم جعفر الضاوي هو رعب من وحش رهيب لايأكل غير الأطفال ولا يشبع من الولوغ بدماء الأطفال.. بينما سحنته الوديعة سحنة شاعر أطفال، ترفرف البراءة والعفوية والجمال فراشات فوق أزاهير سلوكه الانساني الرقيق.

وحدّقت فيه النظر مرة أخرى.. قال:

ــ أنا محتاج إليك يا دكتور أحمد.. إنني أكلّم فيك الصديق. وأظنك لن تخيّب رجائي.

ــ في الطب لا مجال للرجاء يا صديقي. بل هناك إلزام. وأنا ملزم أخلاقيا بأن أعالج أيّ مريض يلجأ اليّ. الطب مهنة إنسانية يا أبا ضاوي.

ــ أشكرك.. إنني أشكرك. كنت واثقا من أنك لن تخيّبني. فأنت إنسان شهم ونبيل ونقي. وإنني أعتزّ بصداقتك. أنت من مفاخر هذا الشعب.

ــ لا حاجة بك لأن تدوّخني بالثناء والمديح. طمّن بالك. سأبذل كل جهدي حتى أنقذ مريضك.

ــ وهذا عشمي فيك. خصوصا وأن المسألة، بعد أن مرّت بمضاعفات مقلقة، بلغت حالة من التحدي الأهوج والرهان السخيف.. **(همساً في اذني)** لأن رفاقي في القيادة لم يوافقوا على اقتراحي باللجوء إليك إلا بعد فشل .كل اولئك الأطباء الأجانب. إنهم لايثقون بأي طبيب من أبناء البلد. لقد بذلت جهودا مضنية حتى استطعت اقناعهم بالاعتماد عليك.. يخافون أن ...

ما هذا ؟

إذن فجعفر الضاوي، على خطورة موقعه في هرم السلطة، ورغم صلته المباشرة بالطاغية الأكبر، يحذر الكلام على مسمع من قائد الطائرة؟.. إذن فهم ــ شأن أفراد أية عصابة ــ لايثقون ببعضهم، بل لا أستبعد أن يكونوا في حالة حذر دائم من الغدر الرفاقي المفاجىء: **على الوجه ابتسامة، ويد تصافح بحرارة، واليد الأخرى تطعن الظهر بخنجر مسموم.** اذن فإن ما أكده أخي من أنهم ــمنذ بداية مرض زعيمهمــ قد بدأوا فعلا في حرب التصفيات ضد بعضهم للسباق نحو خلافة الطاغية، هو تشخيص دقيق وصحيح.

قال قائد السمتية وهو يشير الى الطريق الترابية تحتنا:

ــ هذا حادث مرور قد يكون خطيرا سيدي.

نظرنا الى الطريق. ثمّة شاحنة متوقفة بمواجهة ناقلة جنود مصفحة. والجنود يقومون بتفريغ الشاحنة مما فيها من صناديق.. **يا للكارثة: هذه سيارة الارانب والفرّي والبيض.** قلت:

ــ أريد أن نحطّ هنا لنفهم القصة.

قال أبو ضاوي:

ــ لا وقت لدينا.. هذا أمر لايهمنا.

فقلت بإصرار وأنا أكتم غضبي:

ــ بل إن هذا الأمر يهمني أنا شخصيا.. فإن لم أكن معتقلا أو موقوفا فإنني أطلب النزول هنا.. لن نتأخر كثيرا.

فوافق أبو ضاوي على مضض. ثم انتبه الى نفسه فرسم ابتسامة على وجهه وقال لي مداعبا:

ــ العفو يا صديقي.. نسيت أنكم في المانيا يثور هياج الواحد منكم اذا ما شعر بأيّ مسّ بحريته.

وحطّت السمتية على بعد خطوات من الشاحنة. ونزلنا منها.

كانت معظم الصناديق مبعثرة على جانبي الطريق. (وا أسفاه على جهودي في ترتيبها فوق الشاحنة بعناية وإتقان). وكان بعضها محطّما. والأرانب الفالتة سارحة في

أرض الله الواسعة تقفز مبتعدة ثم تتوقف هنيهة لتتلفّت متسائلة بعيون حمراء برّاقة وآذان بيضاء منتصبة: (ماذا حدث؟.. اين نحن؟.. لماذا أطلقونا في هذه الديار القاحلة التي لانرى فيها أي عرق أخضر؟).

سألتُ:

ــ ماذا يجري هنا؟.. ماذا حدث؟

فأفادني عسكري جلف واقف فوق الشاحنة وهو يقذف بصندوق آخر إلى الأرض:

ــ حتى الآن لم نجد ما نبحث عنه سيدي.

فصرخت غاضبا:

ــ كفى.. توقفوا.. ما هذه المهزلة؟

توجهت الى أبي غزوان، تحاصرني عيون العساكر الذين فوجئوا بأوامري الصارمة، غير أن أبا غزوان لم يرفع بصره إليّ، بل ظلّ على وضعه اليائس. كان جالسا على الأرض بحزن واستسلام، مطرق الرأس متهدّل اليدين، كأنه ينتظر رساما ماهرا سوف يأتي ليستلهم من شكله خطوط التمثال النموذجي لليأس الأبدي.. سألته:

ــ ألا تخبرني بالذي حدث؟

رفع التاجر المنكوب رأسه وأجاب خائفا:

ــ أنا لا علاقة لي يا صاحب السعادة.. سل غيري. فأنا عابر طريق وقد ركبت مع سائق الشاحنة بالأجرة.. أنا مع الحكومة يا صاحب السعادة.

صاحب السعادة؟!

ألى هذا الحد بلغ الخوف بأبي غزوان حتى يتظاهر بأنه لايعرفني؟. يا أحمد اترك هذا الرجل شفقة به. ألا ترى انه (ياللفاجعة) قد تحوّل الى أرنب؟. اتركه وابتعد عنه حتى لاتدفعه الى التورط بمزيد من الكذب المذل والمهين.

التفتُّ إلى العسكري الجلف الواقف فوق الشاحنة وصرخت به:

ــ لقد قلتَ إنكم حتى الآن لم تجدوا ما تبحثون عنه. فما هو الشيء الذي تبحثون عنه؟ حشيش؟.. مخدرات؟..

ــ لا ياسيدي. إننا نبحث عن امرأة مقطوعة اليدين. صحيح أنها بلا يدين ولكن يبدو أنها مجرمة خطيرة جداً على أمن الدولة يا سيدي.

فقلت لجعفر الضاوي وأنا أشتعل غضبا:
ــ لن أذهب معكم ما لم تأمرهم الآن بأن يعيدوا كل هذه الصناديق إلى مكانها.
كنت أرتجف انفعالا.. وانفجرَتْ في نفسي نزعة التحدي فتابعت:
ــ والأرانب التي هربت أيضا. عليهم أن يجمعوها كلها ويعيدوها إلى صناديقها. وعليهم أن يعتذروا لهذا الرجل. فهذه بضاعة لها ثمن، وهو ماذا أذنب حتى يخسر أمواله؟.
كنت أعني أبا غزوان طبعا. ولكن أبا غزوان كان أكثر حكمة من أن يشكرني. بل إنه ــ ويا للعجب العجاب ــ استمر على إنكار أية صلة له بالشاحنة وما فيها. واستمر يدمغني بعبارة (صاحب السعادة).
فقال جعفر الضاوي:
ــ إنني أستغرب أمرك يا دكتور أحمد. . تزعج نفسك كل هذا الازعاج وتصرخ وتنفعل وتغضب من أجل رجل لاتعرفه ولا يعرفك؟
ــ لكنني أعرف البضاعة، فهي نتاج مزرعتنا. أنا، بيديّ هاتين، حمّلتها على ظهر الشاحنة وتعبت في ترتيب الصناديق فوق بعضها.
ثم تساءلتُ مستغربا:
ــ لكن.. أين أقفاص الفرّي؟
سمعت صوت (حضرة النقيب) من خلف ناقلة الجنود المصفّحة:
ــ أقفاص الفرّي مكدّسة هنا يا دكتور.
ــ يا للعار.. إنها عملية نهب اذن.
ففاجأني (شاعر الأطفال) بهذا السؤال:
ــ ألا نمشي يا دكتور؟.. نحن لانستطيع أن نتأخر أكثر مما فعلنا.
فقلت:
ــ نعم نمشي.. ولكن نمشي عائدين الى المزرعة.
فانفجر ضاحكا وهو يقول:
ــ ما أجملك وأنت غاضب يا صديقي. ألى هذا الحد أثّر فيك الألمان حتى صرت تعطف على الحيوانات كل هذا العطف؟. إذا كنت تعطف على الأرانب والطيور هكذا إذن فكم إن عاطفتك رقيقة حيال بني البشر؟

ثم التفتَ الى الجند امرا:

ــ سمعتم أوامر الدكتور.. فمالكم لاتتحركون؟.. هيّا.. أرجعوا كل شيء كما كان.

فقال العسكري الجلف:

ــ العفو يا محترم. من أنت حتى ننفذ أمرك؟

فصرخ به (حضرة النقيب) موّبخا:

ــ حيوان.. هل صحيح أنك لاتعرف سيادة جعفر الضاوي؟. وإذا كنتم حميرا الى هذا الحد فكيف كلّفوكم بمثل هذه المهمة؟

وقع اسم (جعفر الضاوي) وقوع الصاعقة. وأسرع الجند يعملون في تحميل الشاحنة بالصناديق، وهم في حالة تبعث على الضحك والاشفاق لما سادها من عبط وارتباك.

قلت لجعفر:

ــ يمكننا الآن أن نعود الى السمتية ونواصل السفر.

وتركته يمشي الى الطائرة قبلي هو والنقيب، وانزويت بأبي غزوان وحاولت أن أواسيه:

ــ ما لك يا رجل؟.. ماذا أصابك؟.. ألِى هذا الحد بلغ بك الخوف؟.. أما الأرانب الشاردة فلا تحزن عليها، لأنني سوف أقنع الحاج رضوان بأن يعطيك بدلا منها وأكثر.

قال أبو غزوان بصوت إنسان محطّم:

ــ مع أنني أشكرك يا دكتور فإنه لافائدة من جهودك. لأنك لو حميتني الآن فهل ستظل معي لتحميني طول الطريق؟. إنني أحصيت أثناء المجيء اثنى عشر حاجزا للتفتيش، من مثل هؤلاء الجنود الأشاوس وسيارتهم المصفحة. فحتى لو صدّقوا بأنه من المستحيل تخبئة امرأة تحت صناديق بيض فإن كل حاجز لن يتركك تعبر ما لم تدلق في بالوعته صندوق بيض وقفص أرانب. هذا إذا لم يرغموك على دفع أتاوة نقدية. وهكذا فإننا لن نصل إلى السوق إلا والشاحنة فارغة تماما. اسمع نصيحتي يا دكتور وابتعد عن هذه الامور فأنت لن تستطيع أن تصلح الكون.

ـــ أنا لا أريد أن أصلح الكون.. ولكنني ملزم بأن أدافع عن أموالي، رزقي، ثمرة أتعابي.

ـــ لا تؤاخذني يا دكتور فأنت أعجز من أن تدافع عن نملة. لأنك لست من عيار وزير الحرب. وإلا فهل صحيح أنهم يبحثون عن امرأة مقطوعة اليدين؟. إن كان الأمر كذلك فلماذا صادروا كل أقفاص الفرّي ونقلوها الى سيارتهم العسكرية؟. هل يصدّق أخوك الآن تحذيري له من نوايا وزير الحرب الذي يريد أن يحتكر تربية هذا النوع من الطيور والسيطرة على أسواقها؟. اذهب يا دكتور.. عجّل بالمسير اليهم فها قد دارت مروحة الطائرة.

تركته وأنا أشد منه يأسا وغضبا، وأسرعت الى الطائرة.. وواصلنا الرحلة.

الفصل الثالث عشر

طلب أبو ضاوي من النقيب عناد أن يكون خط الطيران بعيدا عن طريق السيارات (**فنحن لانريد أن نتأخر أكثر مما فعلنا. وأخونا الدكتور أحمد رجل عاطفي وحسّاس. وقد يضطرنا للنزول عند حادثة مماثلة على الطريق ليدافع عن حقوق الانسان. فهؤلاء الناس الذين يعيشون في أوروبا مغرمون بهذه المسائل.**).
ثم التفت اليّ مبتسما وهو يقول:
ــ هل تعلم بأن اسم مزرعتكم قد دخل عالم الخلود على خرائط الجغرافيا؟. فبعد أن عانينا ما عانينا ونحن ندقق في كل الخرائط الطبوغرافية العسكرية بحثا عن موقع (مزرعة الطاحون) بلا جدوى، ستصدر الأوامر الان بتثبيت اسمها على تلك الخرائط.. أظن أن أخاك سوف يعتز بذلك غاية الاعتزاز.. ولِمَ لا؟.. إن المجد الذي تحقق للأخوين فشّاش لايحلم به إنسان. فالدكتور أحمد الفشّاش دخل التاريخ بمنجزاته العلمية في الطب، وأخوه دخل الجغرافيا. وها إنكما قد أمسكتما بالمجد من قرنيه.

قال ذلك وضحك.. وحين لاحظ ان (نكتته) لم تؤثر بي استدرك:
ــ آ.. صحيح.. تذكرت.. الألمان لايضحكون. غير أنك الان عندنا، هنا في الوطن، ولو كنت مكانك لحاولت أن أخلع عن روحي ثوب الرصانة والتزمّت.

هذا هو جعفر الضاوي. لم يتغير فيه شيء. إنه ــ على ذكائه الخارق في ترتيب مخططات الارهاب وتدبير المؤامرات السرية الخطيرة وقدرته على خنق الشعب بيد من

حديد ــ لا يعرف كيف يحبك نكتة ناجحة.. ربما لأن عفوية الانسان البسيط فيه قد تفحّمت بفعل الحرائق الرهيبة التي صنعتها يداه.. ألم يكن واحدا من الذين خططوا لمجزرة مدينتنا المذهلة بدمويتها ووحشيتها؟؟ وإنسان مثله لايتعامل في نهاره وليله إلا مع حوادث القتل والاغتيال والتعذيب ماذا يتبقى منه؟.. يتبقى منه نفس تكاد تختنق تحت وطأة عذاب الضمير المتقيّح داخل قوقعته الصدفية القاسية. فيحاول إن يهرب في اجازة راحة بعيدا عن الاجواء، فيركب الطائرة، ويأتيني الى فيسبادن، (صحيح أن صداقتنا نشأت على كبر ولكنك يا دكتور أحمد الانسان الوحيد الذي تستريح اليه نفسي. لأنك لست مضطراً لأن تكذب أو تتملق. كما أنك لست خطراً علينا. صحيح أنك لست معنا ولكنك لست ضدنا. بل إنك لاتتدخل في شؤون السياسة إطلاقا، في حضوري على الأقل. وهذا ما يعجبني في علاقتنا القائمة على صداقة لاأثر فيها للمنفعة أو المصلحة. فأنت لم تطلب مني أية خدمة في أي يوم من الأيام. وأنا؟؟. ماذا أقول؟. كنت أتمنى أن لا أزعجك بطلب أية خدمة ولكن حاجتي إليك ترغمني على طلب المساعدة في الأزمات. وهل أستطيع أن أنسى أنك أنقذت حياة ولدي؟. لماذا تضطهدني يا صاحبي؟. لماذا تصرّ على أن لاتطلب مني أي طلب؟ إن شئت أن تعود الى الوطن فإنني مستعد لأن أفتتح لك أحدث مستشفى.. وإن شئت الوزارة فاختر أية وزارة تحب وبعد ساعة يصدر القرار الجمهوري بتعيينك وزيرا. أنت أجدر من كل اولئك الذين....

فكنت أقول له مبتسما:

ــ كيف تريدني أن أكون وزيرا وأنت تعرف بأنني لا أتدخل في شؤون السياسة؟

فيسألني:

ــ ومن قال لك إن من واجبك أن تعمل في السياسة إذا كنت وزيرا؟

فأضحك معاتبا:

ــ سامحك الله يا أبا ضاوي.. إذا كنتَ تحبني وتحترمني فكيف تريدني أن أصير رِجْلَ كرسي؟. ثم انني أحب أن أفهم منك يا صاحبي: إذا كان الوزراء محظور عليهم التفكير بقضايا البلد، وإذا كان الشعب كله معزولا عزلا كاملا عن

أن يتدخل في أية قضية تهم مصيره ومعيشته وحريته، فمن الذي يحكم البلد إذن؟.

ـ رجال القيادة طبعا.. وخصوصا السيد الرئيس بالذات . إنه لاينام.

ـ ولماذا هو وحده فقط؟.. أو لماذا يكون العمل السياسي حكرا على من تسميهم رجال القيادة وحدهم فقط؟

ـ هذا سؤال يجيبك عليه القَدَر.

ـ القدر ؟.

ـ نعم .. القدر .. فالقدر هو الذي حمّلنا مسؤولية تحقيق أهداف الامة، ونحن لنكون عند حسن ظن القدر بنا، لن نبخل بأية تضحية بل لن نسمح لأية عقبة بأن تعرقل مسيرتنا الثورية الماضية قُدُماً لتحقيق أهداف الأمة.

ـ حتى لو صادرتم الحريات الأساسية للمخلوق البشري؟

ـ أنت لا همّ لكْ إلا الحديث عن الحرية والديمقراطية.. الألمان خرّبوا عقلك.. أتريد الصدق يا دكتور أحمد؟!. خيرٌ لنا أن نبتعد عن هذه المواضيع الشائكة. ولنبق أصدقاء. أنت حلال عليك إيمانك بأنه لاكرامة للانسان بلا حرية، وأنا حلال عليّ عقيدتي الثابتة بأن العصر هو عصر القوة).

هذا تشخيص لنوع العلاقة العجيبة القائمة بيني وبين هذا الرجل. وهي علاقة كانت تتوطد مع مرور الأيام وكثرة زياراته لي في فيسبادن. وأرجو أن لايحدث خلال هذه الأزمة الراهنة مايسمم أجواء الممازحة والمودة وروح المصارحة بيننا.

ويبدو أن (صديقي) كان يفكر بالموضوع ذاته، فقد التفت إليّ قائلا:

ـ ها قد وصلنا يا دكتور أحمد.. لي رجاء عندك: أن لايعرف أحد أبداً أية معلومات تفصيلية عن مرض الرئيس.. لهذا فإنني أرجوك أن لاتنزعج إذا أخبرتك بأننا قد نضطر لمنعك من مغادرة الفندق الذي ستنزل فيه.

كانت الطائرة السمتية تحط بنا فوق سطح بناية كبيرة، فسألته:

ـ هل هذا هو الفندق؟

ـ لا .. هنا القصر الذي يوجد فيه مريضك.. تفضل.

○

لن أذكر عن القصر أو المريض أية معلومات، احتراما لرجاء صديقي الذي شعرت بأنه محرَج غاية الاحراج حيال العيون المرتابة التي كانت ترصدني بروح عدائية، وهي عيون (**أقطاب الثورة**) الاخرين الذين كانوا موجودين في القصر **تنفيذاً لأوامر القدَر** الذي كلفهم بالتنبه الشديد والحذر من أية بادرة غدرٍ قد يفاجئهم بها أحد الرفاق ليصل الى وراثة الزعيم قبلهم.. ومما زاد من ارتيابهم بي، بل عدم ثقتهم بي، أنني كنت لأرتدي الثياب الأنيقة جدا التي ينبغي أن يكون عليها (ذلك الطبيب الخطير ذو الشهرة العالمية)، وإنما جئتهم بثياب العمل مباشرة من مزرعةٍ ضائعة في غبار البادية الى هذا القصر المبهر بفخامته وثرائه، والمخيف بصمته وأجهزته الالكترونية المبثوثة عند كل باب وفي كل زاوية لتسجل أية نأمة أو حركة، رغم وجود رجال الحرس المسلحين الواقفين على أهبة الاستعداد في كل ركن وعند كل ممر.

قلت بصوت خفيض:

ــ لاحاجة بي لأن أرى المريض الآن. أريد أن تجلبوا لي كل ما تجمّع لديكم من تقارير طبية وصور وتحاليل وتخطيطات. وأريد أن تجلبوا لي كل ذلك الى غرفة خاصة أنفرد بها ولا يدخل عليّ إلا طبيب القصر.

فقيل لي:

ــ ولكن لدينا الآن أكثر من عشرين طبيبا واهبين حياتهم لانقاذ السيد الرئيس.

فقلت: إذن فليأت رئيسهم فقط.

فقال أبو ضاوي: اطلبوا الدكتور عبداللطيف.

لقي قراري هذا بعض الارتياح لدى أصحاب الوجوه الجامدة المتجهمة الذين استكثروا على أنفسهم أن يبادر أيٌّ منهم بإلقاء التحية عليّ أو مصافحتي. غير أن ذلك الارتياح كان رجراجا في قرارة تلك النفوس الخبيثة التي أقلقها سماعي وأنا أتكلم اللغة العربية وبلهجة أبناء المدينة التي ذبحوها.

ثم قذفت القنبلة الثانية:

كانوا جالسين ينتظرون خروجي من تلك الغرفة التي انفردتُ بها في خلوة مع الدكتور عبداللطيف كبير الأطباء حيث تدارسنا معا كل ما حمله من تقارير وصور وتحاليل... فخرجت اليهم ونطقت بالقرار الذي ضعضع كل مخططاتهم:

ـ أيها السادة.. إن كانت هذه التقارير والتحاليل والصور خاصة بالسيد الرئيس فعلاً فإن السيد الرئيس يستطيع أن يعود لمزاولة مهامه بعد ثلاثة أيام.

ذُهلوا..

كانت قنبلة صاعقة فعلا.

لم يستطيعوا إخفاء ما حلّ بهم من ارتباك وتساؤل.. وفيما كان وجه أبي ضاوي يطفح بالبهجة والإعتزاز، وهو ينظر إليّ بعينين تكادان تنطقان بتعابير الشكر، فإن الآخرين أقبلوا عليّ ليصافحوني شاكرين بعبارات مرتبكة تتراوح بين قطبي الفرح الكاذب والدهشة الحقيقية. غير أنهم جميعا أكدوا ـ بلسان متملّق وكذب ممجوج ـ ثقتهم بي واعتزازهم بـ(الطب الوطني). حسب تعبير وزير الحرب الذي عندما شدّ على يدي بحرارة كدت أصفعه بعبارة: (يالص الفرّي). ولقد هممت بأن أفاتحه بهذا الموضوع ولكنني وجدت أن الفرصة غير مناسبة. كما أن شكله القميء ولسانه المتملق وتفاهة كل شيء فيه، جعلتني أشعر بأنه لن يتأثر بالصفعة حتى لو بصقت في وجهه.. كان يقول لي، وهو ما يزال يهز يدي بحرارة:

ـ أنا كنت واثقا من أن الطب الوطني صار بفضل الثورة أرق وأعظم من أية خبرة أجنبية. إنك يا دكتور من مفاخر هذه الثورة. ولا شك في أن السيد الرئيس، بعد شفائه، سوف ينعم عليك بوسام (بطل الثورة).. وإنني أرجوك وأرجو هؤلاء الرفاق جميعا أن تقبلوا دعوتي على عشاء خاص هذه الليلة، احتفالا بهذا العبقري الوطني الذي تعتز به الثورة لأنه ثمرة طبيعية لجهود الثورة.

فقال أبو ضاوي:

ـ أظن أن الدكتور أحمد مضطر للاعتذار عن تلبية هذه الدعوة الكريمة لأن مشاغله لاتسمح له أن يغادر الفندق.

فقال وزير الحرب مصعّدا مستوى بلاهته السابقة:

ـ وما المانع؟.. ننقل العشاء من مزرعة الفردوس الى الفندق. وسوف تتذوقون ألذّ أطباق الفرّي المشوي والمقلي والمحشي بالرز والفستق والصنوبر. أنا فنان بهذا الميدان.

فقال واحد منهم كان ما يزال جالسا:

ـ بدلا من هذا الكلام الفارغ والسخف القميء دعونا نفهم القصة.

فصمت الجميع ونظروا اليه متهيبين، وهو ينهض عن مقعده بتثاقل ويتقدم نحوي. كان أبشع إنسان يمكنك أن تشمئز من سحنته المنحوتة من معدن اللعنة. ولاحظت انه واحد من (الأصلاء) الذين حضروا الى القصر أثناء خلوتي في الغرفة، بدلا من (الوكلاء) الذين استقبلوني بنظرات العداء لحظة نزولي من فوق سطح القصر.. فبعد أن انتشر الخبر بوصول (الطبيب المنتظر) اختفى معظم الوكلاء وحضر معظم الأصلاء.. وهذا واحد منهم.. سألني:

ـــ هل أنت متأكد من صحة تشخيصك؟

ـــ ماذا تقصد؟

ـــ كلامي واضح.. هل إن أخي قادر على العودة الى مزاولة مهام الرئاسة بعد ثلاثة أيام؟

فقلت له غاضبا:

ـــ اسمع يا حضرة المحترم.. أنا لست أجيرا عندك حتى تكلمني بهذا الاسلوب. وإنه لايهمني أبداً أن يكون المريض أخاك أو أبن عمّتك. وإنما يهمني أن تعلموا بأن تشخيصي الطبي ليس لعبا بالأحاجي والحزازير وإنما هو نتيجة استقراء واع لمعلومات وفّرتها لي أجهزة علمية دقيقة.. أما إن كنتم تريدون له أن يموت فأنتم أحرار. وأنا أسحب يدي من هذا الموضوع.. دلّوني على طريق الخروج.

فأمسك الدكتور عبداللطيف بيدي ملاطفا ومتوددا:

ـــ سوء تفاهم بسيط يا دكتور أحمد، سببه انك لاتعرف بأن سيادة الدكتور القائد (وأشار الى ذلك الرجل المقرف) من طبيعته في الكلام أن يتحدث بهذه النبرة. طريقته في الكلام هكذا. ومن لايعرفه يظن أنه يتكلم بنبرة استعلائية، مع أنه لايقصد ذلك ابدا. (التفتَ إليه) أليس كذلك يا صاحب السعادة؟

فقال (صاحب السعادة) الذي صدمتني منه رائحة الخنازير الأكيدة رغم انه مضمّخ بالعطور:

ـــ الواقع أنني إنسان ديمقراطي شعبي متواضع ولا أحب أن أكلّم الناس بلهجة استعلائية. ولكن الناس هم الذين يرغبون بأن اعاملهم كذلك.. خمسة عشر سنة وأنا لا أرى أمامي إلا أناسا يتوسلون ويستغيثون ويعرضون رجاءاتهم

بمذلة وخنوع. إن التعامل مع العبيد طول هذه المدة يجعلك تتكلم بهذه الطريقة الاستعلائية شئت أم أبيت.

ــ أليس من المُعيب للانسان أن يصف أبناء شعبه بأنهم عبيد؟. فما بالكم بدكتور؟ (التفتُّ اليه) دكتور بماذا حضرتك؟

تدخّل الدكتور عبداللطيف متملقا وقال:

ــ صاحب السعادة دكتور في الاقتصاد من الاتحاد السوفياتي. وهو رئيسنا جميعا. أقصد أنه رئيس رابطة خرّيجي المعاهد العليا.

فسألني (صاحب السعادة) باستخفاف:

ــ كيف تكون طبيبا ولا تعرف هذا؟.. المفترض بك أنك عضو في هذه الرابطة.

فقلت متسائلًا:

ــ حتى أكون واحدا من العبيد؟

فصرخ غاضباً:

ــ أتتحدّاني؟.. لم يُخلق بعد من يجرؤ على أن يتحداني.. من أنت حتى تتحداني؟

فقدتُ رشدي.. كدت أبصق بوجهه وأنا ألعنه صارخا: (**أيها القاتل الحقير. أنت الوغد الذي ذبح اربعين ألف بريئا من أهلي**). بل هممت بأن أرد على تحديه مبينا أنه لن يجرؤ على مس شعرة من مفرقي (**لأنكم لاتطالون ببطشكم وطغيانكم الا أبناء شعبنا المساكين، فمن كان يحمل جنسية هذا البلد المنكوب بتسلّطكم الهمجي هو إنسان محكوم بالقهر والقتل والذل، بينما سلاحكم أخرس حيال الأجانب. وأنا أحمل جنسية بلد أجنبي. وهذا عاركم أنتم لا عاري.. لأنكم أنتم الذين دفعتموني لأن أنتحر هذا الانتحار المشين، فأتخلّى عن وطني وهويتي وتاريخي وكل كياني لألجأ لائذا بجنسية أمة أخرى لاتجرؤون على مسّ فرد منها**).. كدت.. وهممت.. ومرّت كل هذه الخواطر اللاهبة المضطربة في لحظة سريعة خاطفة قطعها تدخّل الحاضرين، الذين التفّ فريق منهم حول هذا الأهوج الشرس محاولين تهدئته، ومشوا معه الى إحدى الغرف وهم يحاصرونه بعبارات التملّق وضرورة الصبر والتساهل إكراما للأمل بشفاء اخيه. (**خصوصا وأن هذا الطبيب هو الوحيد**

الذي سمعنا منه كلمة أمل).. بينما بقي معي أبو ضاوي ورئيس أطباء القصر ووزير الحرب الذين حاولوا الرجوع بي الى نطاق مهمتي الاساسية، وأن لا أزعج نفسي بالتورط في أي موضوع آخر.. وطُرح اقتراح بأن أبقى ثلاثة أيام **(حتى يتأكد الجميع من صحة كلام الدكتور أحمد)** حسب تعبير كبير أطباء القصر الذي كان يتحدث بصوت خفيض حرمة للمريض المسجّى في غرفة قريبة. مع أن هذا الدكتور عبداللطيف ذاته كان قد أكدّ لي أثناء الخلوة بأن ذلك الطاغية الأكبر غارق في غيبوبة مستديمة قد لايفيق منها أبدا.

فقلتُ معانداً، وقد ثارت في نفسي روح المشاكسة:

ــ إن كان بقائي ثلاثة أيام نوعا من الاعتقال. فأنني أقبل بهذا التحدي.. فإذا تم تنفيذ تعليماتي بدقة فإنكم بعد ثلاثة أيام سوف ترون مريضكم وقد صحا من غيبوبته الطويلة، ساعة أو ساعتين في اليوم لاأكثر.

فقال الدكتور عبداللطيف:

ــ أنا الطبيب الوحيد الذي تلقّى تعليماتك. وإنني على اقتناع كامل بصوابها. وأعدك بأن أتولّى تنفيذها بنفسي أنا شخصيا. كن مطمئنا. والآن ما رأيك بأن تتفضل معي لتنفيذ البند الأول من بنود قرارك؟؟

وتوجهت مع كبير الأطباء الى الغرفة التي مدّدوا فيها جسد ذلك الوحش. فقد كان في منهاجي أن أعود إلى ذلك المريض مرتين في اليوم.

كانت الزيارة قصيرة ومختصرة. فقد كنت في غاية التعب والاجهاد وأريد أن أستريح. قلت لأبي ضاوي: خذوني إلى الفندق.

الفصل الرابع عشر

تم تنفيذ «المنهاج المقرر» بدقة تامة خلال إقامتي في «فندق العصر». وهو منهاج بسيط وواضح تحكمه البنود التالية:

البند الأول:

في الصباح: الاستيقاظ. دعاء ما بعد النوم. الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور. (**كانت هذه الطفلة الحلوة سلوى تسألني: ماذا يعني: النشور؟**). وأجد نفسي أبتسم لِطَيْف سلوى ابنة أختي خديجة. ما أجمل أن تفتح عينيك على الدنيا فترى ذلك الوجه الملائكي الساحر بلطفه وبراءته وتطلعه الى السعادة والفرح!. لكن..

لكنّ شرارةً صاعقة تشرخ الرأس فيختفي طيف الطفلة ويحضر طيف أمها عاصفاً جارحاً شديد الايلام، لقد أصبحتُ الآن أشعر بكل ثقل فقدانها، وأتهرّب من تصوّر لحظة خنقها: **لقد حفروا بالجرافات الضخمة حفرة واسعة في حقل الشيخ بشر، شرقي المدينة، وجاءت سيارة القلّاب الكبيرة التي ينقل بها مقاولو البناء رمالاً وحصىً في العادة، جاءت فقلبت هذه المرة كل حمولتها من الرجال والنساء والأولاد، فسقطوا في الحفرة الواسعة وهم يصرخون ويتعلقون بأذيال بعضهم مستغيثين متوسلين، فأهالت الجرّافات التراب فوقهم فوراً ليموتوا في مدفنهم خنقاً. لم يكن لدى جنود سرايا شقيق الرئيس وقت كاف ليرحموهم بالقتل رمياً بالرصاص قبل دفنهم. كانوا على عجلة من أمرهم. ثم تأتي سيارةُ قلّابٍ أخرى وهي تغصّ بحمولتها من الأبرياء المحشورين فوق بعضهم، وحفرة واسعة أخرى، وجرافات تهيل**

التراب فوق الأصوات المستغيثة، ثم ينتهي كل شيء بسرعة. كانوا سبعة آلاف ضحية وكانت أختي خديجة واحدة منهم.. ما أصعب أن تفتح عينيك على الدنيا إذا كانت ستداهمك هذه الصورة إذن؟! (ألف فكرة لاهبة تتصارع في الدماغ بعد ذلك.. صار رأسي مثل بركان.. وصارت الدنيا جهنم حقيقية).

البند الثاني:

يأتيني «درويش» خادم الفندق حاملا طعام الافطار إلى غرفتي. إنه شاب لطيف وأنيق ومهذّب. يسألني عما إذا كنت «آأمر» بشيء. فأجيبه: «لا.. شكراً.. لا أريد أي شيء على الاطلاق». يلقي نظرة على ذقني غير الحليقة ليسألني: «لماذا لاتحلق ذقنك؟». ولكنه يبلع هذا السؤال في بطنه ويمضي.

كان لديّ في غرفتي بفندق العصر عُدّة حلاقة، وفرشاة أسنان، وثياب جديدة وأنيقة جداً وأربعة قمصان جديدة أيضاً، وربطات عنق ثمينة، وزجاجات عطر كثيرة. وهي جميعاً أشياء كان قد جلبها النقيب عناد الذي يبدو أنهم خصصوه لمرافقتي ومراقبتي. فقد نزل في الغرفة المجاورة وقال: «**أنا تحت أمرك في أية لحظة.. ما عليك إلا أن تطلبني بالهاتف**». غير أنني لم أطلبه مرةً ولم أمد يدي إلى أي من تلك «الهدايا»، إلا فرشاة الأسنان. وبقيت مصرّاً على ارتداء ثيابي التي جئت بها من مزرعة الطاحون. وتعمدت أن أطلق شعر لحيتي على سجيته. ربما بسبب روح المشاكسة والمعاندة، أو ربما بتأثير نظرية أمنا شفيقة عن «النجاسة». فهذه الثياب الجديدة والأنيقة التي وفرّوها لي هي ثياب نجسة بكل ما في المفهوم الديني للنجاسة من مدلول الكراهة. أما زجاجات العطر فإنها كانت تثير قرفي. فهي نفس العطور التي ما إن «يتضمّخ» بها أولئك «النخبة» حتى تفوح منهم رائحة الخنازير.

البند الثالث:

الانتقال من الفندق الى القصر بسيارة خاصة يقودها النقيب عناد الذي يجيد فن الصمت. وأنا ـــطول الطريقـــ أظل أترصد كتابات كلمة «**الحرية**» المعلقة فوق أبواب معظم المباني. (**كان الحاج رضوان قد نبّهني إلى هذا: سوف تجد «الحرية» مثل «المشنوق» معلّقةً فوق أبواب المباني التي خصصوا أقبيتها لتعذيب وقتل كل**

من ترد كلمة «الحرية» على لسانه.. ونقيب الأطباء السابق اقتلعوا لسانه لهذا السبب).. فأسأل النقيب عناد:

ــ هل إن «الحرية» هي شعار العهد؟

ــ نعـم

ــ جميل جداً أن يهتم العهد بالحرية كل هذا الاهتمام.

ــ نعـم

ــ واضح جداً أن كل الناس سعداء بما ينعمون به من حرية.

ــ نعـم..

كان النقيب عناد، الذي يجيد فن الصمت، قد كثّف اللغة العربية كلها بكلمتين اثنتين فقط وهما: لا.. ونعم.

البند الرابع:

عيادة «مريضهم» المسجّى في غرفة الموت بالقصر، حيث يستقبلني الدكتور عبداللطيف وهو يبتسم ويفرك كفيه احتفاءً بي، ويهمس في أذني: «**إن حالته تتحسن باضطراد. وهذا يؤكد صواب تشخيصك للمرض والعلاج**». فأشكره وأتأمله من جديد وأنا أزدريه وأعطف عليه في الوقت ذاته.

فهذا الرجل الكهل، والمتخم ثروة وشهرة ومجداً، ما كان أغناه عن قبول منصب «كبير أطباء القصر»؟

(لن تجد الجواب الشافي على هذا السؤال الا بالعودة الى نظرية الحاج رضوان التي تنص على أن الأوضاع فرزت صنفين من عجائب خلق الله: الخنازير.. والكلاب. وإذا كان «دكتور الاتحاد السوفياتي» يمثل أبشع أشكال صنف الخنزير فإن الدكتور عبداللطيف يمثل أوضح نموذج لصنف الكلب). مع أن هذا المسكين لاينبح وإنما هو يكاد يصرخ بين يدي أي خنزير: «**أرجوكم أن تذلّوني.. أتوسل اليكم أن تغمروني بمزيد من الاهانة وأن تُنعموا علي بمزيد من الاذلال والاحتقار. إنني أعرف أنكم مجموعة من المغامرين التافهين القتلة معدومي الضمير والخالين من أية قيمة أخلاقية يمكن للانسان أن يحترمكم إكراماً لها لكنني مع ذلك أشعر بسعادة بالغة لو أعلنتم قبولي خادماً مطيعاً، بل عبداً، بل كلباً متشوقاً**

لأن يلعق أحذيتكم.. اركلوني بأحذيتكم رجاءً)

كان هذا المسكين، على شيخوخته وثرائه العريض ومكانته الاجتماعية الرفيعة، يحاول أن يتملقني بأحاديث الثناء على ما يدعوه عبقريتي وأخلاقي وعزة نفسي. غير أنني ــبالمقابلــ كنت أجد لذة في أن أعذبه بالوخز القاسي. كنت أسأله همساً، ونحن وحيدان في غرفة الخلوة حول جسد مريضنا الغارق في غيبوبته الطويلة:

ــ خبّرني يا دكتور عبداللطيف.. هل صحيح أنهم اختطفوا صديقك العزيز نقيب الأطباء السابق وأخذوه إلى منطقتهم الريفية فسملوا إحدى عينيه في قرية، واقتلعوا عينه الثانية في قرية ثانية، وقطعوا لسانه في قرية ثالثة، وجدعوا أنفه في قرية رابعة، وقطعوا أذنيه في خامسة، واقتلعوا أظافره في سادسة، وبتروا يديه في سابعة، وعندما قطعوا احدى ساقيه في القرية الثامنة كان قد مات فرموا بما تبقى من جثته فوق مزبلة؟.. هل هذا صحيح؟

فيهمس في أذني بصوت مرتجف:

ــ أستر علينا ستر الله عليك يا ابن الحلال.

فأسأله بصلافة أشدّ:

ــ هل صحيح أن كل ذلك التنكيل الوحشي نزل بصديقك الشهيد لأنه دفع رواتب تقاعدية لأيتام الأطباء الذين اغتالهم الطاغية لأنهم اعترضوا على تدخل السلطة في شؤون نقابة الأطباء.

فيتوسل إليّ قائلا:

ــ أرجوك يا دكتور أحمد.. لاتحرجني ولا تورطني.. فأنت سوف تسافر وتبتعد إلى بلادٍ آمنة.. أما نحن(؟!)..

ثم يتلفت خائفاً وهو يدقق، للمرة الألف، في جدران الغرفة وزواياها وفي كل شيء فيها، ويهمس في أذني مذعوراً:

ــ إنهم يصوّرون كل شيء.. ويسجّلون كل شيء..

غير أنني أواصل الهجوم القاسي:

ــ إذن ما دمت تعرف أنهم هكذا فكيف تتعاون معهم؟

فيقول يائساً، بعد أن حُشر في مضيق الاستسلام الخانق:

ـ اسكت يا دكتور أحمد أرجوك.. فأسئلتك هذه تؤكد على أنك لاتعرف شيئاً على الاطلاق: نحن لانتعاون معهم. نحن رهائن عندهم يا ابن الحلال. كل أفراد الشعب ليسوا مواطنين في هذا البلد، وإنما هم جميعاً رهائن في قبضة حاكم البلد.. افهمني جيداً يا ابن الحلال. في السجن الصحراوي وحده، وفي ساعة واحدة فقط، تم اغتيال المعتقلين جميعاً وهم في ثياب النوم. هل تعرف كم كان عددهم؟ أكثر من ألف رهينة. وأنت الآن رهينة أيضاً. فطالما أنت موجود داخل حدود البلد فأنت رهينة. وإنهم يستطيعون أن يقتلوك متى شاءوا.. لاتتوهم بأن جواز سفرك الألماني يمكنه أن يحميك. فهم بعد أن يغتالوك خنقاً في سريرك يرمون بجثتك من أعلى طابق بالفندق الى الشارع، وينشرون قصة محبوكة بإتقان عن حكاية غرام ودوافع عاطفية للانتحار، ليشوّهوا سمعتك بعد وفاتك. وهم إن فعلوا ذلك يكونوا قد رحموك بالموت السريع بالخنق. لأن ما ذكرته عن المرحوم نقيب الأطباء صحيح، وماذا يمنعهم من أن يجرّدوا لحمك عن عظامك وأنت حي؟ من يمنعهم؟.. السفارة الألمانية؟.. يا ابن الحلال انك ستجدهم في السفارة الألمانية يقدمون أحر التعازي، ومناديلهم مبللة بدموع البكاء على ذلك العبقري الذي كان ثمرة لقاح حضارتنا مع الحضارة الألمانية.. يا دكتور أحمد.. الله يرضى عليك دع هذه الأيام الثلاثة تمرّ بسلام.. أرجوك.

البند الخامس:

العودة إلى الفندق وقت الضحى. الناس يتحركون في الشوارع كما تتحرك الدمى. كل واحد يمشي وفي قلبه هم كبير وعلى وجهه قناع سميك. إنه كرنفال المساخر في عيد «خميس الأموات». **(كنا ونحن أطفال نفرح في يوم خميس الأموات، الذي يحلّ مع موسم الربيع، فنرتدي أجمل الثياب ونطوف في الأزقة الضيقة جماعات جماعات، نقرع باب كل بيت ونتوقف عنده منشدين:**

اعطونا زهوركم
حتى النبي يزوركم
سبعة أشكال ثمانية ألوان

لفاطمة بنت عمران
تقرالكم البخور
شمّوا وصلّوا عالرسول).

فأتذكر أولادي الذين تركتهم في المزرعة: سلوى وخالد ووداد وعبدالفتاح وفردوس. سوف أشتري لهم فواكه كثيرة، وحلويات كثيرة، وثياباً كثيرة.. سوف أجعل يوم عودتي إليهم يوم عيد الحياة والفرح.

نصل الى الفندق. أتوجه للصعود الى غرفتي. يحاول النقيب عناد أن يستبقيني في ردهات الفندق «لتتسلى وتروّح عن نفسك» فأصر على الصعود الى الغرفة. فيبتسم ويقول:

ــ يا دكتور أحمد.. إنك تضطهد نفسك بأن تتقيد بتنفيذ الاتفاق الودّي أكثر مما ينبغي.. فالأخوان رجوك بأن لاتتصل بأحد، ولم يفرضوا عليك ــلاسمح اللهــ أن تحبس نفسك في الغرفة.

ــ أنا لاأحبس نفسي في الغرفة.. وإنما أنا أعتكف.. هل تعرف ماذا يعني اعتكفَ يعتكف اعتكافاً.

ذيل للبند الخامس:

سألت نفسي وأنا أغلق عليَّ باب الغرفة لأبدأ خلوتي النهارية مع أفكاري: ما أعجب ذاكرة الانسان!!.. منذ متى وأنا لم أذكر كلمة «اعتكاف» على لساني؟.. منذ كم سنة وهذه الكلمة لاطيةٌ في مكمن معتم بأعماق تلافيف الدماغ؟.. وها إنها تبرز فجأة واضحة معافاة متألقة لتذكرني بذلك الزمن الغابر المجيد، عندما كنت طفلا صغيراً فيحملني أخي رضوان على ساعده المترع بقوة الشباب، ويأخذني معه لنوصل طعام الافطار لأبي المعتكف في المسجد، في الأيام العشرة الأخيرة من شهر رمضان. كان أبي خلال تلك الفترة من كل سنة لايغادر المسجد أبداً. كان يقضي يومه وليله بالعبادة والصلاة وتلاوة القرآن. سألتهم كيف ينام وليس عنده فراش؟.. فأخبروني: إنه لاينام.. إنه يسهر الليل كله متعبداً بين يدي الله.

البنـد السادس:

الاعتكاف النهاري: ها أنذا وحيد في غرفتي. لا أريد أن أرى أي إنسان. لقد شبعت وارتويت و«الصورة» أصبحت واضحة لديّ الى حد أنها ما عادت تحتمل المزيد من التفاصيل. فالمهم الآن هو تنسيق الأفكار، أو التفكير بأسلوب منطقي ومنسّق. ولنبدأ من البدايات:

ـ من أنت ؟.. وأين أنت ؟.. وماذا تريد؟

كنت أجلس أمام المرآة وأسأل نفسي هذه الأسئلة. كانت الغرفة هادئة ومريحة وأنيقة. وكانت مفروشة بأحسن أثاث. وكان فيها جهاز تلفزيون وراديو، غير أنني لم أقربهما قط. وإنما كنت أدور وأدور ثم أجلس بمواجهة المرآة، وأتأمل وجه الانسان الذي أراه فيها. إنه وجه عادي غير مشوه، بينما وجه الزاكي مشوه. وإلا فلماذا يتشبث بستره تحت اللثام؟. «محروق الصفحة يخجل من وجهه فيتلثم حتى أثناء النوم». هكذا كان يقول أخي أثناء حملاته التشهيرية ضد الزاكي. وكان إبّان كل حملة يضحك وهو مضطجع فوق طرّاحته الأثيرة ويواصل هجومه الناقد على ذلك الشاب الخجول الواقف أمامه خافض الجفنين عاقد اليدين: «**لا فائدة منك يا محروق الصفحة. دماغك يابس. ألف مرة حكيت لك قصة عنترة وأنت ترفض أن تفهم المغزى. مع أن حالك أفضل من حاله. فأنت لم أسمع أحداً يعيّرك بالقبح بينما عنترة كانوا يعيّرونه بسواد جلده ألف مرة في اليوم. كل رجال القبيلة ونسائها كانوا يعيّرونه بسـواد جلده. حتى أبـوه كان يهمله ويتأفف منه لسـواد جلده بالذات، أي بسبب واقعةٍ لم يكن لعنترة يدٌ فيها. لأن السواد والبياض شيء من الله تعالى. ونحن غير مسؤولين عن شيء لم نصنعه نحن. بل إن الايمان الحقيقي يفرض علينا احترام ما شاء الله أن يكون. أعرج أطرش أخرس أكتع تلك مشيئة الله سبحانه وتعالى. فهو الخالق وهو حرٌ في مشيئته، وعلينا أن نحترم مشيئته جل جلاله. انظر يا زاكي الى شعر رأسي. أليس كله بياض؟ هذا هو الشيب. هذا قانون الشيخوخة الذي أراده الله. لذلك فإنني مستعد لأن أقلع عين أي حمار يعيّرني بالشيب. بالعكس يا زاكي: جمال القانون أن يكون كاملًا. لذلك فجمال الشيخوخة أن يكون وجه الشيخ مكللًا بالشعر الأبيض الوقور.. خبّرني يا زاكي:**

عندما ترى شيخاً عجوزاً بشعر مصبوغ بالأسود ألا تشعر بالغثيان؟

كان الزاكي يواصل تمسكه بالصمت. لكنه كان يتململ راغباً في الوصول الى النتيجة. لذلك فأنا أساعده بأن أتدخّل فأطرح هذا السؤال:

ــ والنتيجة يا حاج رضوان؟.. ما هو مغزى الكلام؟

ــ النتيجة واضحة ومعروفة. وهي أن الانسان يجب عليه أن يخجل من عمل قبيح ارتكبه هو بإرادته هو. فالانسان مسؤول عن أعماله هو. لذلك فإننا نصنفه قبيحاً أو جميلًا حسب أفعاله هو.. أتدرون من هو أول من اكتشف هذا القانون بين كل أفراد قبيلة بني عبس، إنها أم الفوارس عبلة التي كانت أجمل أنثى في القبيلة فاكتشفت أجمل فحل في القبيلة.. رفضت عبلة مقاييس اللون والشكل والمظهر الخارجي ونظرت إلى الجمال من منظور أفعال عنترة: الشهامة والمروءة والشجاعة والدفاع عن الأرض والعرض، والاندفاع الى درجة الاستشهاد في حماية قيم الشرف. هذا هو الجمال..

ثم ينظر أخي إليَّ ويقول:

ــ بهذا المعنى، وضمن هذا المنظور، فأنا أرى ولدي الزاكي أجمل من عليها.

فيقول الزاكي بعفوية رائعة:

ــ عمي.. أنا لاتهمني شهادتك أنت.. أريد أن أسمع هذه الشهادة من البنات..

فتضج القاعة بالضحك.. ما كان أجمل سهراتنا في مزرعة الطاحون!!

ثم أصحو إلى نفسي، وأنا معتكف في غرفتي بالفندق، فأتساءل: أليس الزاكي، هذا البدوي الجاهل المشوه، أفضل مني؟.. ها إنني أسمعه، لحظة الوداع، وهو يسحب يده من يدي ليقول: «خير لي أن يظل وجهي مشوهاً من أن أترك أهلي وحدهم وهم بحاجة إليَّ».. وحين نظرت إليه من نافذة الطائرة وهي تُقلع رأيته يلوّح لي بيد، وبيده الاخرى كان يمسح دموعه. **إنني أقف خاشعاً مستغفراً بين يديك يا زاكي.**

ثم أقول للبروفسور أحمد الفشاش الجالس بمواجهتي في المرآة: إنني أبصق على الثقافة وكل ما حققتَهُ من انتصاراتٍ علمية وأمجاد وشهرة، ما دمت تبرر لنفسك خيانة التهرب من واجب الشرف حيال وطنك وأهلك..

وأقوم من أمام المرآة منهكاً واهن القوى، كأنني أقوم من فراشٍ انتكاسة حمّى قاتلة.. فأجرّ الخطى الى النافذة المفتوحة على العاصمة، وأتكىء على حافة النافذة وأمد رأسي ليسرح نظري بعيداً بين المآذن والقباب والبيوت والبنايات العالية والأسواق والشوارع والسيارات والناس الذين أحبهم وأعطف على همومهم. (**كان الله في عونكم أيها الناس**). ثم أقول مقرّعاً الانسان الجبان أو المتهرب أو الكذاب المختبىء تحت قشور نفسي: (**بدلًا من أن تتكرم عليهم بدعاءٍ أخرس لاجدوى منه لماذا لاتكون معهم يا أحمد؟.. هل يكفي أن تقول «أحبكم يا أبناء شعبي» ثم تتركهم وتهرب الى بلاد بعيدة لأنها وفرت لك الأمن والاستقرار والاحترام؟**).

فأغلق النافذة وأتراجع فأرمي بنفسي فوق السرير، وأضطجع تاركاً لأفكاري أن تسرح حرة كيفما تشاء. وإلا فإنني لن أصل إلى نتيجة ولن أخرج من هذا المأزق أبداً. لأنني عندما حاولت التقيد بالتفكير المنطقي المنسق كدت أموت. فقد سألت نفسي وقتها:

ـ بقاؤك هنا يعني أن تترك في ألمانيا بناتك الصغيرات عائشة وسكينة وخولة، وأن تترك هيلدا النبيلة.. وبقاؤك هنا، يا حضرة المحترم، يعني البقاء للنضال والجهاد. وها أنت رأيت مصير الذين سبقوك على هذا الطريق. فالطاغية وخنازيره وحوش لاترحم، ولا يمكن اللعب عليها.

وكنت أجاوب نفسي:

ـ **لو أن صحابة رسول الله فكروا بهذا الأسلوب العفن والمتقيح لما انتشرت للاسلام راية**.. ولو أن شهداء الحركات التحررية فكروا بهذا الاسلوب الجبان والانهزامي لما حققت الانسانية ما حققته من تحرر وتقدم.. عليك أن تبيع كل شيء يا أحمد حتى يحق لك أن تتشرف بـ...... ثم مالك تخاف الموت؟.. ألست أنت الذي تؤمن بأن نبينا العظيم محمداً هو أعظم إنسان في العالم؟ ألست واثقاً من نصيحة واحد من أعظم وأنجب تلاميذه خالد بن الوليد في كلمته الخالدة: «اطلبوا الموت توهب لكم الحياة»؟

فيقول الشق العاقل من نفسي:

ـ **إنها ليست مسألة موت أو حياة يا دكتور أحمد.. بل إنها مسألة عقل**

ومنطق وتفكير هادىء.. ما العمل؟ من أين نبدأ؟. كيف ننقذ وطننا وشعبنا؟.. هل نزيح عن صدر أمتنا هذا الكابوس الرهيب.. مرة ثانية أسألك: من أين نبدأ؟

فأجاوب نفسي:

ـ نبدأ من الحرية.. من الديمقراطية.. من حق كل أبناء الشعب في أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم بالتفاهم والحوار والاتفاق..

فيقول الشق المتخاذل:

ـ غير أنك لا تعرف شيئاً من أسرار هذا الاختصاص العلمي الدقيق. أنت مختص بأسرار علم الطب ولا تعرف شيئاً في أسرار علم السياسة.

فيرد عليه الشق الثائر بنبرة تقريعية:

ـ يا ذكي.. الحرية والديمقراطية وكل القيم الوطنية السليمة لاتأتي من صفحات الكتب، وإنما تنبع من الايمان. والايمان حين يكون حقيقياً وعميقاً ومخلصاً فإنه يصنع العجزات. حرٌ واحد يهتف صارخاً: «هبّوا هبّوا أيها الأحرار.. حطموا قيودكم.. اقتلوا الطاغية».. هذا الحر الواحد كفيلٌ بصرخته أن يفجر حريات الملايين. لكن بشرط أن يهتف بصيحته بإخلاص..

يرن جرس الهاتف... هذا صوت درويش:

ـ هل تحب أن أجلب لك طعام الغداء الى الغرفة يا سيدي؟

ـ لا .. شكراً .. سأنزل الى المطعم.

صرت أخشى أن أموت مسموماً.. فكنت أنزل الى المطعم فأختار لقيمات من مآكل المائدة المفتوحة. وأسرع بالعودة الى غرفتي لأنام.

البند السابع:

رحلة المساء المقررة من الفندق الى القصر لعيادة المريض. من خلف زجاج النافذة ألاحظ أن صور شقيق الرئيس، التي كانت تغطي واجهات المخازن التجارية في الصباح، قد أزيلت الآن وحلت محلها صور الرئيس ذاته.

التفت الى النقيب عناد، الذي يقود السيارة صامتاً، وابتسمت.. إنني أكون حماراً حقيقياً لو سألته أن يخبرني عن سبب إغراق أسواق العاصمة بصور هذا

الوغد، شقيق الرئيس، أثناء مرض أخيه. هل كان مستعجلًا وفاة أخيه إلى هذا الحد؟.. وهل إن تلك المشادة الكلامية التي حدثت بيني وبينه سببها أنني «فجعته» بنبأ «عدم وفاة» أخيه؟.. لقد ثار غضبه بشكل جنوني أخرق. وإنه لن يجد أية غضاضة في أن ينتقم مني؟.. لكن ماذا يستطيع أن يفعل؟..

انقبض قلبي حين وسوس لي الشيطان بأن ذلك الوغد الأخرق قد يعتدي على أهلي في مزرعة الطاحون.. هذه الخاطرة السوداء ملأت نفسي ذعراً وقلقاً. ماذا أفعل؟.. كيف أستطيع تحذير أهلي من هذا الخطر الأكيد؟

البنـد الثامـن:

نصل إلى القصر. يستقبلني فريق الأطباء بنظرات المهابة والاعجاب الشديد، يتقدمهم الدكتور عبداللطيف الذي يفرك كفيه بحماسة أشد وهو يخبرني بفرح أكثر:

ــ حالة مريضك تتحسن باطراد رائع يا دكتور أحمد.. لقد بدأ يفيق من غيبوبته على فترات متقطعة، ويفتح عينيه، ويحرك يديه، ويحاول أن يتكلم أيضاً.

ــ في الغد يتكلم. إنني واثق من ذلك. وفي كل يوم تزداد فترات صحوه وتطول.

وندخل غرفة المريض أنا والدكتور عبداللطيف ونغلق خلفنا الباب. ها إن بوادر الحياة قد بدأت تعود الى هذا الوحش الذي أراه أمامي الآن على شكل جسدٍ بشري نائم فوق سريره.. وها إنني أبدأ بسؤال كبير أطباء القصر:

ــ يا حضرة الزميل الشيخ.. هل تنطبق علينا أحكام قَسَم أبقراط؟

فيسألني مندهشاً:

ــ ماذا تعني يا دكتور أحمد؟

ــ أعني أن الطب مهنة إنسانية. والطبيب يحلف يمين التخرُّج بأن يكون إنسانياً مع مريضه..

فيقول:

ــ أي نعم.. هذا قَسَم أبقراط.. وهو معروف..

ــ ولكنه قسم مشروط ضمنياً بأن يكون المريض، الذي يجب أن ينقذه

الطبيب، انساناً.. فهل هذا المخلوق المتمدد أمامنا على سرير الرئاسة إنسان أم وحش؟..

فيرتجف خوفاً ويقول لي باضطراب شديد:

ــ ما هذا الكلام يا ابن الحلال.. استر علينا الله يستر عليك..

فأصر مشدداً:

ــ لا.. لا.. هذه مسألة ينبغي البت فيها.. انظر الى هذا المخلوق الكريه النائم في غيبوبته الطويلة فوق تخت الرئاسة.. تأمله جيداً وخبّرني هل هو إنسان؟.. ولكن قبل أن تنطق بحكمك خبّرني: هل إن ما يميز الانسان عن حيوانات الغابة هو شكل جسده أم فعاله؟... ثم خبّرني عن فعال هذا المخلوق الكريه ألم تتجاوز في همجيتها وشراستها بشاعات فعال أضرى وحوش الغابة.. بل خبّرني: لو أننا جمعنا كل وحوش الغابات وأطلقناها على سكان مدينة محاصرين بسور من نار، فهل تستطيع أن تأكل أربعين ألف إنسانٍ أعزل بريء خلال تلك الفترة الزمنية القياسية؟.. ثم خبّرني: لماذا كان هذا الوحش مغرماً بلحوم الأطفال بالذات؟.. ثم خبّرني: لماذا، حين كانت تتاح فرصة المفاضلة بين الموت والحياة، كان أعوان هذا الوحش يختارون من بين الحشد الأطباء والمهندسين والمعلمين وكل من يحمل شهادة عالية، فيأخذونهم للقتل ويطلقون سراح الباقين؟..

كانت كل هذه الخواطر تفرض نفسها بقوة ضاغطة، وأنا أتفحص حالة مريضي النائم، وأضغط على نفسي حتى لا «أبتلي» كبير الأطباء، فأرفع بصري إليه، فألاحظ أن لديه سؤالًا.

ــ مالك يا دكتور عبداللطيف.. كأنك تريد أن تطرح عليّ سؤالًا تظنه أنت محرجاً.

ــ بلى.. في الواقع.. الحقيقة أنني محرج غاية الاحراج.. فالزملاء أطباء القصر الذين رأيتهم الآن، معجبون بك كثيراً، ويتساءلون عما إذا كنت مستعداً لأن تتكرم فتجلس معهم بعض الوقت في القاعة الشرقية، لأنهم يحبون أن يسألوك بعض الأسئلة الطبية.

ــ وما الداعي لكل هذا الارتباك.. إنني مستعد لأن أجيب على كل تساؤلاتهم.. تفضل معي.

كانوا حوالي عشرين طبيباً، من مختلف الاختصاصات ومن أعمار متفاوتة. استقبلوني بحفاوة بالغة، وصافحوني بحرارة وهم يكيلون عبارات الاعجاب والثناء والمديح. وانصبت أسئلتهم الطبية في وعاء هو: «**كيف فعلت حتى أنقذت السيد الرئيس بعد أن كان حالة ميئوساً منها؟**».

ــ اسمحوا لي أن أصوغ السؤال على النحو التالي: **لماذا أردت مخلصاً أن لايموت هذا الشخص بالذات؟!**

فتبادلوا نظرات الدهشة والاستغراب، وساد القاعة جو من الفضول الشديد والقلق والتخوف أيضاً. ماذا أقول لهم؟.. هل أخبرهم بالحقيقة؟ أم أنه لا الوقت ولا المكان مناسبان لالقاء القنبلة التي ستدمر كل شيء؟.. إذ كيف أخبرهم بأنني أردت لهذا الوحش أن لايستريح بالموت بل أن يظل حياً فيتعذب برؤية نتائج بعض ما جنته يداه الغارقتان في الدماء؟.. **إن معظم طغاة التاريخ هربوا من هذا العذاب بأن ماتوا سريعاً. وبعد وفاتهم تتفجر مضاعفات كل جرائمهم بردّات سلبية انتقامية ربما كان أبسطها قتال ورثتهم مع بعضهم قتالاً يدمر بنيان الطغيان كله.. إذن كم هو جميل أن يعيش هذا الطاغية الهمجي فيرى قتال ضواريه مع بعضهم، ويرى مذابح أفراد عصابته وهو أعجز من أن يستطيع أن يفعل شيئاً لأنه مشلول.. وكم هو جميل أن يعاني سكرات الموت في اليوم الواحد ألف مرة بدلاً من أن يموت مرة واحدة ويستريح.. ما أجمل أن يجرع كأس الذعر الرهيب الذي سقاه لآلاف الضحايا الأبرياء أثناء تلويح الموت بمنجله القاطع؟!.. والأهم من كل هذا وذاك: ما أجمل أن يشعر بذله وضعفه حيال المرض، وما أجمل أن يشعر بصغره وتفاهته وهوانه الى حد يجعله ــ أخيراً ــ يستغيث متوسلاً: «ياألله»، هو الذي ظن نفسه ــ طول فترة طغيانه ــ أنه هو الله، وأنه هو الذي يحيي ويميت، وأنه هو شخصياً ومنفرداً عن كل مخلوقات الله سيظل حياً خالداً إلى الأبد ولن يموت، إذ كيف يموت ما دام هو الله ذاته؟!..**

لا.. لا.. ينبغي العمل على...

لم أقل كلمة من كل هذا في حضرة الأطباء المتلهفين لسماع الجواب، وإنما اكتفيت بأن قلت لهم:

ــ أنا لم أصنع معجزة، فالرجل سيظل مقعداً مشلولاً، وقد يستطيع أن يتحرك

حركات بسيطة، وينعم بفترات صحو ذهني يمتلك فيها قدراته العقلية بوعي كامل، سباعةً أو ساعتين في اليوم.. وأظن أنه اعتباراً من الغد سوف يكون بمقدوره أن يحرك لسانه وقد يتكلم. **وأظن أنه ما إن يستطيع النطق حتى يقول: «أنا دخيل الله» وهو يذرف الدموع. ذلك أن الغدد الدمعية ستكون من أنشط الأعضاء فعالية لديه. أظن أنه سوف يبكي كثيراً.**

ثم أسألهم:

ــ أليس بينكم زميلٌ طبيب أسنان؟

فيشيرون الى رجل فاضل:

ــ هذا الدكتور أسعد أمهر فنان في معالجة الأسنان بلا ألم.

ويسألني هذا الرجل الفاضل عما إذا كنت أعاني من أي ألم في أسناني، ويعرض استعداده لاصطحابي معه الى عيادته في الحال لمعالجتي.. فأخبره بأنني لاأشكو من أي ألم، وإنما لي أخ شقيق اسمه زاكي بحاجة الى عملية تقليح وتنظيف لأسنانه.. ثم أتفق مع زميل آخر بأن أستخدم مشفاه لاجراء عملية تجميل لشفة هذا الشقيق ذاته.

ها إنني أشعر بالارتياح وأنا أتذكر واحداً من أهل المزرعة التي سوف أقضي فيها بقية عمري.

البند التاسع

العودة الى الفندق وقت بداية السهرة، لأتناول طعام العشاء، وأعتكف في ظلام الفرقة وحيداً، وأنام.. غير أن هذا البند بالذات استعصى عليَّ تنفيذه. فقد كانت تنتظرني في الفندق مفاجأة. فقد وجدت أمامي شخصاً لم أكن أتوقع أن أراه.

الفصل الخامس عشر

استقبلني أبو ضاوي عند مدخل الفندق ضاحكاً، كأنه قد جاء لتوّه من قلب نكتة مرحة ومضحكة جداً وقال لي وهو يتدفق حيوية ومرحاً:

ــ الليلة ستخرج عن نطاق الهمّ والكآبة غصباً عنك، وستضحك من صميم قلبك ضحكاً لم تعرفه في حياتك. فقد أعددت لك سهرة خاصة على عشاء خاص يحضره أطرف مهرج في البلاد. **إنه نقيب الصحافة**. وقد أوهمته بأنك ضيف من مصر.. أظن أنك قادر على أن تتحدث باللهجة المصرية. فأنا لا أريد أن يعرفك.

فقلت:

ــ أشكرك.. لكن نفسي ميالة لأن أعتكف الليلة في غرفتي.

فقال معاتباً:

ــ يا رجل.. هل كفرنا لأننا رجوناك بأن لاتتصل بأحد؟!.. لقد أخبرني النقيب عناد عن مدى تقيدك بالعزلة والتوحّد، حتى جعلتني أشعر حيالك بالتقصير والذنب لما حل بك من ملل وسأم وضجر.. فهل هذا ما أريده لك حقاً وأنت الذي كنت توفر لي كل أسباب الارتياح النفسي كلما كنت أزورك في فيسبادن؟ لا تظلمني يا دكتور أحمد.. فأنا أريد أن أردّ لك بعض الجميل، فديونك عليَّ كثيرة، وفي كل مرة كنت أتوسل إليك بأن تأتي لزيارتنا، وها إنك قد جئت للزيارة أخيراً، فهل من العدل أن نقضيها سأماً وكآبة؟!.. هيا يا صديقي.. اصعد إلى غرفتك فاحلق ذقنك وارتد ثياب السهرة وتعال.. نحن ننتظرك في رواق الأندلس.. ولا تتأخر علينا حتى لاتفوتك نكات نقيب الصحافة التي تزيل الهم عن القلب.

قلت مستسلماً:

ــ إذن هيا بنا إلى حفلتك مباشرة.. فأنا لن أبدل ثيابي.

ومشيت معه، وجاء النقيب عناد خلفنا. ولم يكن رواق الأندلس بعيداً، ولكنني لم أكن أتوقع أن أراه في الليل جميلًا إلى هذا الحد. ربما بسبب البراعة في توزيع الأضواء الخافتة فيه. إنه فسحة مكشوفة تتوسطها نافورة ماء أندلسية لطيفة، وتظللها عرائش الياسمين التي يفوح من نجوم أزهارها البيضاء عطر أخاذ، وهناك تزيينات رخامية على شكل قناطر ومصاطب وأصص أزهار معلقة، وهناك مائدة واحدة يجلس حولها أربعة ضباط لاتخفي ثيابهم المدنية كونهم من أقرب أعوان جعفر الضاوي، ومنهم واحد يرتدي نظارة سوداء، ربما لأن إحدى عينيه من زجاج. وكانوا ــ عندما وصلنا إليهم ــ يضحكون وهم مأخوذون بهذا المهرج نقيب الصحافة الذي ما إن رأيته حتى شعرت بأنني **أتلقى صفعة قاسية جداً. ليتني ما جئت إلى هذا العشاء. إن خنجراً قاتلًا ينغرس في قلبي. إن هذا «المهرج» الآن هو «النمر» سابقاً**. وقد عرفته من أن لمحة. وكدت أصرخ بوجهه: **«ماذا فعلت بنفسك يا صادر جلعوط؟.. وأين صار سيف الله؟»**.

كان صادر جلعوط رفيق صباي في آخر سنة بالدراسة الثانوية. بل إنه كان مثلي الأعلى، لابل إنه كان زعيم طلاب المدرسة جميعاً. إنه الفتى الرائع الذي سحرنا بشجاعته وجرأته وذكائه وتفوقه في العلوم كافة واندفاعه الى الصف الأمامي في كل عمل وطني أو مشروع ثقافي أو اجتماعي. بل إنه كان صاحب فكرة إصدار مجلة طالبية جعل عنوانها «الوثبة» وجعل شعارها:

شَرَفُ الوثبة أن ترضي العُلا غَلَبَ الواثبُ أم لـم يغلب

فقد كان «النمر» شاعراً أيضاً. وكان سريع البديهة سريع العطاء. وذات يوم دعينا الى بيت رفيقنا «وجيه محنّاية» للغداء. **(كان وجيه محناية مغرماً بفن الرسم. لذلك فإنه صار معلم رسم. وعندما قرأت كتاب «مأساة العصر» وجدت اسمه بين أسماء الـ ٥٦٤ معلم مدرسة الذين اغتيلوا أثناء تلك المذبحة الهمجية المروعة)**

وما إن دخلنا بيت وجيه الذي كان يعبق بدخان شواء الكبة من منقل الفحم، وجاءتنا **أقراص** الكبة المشوية المثيرة للعاب، حتى قَدَحَ النمر هذين البيتين:

وكَبّةٍ قـد أكلناها علـى سَغَبٍ في منزل الفَطِّنِ فنان الدُّنى الأَرِبِ
جاءت وقد وضعت في الصحن ساخنةً خدُّ الفتاة التي ماتت من الطرب

هذا هو «المهرج» الذي يريد أبو ضاوي أن يسعدني بالضحك عليه الآن.. وقدمني إليه على أنني صديق من مصر. اسمي عبدالرازق حلمي. وحينما صافحته كدت أصرخ في وجهه: «**كفى.. كفى يا صادر.. كيف تقبل على نفسك أن تكون المهرج الذي يُضحك هؤلاء الحثالة من المجرمين؟**»

غير أنني لاحظت أنه وهو يصافحني لم يعرفني.. بل إنه بادرني سائلًا باللهجة المصرية:

ــ تشرفنا يا سعادة البيه.. إزّيك وازاي مصر؟.. إجلس حتى أحكي لك آخر نكتة مصرية.

وواصل تدفّقه في سرد النكات، والآخرون يضحكون، وأنا **أتأمله** مبهوتاً.إنه حليق الشاربين.. **أين ذهب شارباك يا صادر؟.. أين وجه النمر؟**

كنا، في ذلك الزمن الرائع، نلقبه «النمر» لضخامة شاربيه وبريق الفحولة في عينيه. كان له وجه نمر وطموح بطل. وهو لم يخيب حدسنا. فقد جاءنا في صباح أول يوم من أيام الامتحان ليخبرنا بأنه رأى في المنام خالد بن الوليد، وأن هذا البطل العظيم الذي كان يتوهج نوراً وجلالًا قدّم له سيفاً من ذهب وقال له: «**أيها النمر.. هذا سيف الله مني إليك.. احمله واضرب به أعداء الأمة**». وكان صادر ــ يومذاك ــ يروي لنا حلمه الرائع بصدقٍ وخشوع.. ثم قال: «**معنى هذا أنني عندما تصدر نتائج الامتحان مؤكدة نجاحي بتفوّق فإنني ساتوجه للانتساب الى الكلية الحربية. سأصير ضابطاً في الجيش العظيم الذي كان خالد ثاني مؤسسيه بعد نبينا محمد**».

وافترقنا من ذلك اليوم، هو إلى الكلية الحربية وأنا إلى ألمانيا. وها إن الذاكرة ــ هذه الفعالية النفسية العجيبة التي تغفو على منسياتٍ تراكمت فوقها مشاغل عشرين سنة ــ تنتفض في لحظة خاطفة فتطرح إلى دائرة الضوء الساطع كل المعلومات المنسية بأدق تفاصيلها وأبهى وضوحها: مجلة الوثبة، والنمر، وسيف الله، وحتى الشعر.. رغم أنني كنت مشهوراً بعجزي عن حفظ الشعر..

وها إن الرجل جالس أمامي، على مائدة العشاء، في صورته المزرية والمخجلة: أمعط الوجه كأنه متعهد توريد أرتيستات، بل كأنه المرافق الخاص لمطربة أو راقصة شهيرة. يمشي خلفها كالظل، ويلازمها بمذلة كلب، ويفاخر بتصفيق الجمهور «للست» كأنه يعتز باتصارٍ وطني عظيم.

كانت ربطة عنقه على شكل فراشة سوداء، ووجهه الأمعط يلمع بالزيت الذي دهن به الشعر القليل الملتصق بصلعته. وكانوا يضحكون لنكاته وتهريجاته ويحثونه على المزيد وهم ينادونه بلقب «دكتور».. دكتور بماذا؟

حين طرحت هذا السؤال، بأسلوب مهذب، سألني أبو ضاوي مستغرباً:

ــ إذن أنت لاتعرف هذا؟.. حضرة النقيب دكتور في الصحافة من جامعةٍ لم أستطع أن أحفظ اسمها، لأنها تقع في مدينة ضائعة على سفوح جبال هيمالايا.

ــ وما الذي أوصله الى تلك المجاهل البعيدة؟

ــ كان ملحقاً عسكرياً بسفارتنا بمملكة النيبال.. ووجدها فرصة سانحة لأن يسافر الى تلك المدينة البعيدة التي يصعب حفظ اسمها، فيتفق مع أستاذ في جامعتها على أن ينال شهادة دكتوراه في موضوعٍ لم يسبقه إليه أحد، وهو: **«التاريخ السري للتراشق بالأحذية في البرلمانات البورجوازية»**. وقد وافق ذلك البروفيسور الجليل، بلفّته الهندية الضخمة، ولحيته البيضاء الطويلة، وعقود المسابح المتدلية فوق صدره، وفقره المدقع، وافق على أن يقوم بتأليف «رسالة» الدكتور صادر جلعوط، باللغة الانكليزية طبعاً، لقاء حفنة دولارات، وثوبين جديدين، وصندوق ويسكي.. يا بلاش.. وقد استغرقت العملية ثلاثة أشهر على ما أظن.

فقال النقيب الأمعط معترضاً:

ــ لا يا أبا ضاوي.. حرام عليك.. فلقد أعطيته ــ شهد الله ــ صندوقي ويسكي اثنين لا واحدا.

فانفجر الجميع ضاحكين.. وأنا قررت الاستسلام فضحكت معهم. الواقع أنني ضحكت على سخفي.. فبعد أن رُوّعت باكتشاف مدى التفاهة التي انحط إليها من كنا ننظر إليه على أنه «النمر» وكان ينظر إلى نفسه على أنه جدير بأن يحمل سيف الله، لم يبق أمامي إلا أن أترك كل شيء ينهار ريثما تنتهي هذه السهرة الفضيحة.

غير أن رمقاً من نزعة الفضول الغريزية في الانسان الطبيعي دفعني لأن أسأل:

ـ ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

أجاب أبو ضاوي باستخفاف:

ـ ماذا سيحدث؟.. لا شيء.. رجع سعادة الملحق العسكري الى الوطن، وبما أن الثورة محتاجة لخدماته في مهام ثقافية رفيعة فقد تم تسريحه من الجيش وكُلّف بمهمة رئاسة تحرير جريدة الثورة. خطوة أخرى إلى الأمام، صار نقيباً للصحفيين كما ترى.

ثم التفت أبو ضاوي الى سيادة النقيب قائلًا:

ـ مالك يا دكتور صادر؟. ضيفنا مهتم بك كل هذا الاهتمام وأنت تهمل واجباتك حياله؟

فتساءل النقيب التافه:

ـ أستغفر الله.. خبّروني بماذا قصّرت يا سيدي؟

فأمره أبو ضاوي:

ـ قم إلى المطبخ وسلهم أين صار العشاء؟ ضيفنا جاع.

فنهض النقيب مضطرباً وهو يقول:

ـ أمركم سيدي.. أرجوكم عدم المؤاخذة.

وأسرعَ في الذهاب.. ترى هل يمكن أن يُزدرى إنسان إلى هذا الحد؟.. قلت:

ـ عفواً.. أما كان بمقدورنا أن نكلف أحد الخدم بهذه المهمة؟

فأفادني أبو ضاوي بالمعلومة العجيبة التي تؤكد على أن الدكتور صادر قلعوط يشعر بسعادة كبرى عندما يكلفه «أحد المسؤولين» بمهمة من هذا المستوى. لأن ذلك يعني أنه ما زال مرضيا عنه.

وتكلم الرجل ذو النظارة السوداء والعين الزجاجية فأوضح المعلومة ذاتها قائلًا:

ـ هؤلاء أناس كلما أذللتهم أكثر كلما أخلصوا لك أكثر.. وخصوصاً هذا الانسان الرخيص.. أراهنكم على أنه مستعد لأن يكون قواداً عند الطلب.

استفزني هذا الايضاح الجارح فسألت ذلك الأعور وأنا أضغط على أعصابي.

ـ ألا تظن أنك تبالغ يا حضرة الأخ؟

ـ لا.. أبداً.. بل إن هذا الرجل أتفه من قواد.. إذ ماذا تقول في رجل ذُبح من أهله أربعون ألفا ولم يجرؤ على أن ينشر في الصحف كلمة واحدة حول هذا الخبر الفظيع. مع أنه رئيس تحرير ونقيب صحافة.

تحركت أمعائي حركتها اللئيمة التي تضغطها مشاعر التقزز والتقيؤ، فنهضت مستأذناً بالذهاب الى غرفتي لأنني متعب، وقد شبعت أكلًا من صحون المقبلات.. وتركتهم ومضيت مسرعاً. وتعمدت أن أتوجه نحو المصعد من ممر آخر لا ألتقي فيه «النمر». غير أنني وجدته واقفاً عند المصعد، وهو يبكي غامراً رأسه بيده المستند بها الى الجدار الرخامي اللماع. **كان يبكي وينشج بصوت مسموع.**

قال لي دون أن يرفع رأسه:

ـ لماذا جئت يا أحمد؟.. ما الذي جاء بك يا أحمد؟

ثم أشاح بوجهه ومشى نحو ركن المغاسل.

وأنا صعدت إلى غرفتي وقعدت في الظلام أبكي وأبكي إلى أن أدركني النوم وأنا مضطجع بثيابي.

الفصل الأخير

جاء الفرج

في مساء اليوم الثالث سلّمتهم رئيساً يستطيع أن يحرّك لسانه لمدة نصف ساعة، وسلّموني الطريق إلى الطائرة السمتية.

كانت تغمرني مشاعر فرح لايوصف، وكانت تجرفني دفقة شوقٍ هائل:

هل صحيح أنني سأصل بعد ساعة إلى مزرعتنا فأعانق الأطفال سلوى وخالد وفردوس وعبدالفتاح ووداد، وأملأ قلوبهم بالسعادة والسرور؟: «**انظروا كم جلبت لكم من الهدايا والفواكه والثياب والحلويات**».

هل صحيح أنني سأعود إلى الحاج رضوان وأمنا شفيقة وتلك المرأة الرائعة مقطوعة اليدين.

وأنت يا زاكي.. انظر ماذا جلبت لك؟.. لقد جلبت لك كوفية جديدة لتتلثم بها للمرة الأخيرة لأنني جهزت كل شيء لاجراء عملية التجميل.

كان النقيب عناد يقود الطائرة بثقة واعتزاز وصمت. ولم يكن معنا في الطائرة إلا هذه الصناديق الكرتونية التي تحتوي الهدايا.

كنت من نافذة الطائرة أرى القمر مبتهجاً أيضاً.. ما أشد بهاء نور القمر الليلة؟! وما أجمل هدوء هذه الامتدادات الصحراوية تحتنا!.. ما ألطف هدوء البادية!.. إنها سرير الأمان والراحة والسلام. «يا حاج رضوان أنا لن أغادر هذه المزرعة أبداً. سأجلب زوجتي وبناتي من ألمانيا ونعيش معكم هنا، في هذه المزرعة، في هذه الجنة، تحمينا هذه البادية الطاهرة من السموم التي أفسدت كل شيء.. فكل شيء خارج

هذه الواحة صار فاسداً يا حاج رضوان. كل شيء. الهواء والطعام والشراب والناس والكتب والثياب. إنه وباء الطاعون. إنه سرطان الدم الذي استشرى واستفحل في كل الشوارع والبوت والنفوس. إنه مجتمع الشياطين.. إذن دعني أعيش هنا في المزرعة إلى أن تستريح أعصابي وتنضج أفكاري على مهل، في هذا الجو النقي الطاهر. وبعد ذلك فإنني.....

قال النقيب عناد:

ـ ها قد وصلنا يا دكتور.. لكنني لا ألمح أي ضوء في مزرعتكم.

انقبض قلبي. غير أنني حين نظرت من النافذة لم أرَ إلا أن رقعة المزرعة أكثر سواداً من السهول الترابية المحيطة بها. وكان ضوء القمر ساحراً. فقلت.

ـ ربما كانوا نائمين.

وازداد خفقان قلبي.. ويا أيتها الطائرة المشكورة شكراً جزيلًا حطّي على الأرض. أريد أن ألاقي أحبابي. إن وطأة الشوق التي أحس بها الليلة وأنا لم أغب عنهم إلا ثلاثة أيام هي أشد من كل مشاعر الحنين التي انتابتني خلال العشرين سنة بعاداً في ألمانيا.. على أن الشوق وفرحة الوصول راحا يترجرجان فوق أسلاك شائكة من القلق الغامض والخوف من كارثة.

أخيراً حطّت الطائرة. وأوقف النقيب كل المحركات ونزل معي وراح ينقل صناديق الهدايا بعناية ويضعها على الأرض. كنا على بعد حوالي مائة متر من السياج. سألني:

ـ هل تحب أن أنقلها معك إلى المزرعة؟

ـ لا.. شكراً.. نتركها هنا ويأتي الزاكي فيحملها.

وصافحته مودّعاً وشاكراً، فرجع إلى طائرته وأقلع وطار بعيداً. أما أنا فقد أسرعت راكضاً إلى بيت المزرعة وأنا أهتف صارخاً وبفرح هائل:

ـ يا حاج رضوان.. يا زاكي.. يا حاج رضوان.. يا زاكي.

كنت أصرخ وكأنني كلّما رفعت الصوت أكثر غلّبت مشاعر الأمل والفرح على توجسات الخوف والقلق. غير أن صراخي لم ينفع. إذ أنني لم أسمع أي صوت، ولا لمحت بصيص ضوء.. ماذا حدث؟

وعندما وصلت إلى السياج صرت أرى الأشياء بوضوح أكثر.. ماذا حدث؟. ها

إن معظم أشجار الزيزفون مكسرة. كأنما اجتاحتها دبابة ثقيلة عمياء. بل إنني رأيت على الأرض آثار جنزير دبابة. صارت نبضات قلبي مثل ضربات طبل تثير موجات متلاحقة من الذعر والشك والروع. ثم حاولت أن أهدّىء خواطري بأن قلت لنفسي: «**إن آثار جنزير الدبابة تشبه آثار جنزير جرار زراعي كبير.. لكن هل من مهام الجرار الزراعي أن يجتاح الأشجار فيحطمها هكذا؟**». أسرعت الخطى أكثر غير أن ساقيّ صارتا ترتجفان..

مياو.. مياو..

هذا هو القط شحادة. إنه واقف أمام ركام أول غرفة يصل إليها القادم من جهة المدخل. وهي قاعة تربية طيور الفرّي. ولكن لا سقف ولا جدران ولا أقفاص ولا طيور.. بل أنقاض فوق أنقاض من الذي هدمها هكذا؟.. يا إلهي.. ماذا حدث؟

صرخت بأعلى صوتي وأنا أرتجف خوفاً:

ـ يا حاج رضوان.. يا زاكي.

تقدمت بضع خطوات. صرت أمام الشرفة. على حافة الشرفة لمعت زجاجة مصباح النفط وهي تعكس ضوء القمر. أشعلت المصباح وحملته ودخلت.. يا إلهي.. كأنما معركة قتال دارت هنا في قاعة الجلوس، وطاحة الحاج رضوان ممزقة، وكل مفروشات المصطبة مبعثرة، وكل شيء في حالة فوضى وخراب.. **من الذي فعل هذا؟.. أين أهلي؟.. ماذا حدث؟**

أسرعت إلى المطبخ. أزحت الموقد. مددت رأسي في فتحة مخبأ القناة الجوفية، صحت بأعلى صوتي:

ـ يا حاج رضوان.. يا زاكي.. يا سعاد.. يا شفيقة.. يا أولاد.. هل أنتم هنا؟.. ردّوا عليَّ.. أنا أحمد.. مالكم لاتردّون؟!

انتظرت مصغيا بانتباه شديد.. غير أنني لم أسمع إلا طنين نبض الدم في عروق صدغَيّ. صرخت من جديد:

ـ مالكم لاتردّون.. أأنتم هنا في جوف الأرض؟

لاصوت من المخبأ.. لاشيء غير الظلام والخوف والهلع والغضب وهذا المصباح الواهن الذي تمسكت به وكأنه طوق النجاة، وهذا القط المسكين الذي ظل يلازمني

وينظر إليّ بعينين شاكيتين. ماذا حدث يا شحادة؟.. ألم يبق غيرك أحد من سكان المزرعة؟

حملت المصباح وخرجت لأبحث عنهم في قاعة الأرانب. غير أن هذه القاعة كانت مهدمة أيضاً، وآثار جنزير الدبابة واضحة. والأقفاص محطّمة والأرانب فالتة. كيف لم أنتبه منذ البداية إلى عيونها الحمراء التي تتلامع في حقل البرسيم؟

والدجاج؟.. ماذا حل بالدجاج؟

لا دجاج هناك ولا ما يحزنون. ولا صوت إلا صوت «شحادة» الذي يموء بحزن كأنه يريد أن يخبرني بشيء.. حملته على ساعدي ومضيت لأدور حول ركام البيت. وعندما صرت أمام غرفة المؤونة لم أصدّق ما رأته عيناي: **كان الزاكي جثة غارقة بالدم. وكان «قطاش» ميتاً بجانبه.**

مستحيل.. مستحيل

رميت القط عن يدي وجلست على التراب أحتضن رأس الزاكي وأبكي: «**ياحبيبي يازاكي.. أين أهلك يازاكي؟.. مالك لاترّد عليّ ياأخي؟**».. وبقيت أبكي وأنا أضم رأسه الى صدري. كان ملثماً. وكان وجهه ينضح بالرضى والسكينة في ضوء القمر. وكدت في لحظة جنون أمد يدي المرتجفة لأكشف اللثام عن فمه، لكنني تراجعت احتراماً لمشيئته. فهذا الانسان الرائع جدير بالاحترام بل التقديس. إنه بطل.. «**أنت بطل يازاكي. لقد ضحيت بحياتك دفاعاً عن أهلك**».

وأظن أنني بقيت هكذا ساعةً، ساعتين، ثلاث ساعات، وأنا أحتضن رأس الزاكي، وأمامي جثة الكلب «قطّاش» الذي أثبت أنه أحسن من عشرة رجال من ذلك النوع الذي «تكلبن في عهد الخنازير». **لكن كيف اغتيل هذا البطل الشهيد وكيف قتل هذا الكلب المسكين؟.. كم كانت المعركة شرسة وظالمة بين أولئك الوحوش المدججين بالأسلحة وبين أهلي الذين لاسلاح لهم إلا أيديهم، بل إن سعاداً بلا يدين أصلاً؟.. كيف دارت المعركة؟. من هو النذل الحقير الذي كان وراء هذه الجريمة اللعينة؟**

وبقيت جالساً هكذا. ولم يخطر على بالي أن أقوم فأتفقد بقية معالم المزرعة. فها إن الأشياء صارت واضحة أمامي. إذ أنهم لم يوفّروا من حقدهم حتى برج مضخة الماء ذات المروحة الهوائية الضخمة، فالبرج محطّم والمروحة ساقطة في بركة السمك

التي فتح «الغزاة» ساقيتها ففرغت من كل ما فيها من ماء، ولم يبق فيها إلا الطين..
من الذي أخذ الأسماك؟.. من الذي أخذ أقفاص الفرّي؟

حتماً **وزير الحرب**.

ولكن إذا كان هذا الوغد مصرّاً على احتكار تربية هذا النوع التجاري من الطيور فلماذا ينهب عساكره الأسماك والدجاج أيضاً؟

إذن فوراء هذه الجريمة **قائد سرايا الفتوحات** الكريه.. ألم يجن جنونه عندما صرخ بوجهي في القصر غاضباً: «من أنت حتى تتحداني؟!».. هل كان هذا انتقامه مني؟

ولكن لماذا لانقول إن الفاعلين هم جماعة الرئيس ذاته، بعد أن أبلغهم **اسكندر الحفيان** بأنني شتمت إلهم المزيف؟

أم أنه **وساف بوجقل**؟

أم أن ....

سمعت عواء ذئب فانتفضت مذعوراً وأفقت من كل تلك التساؤلات لألاحظ أن القمر قد غاب وأنا لاأدري.. فما العمل؟

كان صوت عواء الذئب قريباً.. إنه هنا في المزرعة. وإن عواءه المزعج يوحي بأنه غاضب أو منزعج.. يرى أمامه فريسة جاهزة ولكنه لايستطيع الوصول إليها. وهو جائع جداً.

ما العمل.. لامناص من النهوض وتفقّد الأمر.. إذ ربما كان أهلي هناك. أنزلت رأس الزاكي عن صدري وأرحته على الأرض، وحملت المصباح وتوجهت نحو مصدر الصوت المرعب، وحملت بيدي الثانية قطعة خشبية من حطام البيت.. ومضيت.. إلى أن وصلت إلى شجرة التوت.

كان ثمة ذئب ضارٍ تتلامع أنيابه في هذا الليل البهيم، وهو يقفز نحو شيء معلق بحبل الأرجوحة التي كنت قد صنعتها للأطفال.. غير أنه كان يقفز غاضباً ويسقط حانقاً دون أن يصل إلى ذلك الشيء الذي يريد أن يفترسه ليسد به جوعه.

تقدمت نحوه بشجاعة المجنون أو المستميت الذي ما عاد يهمه شيء. تقدمت وأنا أصرخ به وألوّح بالعصا الغليظة غاضباً. يقال إن الوحوش تخاف الضوء.. المهم أن الذئب ترك الساحة ومضى في حال سبيله. فأسرعت الى الارجوحة أريد أن أرى ماهو هذا الشيء الصغير المعلق في حبلها؟..

لا .. لا ..

صرخت بأعلى صوتي وأنا أنظر إلى السماء: لا .. لا ..

كانت جثة طفلة مشنوقة بالحبل.

ورحت، وأنا أكاد أنفجر غضباً، أرتجف ذعراً. إنني لا أجرؤ على أن أتقدم أكثر لأعرف أية طفلة؟! هل هي سلوى؟.. فردوس.. وداد؟.. دفعت نفسي إلى الأمام غصباً عني وحدقت أكثر وأنا أرفع المصباح بيدي عالياً. فصرخت كالمجنون: سلوى.. سلوى..

لقد شنقوا هذه الطفلة الصغيرة بحبل الأرجوحة..

ما أطول هذه الليلة وما أفظع أهوالها؟

حللت الأنشوطة من حول العنق النحيل، وأنزلت جثة هذه الحمامة البريئة ذات الشعر الحريري الطويل، واحتضنتها وجلست حانياً رأسي فوقها أبكي.. وأبكي.. وأبكي حتى الفجر. لم يغمض لي جفن ولم تهدأ براكين الأسئلة الملتهب داخل جمجمتي التي تكاد تنفجر.

ـ خبّريني يا حبيبتي.. ماذا فعلوا بك؟.. من هم المجرمون القتلة المتوحشون؟.. أين ذهب خالك الحاج رضوان والآخرون؟

ـ ولكن هل تنطق جثة طفلة؟

ـ بدلًا من هذا الكلام السخيف قم وانتقم.. انتقم.. اضرب.. اضرب..

ـ إخرس أنت.. أنت بالذات إخرس تماماً.

ـ ولَنفترض أن الطفلة سلوى هي الآن حمامة بيضاء في بساتين الجنة.. فأين الحاج رضوان والآخرون.

ـ سؤالك يجب أن يكون هكذا: أين شعبنا كله؟.. أين الطريق؟.. أين منهاج الخلاص؟

ـ بدلًا من هذا الكلام الفارغ قم وادفن الجثث.. هاقد انبلج الفجر.

حملت جثة الطفلة ورحت أبحث عن معول ورفش. وجدت طلبي.. حفرت ثلاثة مثاوٍ، ودفنت سلوى. والزاكي.. وقطاش.. ثم حملت القط شحادة على يدي ومشيت.. وتعمّدت أن لاألتفت يمنة أو يسرة، فأنا ما عدت أريد أن أرى أي شيء في المزرعة. غير أنني رأيت الحمار «صابر» واقف ينتظر شيئاً ما. «عفواً أيها المخلوق

المسكين، أنا مضطر لأن أتركك وحدك». كان الحمار واقفاً حدّ سياره «هيئة الأمم» التي يبدو أن الدبابة دهمتها فقلبتها على أحد جانبي الطريق.. ثم إنني مررت بموضع صناديق الهدايا فركلت أحد الصناديق بقدمي وتابعت المسير وأنا أشد على عضلات رقبتي حتى لا ألتفت إلى الخلف فقد كنت أود لو أرجع إلى ضريحي سلوى والزاكي فأبقى عندهما.. غير أنني تابعت المسير ولم ألتفت خلفي أبداً.

○

مرت سيارة «باص المبعوجة» التي يقودها سائق سمين مصاب بضيق التنفس، فوجدت رجلًا نائماً على طرف الطريق، عند مفرق مزرعة الطاحون، وهو يحتضن قطاً، وعلى ثيابه آثار دماء.

توقفت السيارة وصاح السائق بمعاونه:

ـــ انزل وأيقظ هذا المجنون.. عمرك رأيت رجلًا يحتضن قطة؟.. حتى تصدّق كلامي جيدا حين أخبرتك بأنه مجنون.

سمعت كل هذا الكلام، فنهضت، ونفضت التراب عن ثيابي، وحملت «شحادة» على ساعدي وصعدت الى الباص. الذي كان شبه فارغ من الركاب، فجلست في الصف الأمامي..

سألني السائق:

ـــ إلى أين يا أستاذ؟

ـــ ما هذا السؤال؟ هل يذهب باصك إلى غير العاصمة؟

كانت نسائم الصباح رطبة نديّة منعشة، والنوافذ مفتوحة.. والمعاون الذي جلس بجانبي ينظر إليّ من طرف عينه منتظراً أن يرى مفاجأة من هذا المجنون. وأنا ما أحببت أن أخيّب توقعاته سحبت من جيبي بطاقة السفر وقلت له:

ـــ هذه بطاقة سفر بالطائرة إلى ألمانيا.

ومزقت البطاقة ورميت فتاتها من النافذة.. فأصيب الرجل بالذهول.. فسحبت من جيبي جواز السفر وقلت له:

ـــ هذا جواز سفر ألماني.. أنا أحمل جنسية ألمانية..

ومزقت جواز السفر ورميت فتاته من النافذة، فقام الرجل ومشى إلى حيث السائق، فانحنى خلفه وهمس في إذنه شارحاً ما رآه. فقال السائق معتزاً بنباهته:

ـــ هل صدّقت الآن أنه مجنون؟

ومضت سيارة الباص في طريقها المعتاد باتجاه العاصمة.

انتهت



لست أدري إن كان أخي القارىء العربي سوف يستطيع أن يغلق دفتي هذا الكتاب قبل أن يكمل قراءة هذه الرواية حتى آخرها. وليس هذا «زعما» مني وإنما هو «إجماع في الرأي» من السادة النقاد والروائيين الذين أطلعتهم على مخطوطة هذه الرواية قبل أن أدفعها للنشر.

ذلك لأنني كنت متخوفا من أن لا تكون هذه الرواية «رواية».. وإن من حقي أخواني القراء عليّ أن أصارحهم بهذا الاعتراف، وأخص منهم من كانوا يتصورونني كاتبا ساخرا مأخوذا بالفكاهة والمرح. وإنني لاأتنصل من هذه السمة بل أتمنى أن أكون جديراً بها.. غير أنني في هذه الرواية حاولت أن أكون جادا لأول مرة في حياتي، وهذا مادفعني لأن أستشير أصدقائي النقاد والروائيين، الذين ما أسرع أن اتصلوا بي متسائلين: أين كنت مختبئا كل هذه السنين؟

.. ان روايتك تشد الانسان فعلًا ببساطة اسلوبها، وهول أحداثها، والدقة في وصف شخصياتها، وجمال وضوحها، غير أن لدينا سؤالا: بعد هذه الجدية والواقعية في الموضوع والأسلوب هل أنت جاد فعلا في دفع هذه الرواية للنشر؟..

شريف الراس

ثمن النسخة (١ر٥) ديناراً عراقياً أو ما يعادلها

طبع في مطبعة الرشيد (بغداد)